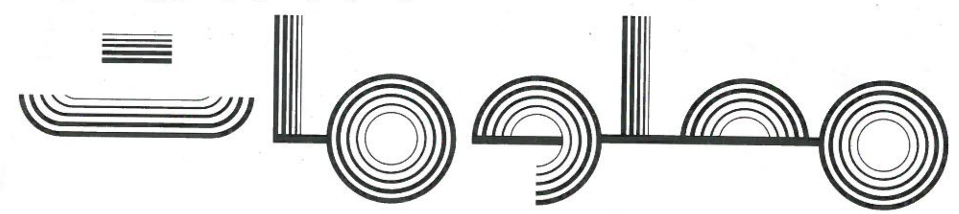
يصدر عن: المركز العربي للمعلومات





ملف يهتم بنشر الدراسات والمعلومات والوثائق



الشيعة
حالة سياسية أم طائفية؟

- الشيعة في عين الاعصار الاميركي للمنطقة العربية والاسلامية

تضخم وزن الطائفة وثنائية أمل - حزب الله في لبنان

العلم الشرعي الجعفري بين النجف وقم والحوزات المحلية

- خارطة العراق السياسية والطائفية ووقائع الاحتلال

العدد
٣٧

تموز
٢٠٠٣

زهير هواري

معلومات

محتويات العدد ٣٧

الشيعة ... حالة سياسية أم طائفية؟

اعداد: زهير هواري

* * *

يصدر عن:

المركز العربي للمعلومات

الحمرا ـ مبنى جريدة «السفير»
هاتف: ٣٥٠٠٨٠/١ ـ ٧٤٣٦٠١
ص.ب. ١٣٥/٨٨٢
فاكس: ٣٥٠٠٠٥ ـ ٧٤٣٦٠٢
بريد الكتروني:
adc@assafir.com

تنفيذ كمبيوتر:

أحمد رياض سلمان

الشيعة... حالة سياسية أم طائفية؟

... الشيعة في عين الاعصار الاميركي، سواء كانوا في ايران، افغانستان، العراق، لبنان، المملكة العربية السعودية، دولة الامارات العربية المتحدة والبحرين.... كل ما يطفو على السطح يومياً من اخبار وتحليلات ودراسات تؤكد ان نوعاً من الرصد والترصد المتبادل مع الولايات المتحدة الاميركية يظهر تحت عناوين ومسميات مختلفة. المشروع النووي الايراني، الاستعصاء والاعتراض على مشروع اعادة بناء الدولة في افغانستان ومقاومتها، عدم المشاركة بل الممانعة النسبية في التعامل مع الادارة المدنية للاحتلال في العراق، دون الوصول الى اعتماد المقاومة، باعتبار ان العمل السياسي لم يستنفذ اغراضه بعد، سلاح حزب الله في جنوب لبنان وتهديده للمستوطنات الشمالية لاسرائيل، ناهيك بالملف او الملفات التي تشاع عنه من مداخل مقاومته للوجود الاميركي في لبنان، شبكاته التمويلية المنتشرة حتى في اميركا نفسها، تسليحه الثقيل، ومصادره التسليحية والمادية من كل من سوريا وايران... القائمة تطال دول الجزيرة العربية على ضوء الاشكالية او الاشكاليات السياسية والاجتماعية – الاقتصادية – الثقافية – التي يعانيها الشيعة.

وما يعانيه الشيعة ليس معطى حديث التكوين، يرتبط بالمرحلة وما تشهده من حضور اميركي وازن في قلب معادلات المنطقة، لا سيما بعد احتلال العراق، الذي يضم ما بين ٦٠ – ٦٤ % من سكانه من هذه الطائفة، بل هو قديم، قدم التشيع نفسه وما عاناه آل البيت. وكانت ذروته جريمة الطف – كربلاء التي اودت بحياة الامام الحسين بن علي حفيد رسول الله وسبعين من آل بيته في مطامع الحكم الاموي خلال عهد يزيد بن معاوية بن ابي سفيان. خلال ذلك العهد الذي امتد من النصف الثاني للقرن السابع الميلادي، وحتى قبيل منتصف القرن التاسع الميلادي عانى الشيعة فنون الاضطهاد والتنكيل، بعد ان تحول هذا الانتماء الى مصب لكل تيارات المعارضة، سواء اعلى رايتها العرب او الموالي. لم تتغير الصورة مع الاطاحة بالدولة الاموية وقيام الدولة العباسية، فكان ان عمق الشيعة مبادئهم الفقهية والفكرية والثقافية. بدأ ذلك في عهد الامام الباقر خلال القسم الاخير من العهد الاموي، ومع الامام الصادق، وامتد صعوداً في كل المراحل التي مرت بها السلطة والقوى والشرائح. في غضون دويلات المماليك وغيرهم نال الشيعة نصيبهم المتلاحق من القمع والقهر، وعندما سقطت المنطقة في يد الامبراطورية العثمانية في العام ١٥١٦ لم يتم الاعتراف بهم. كانوا خلاف الآخرين مجرد ملاحق بالطائفة السنية واجتماعها. الدستور العثماني الصادر في العام ١٩٠٨ لم يعدل من اوضاعهم الكئيبة. كانوا اعداداً دون ان يعترف بهم كطائفة، اي ان ما حصلت عليه الطوائف المسيحية عبر "النظام الملي" لم يشملهم. وعندما تشكلت الدول في مرحلة الاستقلال لم يطرأ الكثير من التغيير على اوضاعهم رغم اندماجهم في الثورات الوطنية والقومية وانبناء ثقافتهم على الرحابة الفكرية التي جعلتهم في حومة الصراع تحقيقاً للاهداف بالدولة العربية او الدول الوطنية المستقلة. ظل في سنوات ما بعد الاستقلال التراث التركي حاضراً وبقوة في مختلف الدول، رغم دورهم في تفجير الثورات واعمال النضال سعياً

نحو تشكيل الدولة الوطنية التي عندما تشكلت لم تختلف عما سبق من نباءات ومنظومات تدخل في هذا الاطار وتتميز عن سواها.

لكن الاجتماع الشيعي ليس اجتماعاً متماثلاً. لا تعني الخصوصية العقائدية ان هناك وحدة في الهموم والرؤى والاهداف. إذ للتشيع والشيعية في ايران شخصيتها، كما في العراق وافغانستان ولبنان... وعليه يبقى الشيعة اكثر انجذاباً الى المدارات "الوطنية" منهم الى الفضاءات الفكرية والثقافية التي شكلهم وصقلت شخصياتهم على امتداء قرون وقرون... مع ذلك هناك ما هو مشترك، هو وقوعهم في محاور التقاطعات الخطرة في هذا المفصل من الزمن. يمكن "الحملقة" في الخارطة البشرية بدءاً من افغانستان مروراً بكل من ايران والعراق نزولاً الى المملكة العربية السعودية مروراً بسوريا ولبنان لتبيان ذلك. هذه الكتل تقع في نقاط يسعى المشروع الاميركي لإكتساحها وبناء امبراطورية كونية تقبض على العالم القديم، وتتحكم منه باقتصادات واستراتيجيات العالم بأسره، لا سيما الاكثر تقدماً منه، من خلال سلاح النفط فضلاً عن عقدة المسرح الجغرافي التي يظل حسابها قائماً رغم تطور الاستراتيجيات والخطوط والاسلحة وانهيار العديد من منظومات العصور السابقة. الشيعة في صميم هذه التقاطعات بالتأكيد. لا يعني ذلك ان السنة هم بمنأى او منجاة. ليس هناك من مصير مخصوص ينبني على اسس طائفية واجتماعية وثقافية. سيظل الجدل الفقهي قائماً، ليس بين السنة والشيعة، بل داخل السنة انفسهم وداخل الشيعة بطبيعة الحال. الآن يتم التركيز اميركياً على ما يسمى "الارهاب"، بتحديد ادق على التشكيلات السرية المرتبطة بالقاعدة اوما شابهها. ليس من وظيفة هذا التقديم لملف عن الشيعة، البحث في مسار تاريخي شقه الاميركيون واستعملوه ضد الاتحاد السوفياتي في افغانستان ثم ما لبث ان ارتد عليهم. ما يعنينا هنا الاشارة الى ان كل من لا يتطابق او يصمت عن مشروع "امبراطورية الخير" الاميركية تلصق به التهمة. قبل سنوات كان الشيعة هم في رأس قائمة المطلوبين الى "عدالة" الادارة الاميركية.

الان هناك نويات سنية صغيرة متناثرة ملاحقة. خرج العملاق الاميركي الى الحرب بعد احداث الحادي عشر من ايلول، وكانت ضربته الاولى في افغانستان والثانية في العراق... اما الثالثة والرابعة و... فما زالت في رحم الغيب. يفتح ملفات ثم لا تلبث ان تقفل، يستعمل ذلك في الضغط السياسي وغير السياسي ايضاً... الشيعة كجزء من معادلات المنطقة وقواها فضلاً عن تاريخها وحاضرها مستهدفون في العراق اولاً، وايران ولبنان و.... دوماً كانت تتبنى التدخلات الاستعمارية على قوى اجتماعية تحت ذريعة الحماية او تبريراً للتدخل، وظلت هذه القضية وكأنها حكراً على قواه ومؤسساته البحثية والدراسية. تحت تغطية القهر والتمييز بشعارات الوطنية والقومية والاسلام، وكأن هذه الشعارات تغلف هذا الانتهاك لحقوق الانسان على هذه الارض، عندما تغطيها باوراق واشرطة ملونة. لكن الكارثة عندما تحدث ينكشف عن معطيات مرعبة، ابرزها ان الاجتماع العربي – الاسلامي لم يتحقق على نحو يزيل عوامل الاجحاف ويفتح السبل امام مواطنية متساوية الحقوق والواجبات. من هذا يتبين ان هذه البنية التي ترتعد الان فرائصها في مهب التطورات العاصفة، لم تحمل في ثناياها ما يحصنها. لا يعني ذلك ان للسنة مشروعهم وكذلك الشيعة، ناهيك بالمسيحية

والدروز و.... الى ما هناك من جماعات دينية او اثنية. لكن هذا البـــاب لا بــد وان يفتح على النقاش، ما جرى لـيس عصـيـاً او عسـير التفسيـــر والتحليـل والقراءة. وبالتالي استخلاص الدروس والعبر ورسم اطر وسبل المعالجة. معالجة لا تتحقق باعلان، من تيارات مفتوحة على تحديد الاعطاب والعمل علـــى شـق طريق المستقبل، لذي لا يمكن ان يكون الا ديموقراطياً حقيقياً بما تعنيه الكلمة من زوال كل اشكال التسلط والقهر ايا كان الرداء الذي ترتديه.

فـــي هذا الملف الذي تفتحه "السفير" والذي اعده الزميل زهير هواري، محاولة، لا تدعي الاكتمال بالاحاطة بملف الشيعة في العالميين العربي والاسلامي لكنهـا تتدرج في اطار المشروع الجريء نحو الدق "على باب الخزان" ومعرفة ما فـــي داخله وما في خارجه بطبيعة الحال والخطر المحدق الذي يتهدد القـابعين بـين جدرانه الملتهبة. بدأ هذا الملف انطلاقاً من جنوب لبنان باعتباره النقطة الاكثـر سخونة في الحدود العربية – الاسرائيلية ولما يعبر عنه من تقاطعات تجمع بين الفلسطيني واللبناني والسوري والايراني في مواجهة الاسرائيلي – الاميركي، لا سيما على ضوء المطالب بسحب سلاح حزب الله ونشر الجيش اللبنـاني علـى الحدود الدولية. بعد ذلك نتناول مضاعفات خارطة الطريق في فلسـطين علـى ضوء ما تعنيه لموقفي كل من سوريا وايران وبالتماس مع الوضـع اللبنـاني. ومنه ينتقل الى البحث التفصيلي في الوضع الداخلي العراقي. وطبيعـة تشـكل القوى بعد ثلاثة عقود من الضبط الصدامي، والدورالممكن والمفترض ان تلعبه مرجعية النجف على المستوى الوطني في ما يتعدى دورها الفقهي والعقائـدي. ومن العراق الى ايران والجزيرة العربية، ثم عودة الى لبنان في محاولة لرصـد التطورات التي دفعت بالدور الشيعي الى "متن" الكيان اللبناني، بعد مرحلة مــن التهميش امتدت حتى ستينات القرن الماضي، عندما تمت خلخلتهـا علـى يـد اليسار اولاً، ثم الامام موسى الصدر وحركة المحرمين ثانياً ثم حـزب الله ثالثـاً في الثمانينات وما يليها، وما زالت حاضرة بثقلها اليوم.

ملف الشيعة الذي فتحته "السفير" هو محاولة للدخول في واحدة من اكبـر قضـايا المنطقة تعقيداً، نظراً لاتساع المسرح الذي تتناوله ... لعله اكثـر مــن اضـاءة شمعة في هذا الليل المدلهم.

**** "معلومات"

مستقبل «حزب الله» وسلاحه في ضوء مطالب إدارة بوش

يتلافى كثيرون فتح ملف الشيعة في لبنان والمنطقة العربية والإسلامية، والمقصود بالأخيرة إيران دون سواها. الشيعة الآن في عين الإعصار الاميركي، سواء كانوا في العراق او لبنان أو ايران. وأمام وضع من هذا النوع تتدافع الاسئلة: الشيعة حالة سياسية ام طائفية ام اجتماعية؟ كانت النجف دوما جامعة الشمل، جامعة شمل الشيعة، يقصدونها ليتتلمذوا على كبار فقهائها. يجتمع اللبناني بالسوري والسعودي والعراقي والايراني والافغاني و.. كان هذا يحدث قبل التفريغ الذي طال المدينة وحوزتها العلمية ومراجعها. الآن لم تستعد بعد مكانتها. ما زالت بحاجة الى الكثير من الوقت والجهد لاستعادة الدور والمكانة. شيعة العراق في قلب الخطر، ديارهم محتلة وأفق الاوضاع لم ينجل بعد. إيران على حافة الخطر من مدخل البرنامج النووي، والمقصود ليس سوى الذرائع والتبرير. في لبنان الصورة أشد وضوحا لهذه الجهة، فالخطة الاميركية تستهدف في ما تستهدف سلاح حزب الله والجنوب باعتباره بوابة لبنان.

لكن الشيعة ليسوا طائفة صمّاء، في داخل هذه الحشود قوى سياسية واجتماعية وتيارات واجتهادات ومرجعيات ومراكز ثقل ونفوذ و.. منذ أن نجح الإمام الخميني في اطاحة نظام الشاه السابق، حدث تحول في الموقع الشيعي العام. الآن الشيعة في العراق تحت نير الاحتلال يتلمسون طريقهم بين حوزة النجف الأشرف وتأطيرات القوى السياسية الخارجة من رحم معاناة القمع الصدّامي ومنوعاته.. إيران على محك الصراع، والعراق في صميمه، ولبنان ايضا. وكأن هذه الطائفة التي تترامى دياراً او دولاً ومجتمعات في «عين الردى» كما قال الشاعر ابو تمام يوما. مصائر قوى ودول مطروحة على بساط البحث. في لبنان هناك حديث طويل عن كل من حزب الله وحركة أمل باعتبارهما خلاصة التجربة السياسية للشيعة. في العراق، الى جانب الحوزة هناك مصير حزب الدعوة الذي ساهم لبنانيون في تأسيسه خلال الخمسينات، والمجلس الأعلى للثورة الاسلامية وتيار الصدر.. وقبلا مصير العراق.. في ايران هناك صراع داخلي ـ خارجي متداخل.

الكثير من الأسئلة مطروح من لبنان وحتى إيران مرورا بساحات العراق وفلسطين والجزيرة العربية.. هذه الاسئلة المعلّقة تفتح الملف ولا تقفله، باعتبار ان التقاطعات واضحة بين هذه الساحة وتلك.. يبقى القول ان هذه السلسلة من التحقيقات التي نشرتها «السفير» تلامس الموضوع السياسي الإقليمي، لكنها في لبنان، الذي تبدأ منه، تغوص في التفاصيل، تتناول مصائر حزب الله وأمل وسط المتغيرات، الحوزات العلمية، المسار السياسي المميز للشيعة، التربية والمؤسسة الاجتماعية، وتفرد حديثا خاصاً للمرجع الشيعي السيد محمد حسين فضل الله.. هذه بعض العناوين فيما المقاربات بحلقاتها ومسارحها أشد اتساعاً.

ونبدأ مع سلاح حزب الله وجبهة الجنوب:

من العراق الى ايران وسوريا ومنطقة الخليج... تصل الى الجنوب اللبناني. والجنوب هو موقع الثقل لدى الطائفة الشيعية في لبنان، الوجود الشيعي في العاصمة مصدره الأساس منه. هناك بالطبع من هم في عداد العاصمة الادارية اصولا وفروعا. وهناك من وفدوا اليها من البقاع او جبيل. لكن الجنوب من دون سواه يظل النبع الاكبر.

والجنوب هو خط التماس اللبناني مع الاحتلال الاسرائيلي. وما ينطبق على لبنان، يصح على كل من ايران وسوريا. وكل ما عرفناه قبل الاحتلال الاميركي للعراق بات الآن مختلفا. قواعد اللعبة تغيرت على نحو كلي وانقلابي بالقياس الى ما سبق. الرائج حول انعكاسات ذلك جنوبا هو كثير. يدخل في تحليلات لأوضاع كل من ايران وسوريا ويستقر في لبنان. جزء من الأخير يتمحور حول الصراع العربي ـ الاسرائيلي في حلته الراهنة، وآخر على التوازنات الداخلية ومواقع الشيعة فيها، عبر كل من «حزب الله» و«أمل» ومستقبلها في الكيان. وهذا كله وسواه مرتبط بشكل او بآخر بالمعطى الجديد، ممثلا بالاحتلال الاميركي للعراق. لم يعد شيعة لبنان، عبر قوتهما السياسية والعسكرية مجرد قوتين محليتين، باتتا جزءا من خارطة اوسع، تتجاوز مساحة الكيان.

حمل باول معه قائمة مطالب الى لبنان. وبعد رحيله راجت القراءات لدلالات ما طرحه لبنانيا وسوريا، وعلى صعيد الطائفة على نحو مخصوص. قيادة الحزب تدرس وتمحص. هناك من يتوقع قطع تدفق الدعم المالي والتسليحي له من ايران عبر سوريا، كمقدمة لتسريح المقاومة وتحويلها بالتالي الى مجرد حزب سياسي مثله مثل سواه من احزاب على الساحة اللبنانية. خصوصا وان وزنه النيابي لا يستهان به، كما استقر عليه في انتخابات العام ألفين. هؤلاء يتحدثون عن تغييرات كلية في «قوام» هذا الحزب كما استقر عليه منذ العام ١٩٨٣، وبعض هؤلاء يجزم ان تفيد «أمل» من هذه المعطيات انتعاشا اضافيا داخل الطائفة وخارجها. البعض في الحركة يدرس هذا المعطى ويرفض هذه الاوهام، مؤكدا ان لوي الذراع العسكرية للطائفة يلوي الجسم السياسي الرئيسي ممثلا بها.

لذا يعلي تضامنه مع الحزب في هذا المفصل. والحقيقة ان «حزب الله» لم ينشئ جهازا عسكريا مقاوما مقاتلا فقط، بل اقام مؤسسات كبرى ايضا، في ميادين التربية والتعليم ورعاية أسر الشهداء والجرحى وتوزيع المساعدات والبناء والزراعة والعمل التعاوني و.. هذه جميعا قد تتأثر اذا ما توقف التمويل. ولا شك ان انتصار الحزب في جنوب لبنان كان اضافة الى كونه انتصارا للبنان انتصارا ايرانيا وسوريا ايضا على اسرائيل.

لكن المعطى تغير، ومن المتعذر الآن الوقوف في وجه الموجة الاميركية العاتية في ذروة المد. يتطلب الآن الوضع بعض الاشهر لمعرفة وبدقة مجريات وقائع الاحتلال واحتمالات المشروع الاميركي شرق اوسطيا: ثم هناك خارطة الطريق في فلسطين ايضا. كل هذه تدفع الى القول ان هناك وقتا ضائعا، قد يطول او يقصر تبعا للمتغيرات. لكن الأهم ان مقاس لبنان برمته قد اختلف الآن. من ضمنه طبعا الوجود الشيعي والموقع الجنوبي تحديدا، الذي شغل المنطقة وملأ الناس داخليا وعربيا طوال العقود الماضية.

ما هو المصير، بل ما هي المصائر. السؤال حقيقي. والخارطة الشيعية مركبة على ثنائية، تنجدل جنوبا اكثر مما هي عليه في اي منطقة اخرى من لبنان. لكن يظل لها حضور بقاعا او سواه، ثم هناك قوى كامنة تتجاوز ثنائية «أمل» و«حزب الله» ودوريهما توافقا او تنافسا. المهم ان التطورات لم تمط اللثام كاملا بعد عن وجهها لتتحدد المسارات والأوزان والأدوار بوضوح. مع ذلك ثمة كلام كثير لا بد وأن يقال، يفتح المناهج وان كان لا يحسم بمؤداها ومنتهاها.

لبنان في الملفات

ترافق الحديث عن نزع سلاح «حزب الله» مع المطالبة بنشر الجيش اللبناني جنوبا. لم تقدم هذه الورقة لناظر الخارجية كولن باول، عندما التقى «الترويكا» اللبنانية في قصر بعبدا. وثمة في الجنوب نوع من الترقب. «التدجين» لم يبدأ عالي الوتيرة بعد، لكن هناك من يرى، رغم «تقليدية» الخطاب اللبناني حول نشر الجيش، أن هذا الأمر ممكن، لأنه قد يعني للمواطنين الجنوبيين دخولا في مسار استقرار للأوضاع، يختلف عن تلك المراحل التي أقصي فيها الجيش عن تلك المنطقة. أيا تكن الخيارات فالموضوع مفتوح بطبيعة الحال، لا سيما وأن قطعا لا بد وأن يحدث مع الماضي، بعد الانسحاب الاسرائيلي في العام ٢٠٠٠.

يحدد نائب الأمين العام لحزب الله الشيخ نعيم قاسم ما طرحه باول على الرؤساء الثلاثة بالنقاط الثلاث التالية: سحب سلاح الحزب من الجنوب. انتشار الجيش اللبناني وأخيرا خروج القوات السورية من لبنان. يفصل قاسم في رد الرئيس لحود، وهو ردبات معروفا يتركز حول انسجام الحزب مع الدولة وهو مقاومة، وان الجيش هو فعليا في الجنوب مع القوى الأمنية، وليست وظيفته حماية أمن إسرائيل. أما الثالث فبالتأكيد على الحاجة للقوات السورية التي تنظم بوجودها العلاقات المشتركة واتفاق الطائف والاوضاع الداخلية اللبنانية التي تتطلب بقاءها.

يصف قاسم الضغط الذي قاده باول بأنه يستهدف ثلاثة ملفات: العراق وفلسطين ولبنان. والترتيب الذي يضعه قاسم له دلالاته. فالعراق أولا، وفلسطين ثانيا ولبنان ثالثا. علما أن كل ملف من الثلاثة يساند الآخر او يمهد له. في الأول هناك إجراءات اتخذتها سوريا. وفي الثاني كان رد كل من سوريا وايران ولبنان أن خيارات الشعب الفلسطيني هي الأساس. ما يعنينا الآن هو الثالث.

يرى قاسم أن الأميركيين بحاجة الى بعض الوقت لاستكشاف نتائج احتلالهم للعراق وترتيب شؤونه، وتبين فعالية خارطة الطريق ونتائجها، فإذا استمروا بالضغط على لبنان بما يتعلق بحزب الله يكونون قد تجاوزوا مرحلتين لم تنضجا بعد. لذا اعتبر أن حدود الضغط السياسي هي التي رأيناها، ولا جديد في الوضع السوري ـ اللبناني الى أشهر، بالحد الأدنى بانتظار ما سيحصل في العراق وفلسطين. لكن هذا لا يمنع من استمرار الحديث السياسي الأميركي عن مطالب لدى سوريا ولبنان.

يستنتج قاسم أن الوضع معلق الى أشهر بانتظار التطورات انطلاقا من التداخل الكبير في الملفات. ولكن لو كان هناك اطمئنان أميركي ـ إسرائيلي بأن ضربة خاطفة لحزب الله تنهك قواه لقاموا بها كعملية استباقية، توفر عليهم خطوات مستقبلية. لكن لاعتقادهم أن مثل هذه المغامرة غير مضمونة، وقد تقود الى ردود وتهديد الساحة الاسرائيلية بما يربك خطواتهم.. يحاولون أن يحققوا بالسياسة في الملفين مما يوفر عليهم خطوات تتعلق بلبنان وسوريا. أما أن يكون الهدف سوريا فهذا يعني قلب الطاولة على عملية التسوية في الشرق الاوسط. ومثل هذا القرار أصعب من القرار الاول لتداعياته السياسية التي قد تجد نتائج تجعل المنطقة مفتوحة على أعمال لا يمكن ضبطها وترتد بالتالي على ما تعتبره أميركا وإسرائيل إنجازا في الموضوع الاسرائيلي. هذا هو تحليل الشيخ قاسم حرفيا.

موقع حزب الله

الاوضح في ما ذكره قاسم هو هذه الفترة الانتظارية نظرا لتداخل الحلقات. مما يعني ان ملف حزب الله كجزء من الملف اللبناني ـ السوري مستأخر لأشهر ريثما تظهر نتائج الملفين المستعجلين: العراقي والفلسطيني.

السيد هاني فحص، يقرأ موقع «حزب الله» بالعلاقة مع الوضعين الإيراني والسوري، وهذان الوضعان هما مصدر حياة وضبط وانضباط الحزب، الذي هو مشروع إيراني بقدر ما هو مشروع سوري، يقول فحص: ان «حزب الله» المقاوم المناضل هو مشروع سوري أيضا بالنظر الى التزامات سوريا الوطنية والقومية وثمرة لموقعها الذي لا يستطيع أحد تغييره. اما مشروع «حزب الله»، المشروع الفكري ـ الاسلاموي ـ الأمني فلا يمكن أن يكون مشروعا سوريا. وسوريا تسهم في حفظ علاقتها به وحفظه في الساحة اللبنانية، إذا استطاعت أن تؤثر في عقله في هذا الاتجاه. والملاحظ أن سوريا تقترب الآن أكثر فأكثر من طريقة إيران في التعاطي مع الأحداث الكبرى، بدءا من أفغانستان وحتى العراق، أي إعطاء سلامة سوريا الأولوية الأولى ومحاذرة الدخول في مغامرة غير محسوبة كما فعل النظام العراقي. يعني ذلك الاستعداد لتقديم تنازلات محدودة حفظا لكيانها وموقعها ومستقبلها ومنعا لمغامرة أميركية ـ اسرائيلية. إذن سوريا الى مزيد من الاعتدال. ومن الطبيعي ان يمتد هذا الاعتدال الى المتفاهمين معها والذين لهم علاقة تضامنية حقيقية بها وفي الطليعة «حزب الله».

يصف فحص «سلاح حزب الله» بأنه تفصيل، إذا كان البحث في العمق. إذ أن هذا الحزب لن يستطيع الاستمرار في حمل السلاح الى آخر العمر. هناك تحديات أكبر من السلاح. ينطلق فحص نحو شرح احتمالات الوضع في فلسطين ومصير خارطة الطريق... فإذا كان شارون مقتنعا أنه لا يستطيع إنجاز تسوية في أي حدود وكان يفكر بالهجوم لإلزام العالم بمترتبات ممانعته للتسوية، فان حزب الله في المواجهة يصبح تفصيلا لأنه إذا انفرد لا يحقق شيئا. إذن لا بد من مشروع عربي اسلامي متكامل يأخذ حزب الله دوره فيه. وهذا المشروع رافعته الجسر السوري ـ الايراني.

يعتبر فحص ان لا مصلحة أميركية في كسر سوريا أما ابتزازها فممكن. الوضع في سوريا هو أهم ضمانة للاستقرار لأنه من دون هذا الوضع من هي القوى المرشحة للامساك به؟ الاسلام السياسي التاريخي في سوريا غير مرشح وأضعف من ذلك، فالقوى الاسلامية المعتدلة ليس لديها مشروع سياسي. إذن يواجهنا في سوريا احتمال إسلام مثل إسلام الجزائر: عنف عشوائي لا ضابط له وعفوي، وخطورته أنه على حدود فلسطين، مما يزعج الغرب وأميركا دون أن يقود الى تحقيق إنجازات كبرى على طريق التحرير. لذلك فسلامة سوريا هي سلامة المنطقة، وهي ضمانة المطالب الاميركية، التي لا يمكن أن نسميها مشروعة، ولكنها على سوئها يمكن أن تكون أقل من فتح صراع لا يبقي ولا يذر.

الجيش جنوبا

الواضح من كلام فحص أن سلاح حزب الله تفصيل. ودوماً يترابط الحديث عن هذا السلاح مع نشر الجيش اللبناني على الحدود الجنوبية. عندها يفقد هذا السلاح مستنده «الشرعي» الرئيسي الذي قام عليه، ويتحول الى سلاح مواز لأسلحة الميليشيات التي تسلمتها الدولة، وتأخر حزب الله لأسباب تتعلق بالاحتلال والجنوب عنها أكثر من عقد من السنوات.. أما وقد «أنجز» التحرير فلا بد من أن يتم ذلك، باعتبار أن وجهه الآخر نشر الجيش.

رئيس معهد الصدر للدراسات الاسلامية المفتي السيد علي الأمين يعتبر أن ليس من حق باول أن يتقدم بأي مطلب يتعلق بسيادة لبنان واستقلاله، لأن هذه الأمور تعتبر شأنا لبنانيا. والدولة اللبنانية بلغت سن الرشد منذ عهد الاستقلال وأميركا ليست وصية عليها. لذا نعتبر تجريد حزب الله من سلاحه مسألة لبنانية لا علاقة لأميركا بها، وحزب الله هو جزء لا يتجزأ من النسيج اللبناني وموجود في الحياة السياسية والاجتماعية. ثم أن لبنان ما زال في دائرة الخطر، وحزب الله هو معين اساس في مواجهة الخطر الذي يستهدف كل لبنان بما فيه جبل عامل.

ايضا يقرأ المفتي الأمين ارسال الجيش الى الجنوب باعتباره شأنا لبنانيا تقرره السلطة السياسية وقيادة الجيش. وهذا ينبع من حق الجيش ان يكون موجوداً في كل بقعة ومنطقة من المناطق اللبنانية، والجيش اللبناني هو ضمانة لكل لبنان وليس شرطياً للحدود الاسرائيلية كما يريده باول.

الناطق بلسان المكتب السياسي لحركة «امل» يعتبر ان المقاومة هي الجامع المشترك الذي اتفق اللبنانيون على ان لا خلاص لهم من الاحتلال الاسرائيلي دونها. وعليه فإن من الاهمية بمكان الحفاظ عليها، خصوصاً وانها لا تزال حاجة ملحة، لان لبنان يقع على خط تماس الجغرافيا والتاريخ مع قضية المنطقة، ولان التحولات والوقائع في الشرق الاوسط، تعكس نفسها على لبنان. فإننا نؤكد على هدف مؤسس الحركة الإمام موسى الصدر بضرورة مجتمع مقاوم مع المقاومة، اللذان يشكلان ضرورة ملحة امام صعود اليمين الاسرائيلي وامام المستوى السياسي والعسكري اليميني الاصولي والقومي الذي يحكم اسرائيل وعلى رأسه شارون.

يختم قائلا: اننا في حركة «امل» وفي كل الحالات لن نقبل بالتفريط بالمقاومة او اسقاط سلاحها حتى استكمال تحرير ارضنا وفي طليعتها مزارع شبعا وتلال كفرشوبا وحتى يلمس لبنان ضمانات دولية قاطعة بأن اسرائيل تخلت عن اطماعها في المياه اللبنانية وانها سلكت طريق السلام العادل والشامل ارتكازاً على المقررات الدولية ذات الصلة بأزمة الشرق الاوسط.

يقدم الناطق لقراءته هذه بعرض تفصيلي للتطورات التي شهدها لبنان منذ التوصل الى اتفاق الطائف، وخصوصاً المحطات البارزة، ويتوقف عند العلاقة مع سوريا وحرص الرئيس نبيه بري وقيادة الحركة على الوفاء بها وعلى «وحدة المصير والمسار وتعزيز علاقات الاخوة والتعاون والتنسيق... وتقوية الروابط والارتقاء بالعلاقة الى التكامل الذي يخدم الشعب الواحد داخل الدولتين الشقيقتين...»».

ينطلق ابراهيم شمس الدين من اعتبار ما طلبه باول يمثل الرؤية الاميركية ليس للبنان بل للصراع العربي ـ الاسرائيلي اذ ان الاميركين يعتبرون اي جهة ذات تكوين حزبي مسلح ارهابية. المقاومة كما هو معروف ردة فعل على احتلال. لا دولة في التاريخ تنشئ ناساً وظيفتهم المقاومة. الناس تنشأ وتنمو وتتكامل ضمن نظام قيم. هذا الموضوع ليس موضوعا «روبوتيا». الدولة العسكرية ذات المهمة القتالية انتهت مع نهاية اسبارطة تاريخياً. لا دولة على هذا النحو، فضلا عن شعب. اصلا حزب الله نشأ ضمن هذه الصيغة ومن قبله ايضا. الامر البديهي والتلقائي انه اذا لم يكن هناك احتلال فلا تكون هناك مقاومة، ليزول الاحتلال ولن تعود عندها المقاومة موجودة، هذه من الثنائيات المتلازمة التي لا تحتاج الى اثبات... اسرائيل هي من يعادي السلام وأنا بحاجة الى اثباتات كي اصدق الاميركي ومقولاته للسلام.

الحزب ومزارع شبعا

بالطبع ترتبط قضية سلاح المقاومة مع مزارع شبعا وتلال كفرشوبا المحتلتين. عندما فتح هذا الموضوع في اعقاب تحديد الخط الازرق صدرت مواقف ودراسات عديدة، لا سيما وانها نقطة تقاطع سورية ـ لبنانية ـ فلسطينية، ليس بالجغرافيا فحسب بل وبالسياسة ايضا. مع ذلك، فإن عمليات المقاومة باتت اكثر تباعداً من ذي قبل... كان المعدل انه في كل ثلاثة اشهر عملية... الآن باتت المدة غير محددة. الكلام السياسي الذي قيل يفتح ايضا على علاقة سوريا بجبهة الجنوب وبالتحريك المطلوب لقضية الاحتلال الاسرائيلي لمنطقة الجولان ايضا. كما يظل على دور حزب الله سوريا، اي اقليميا. باعتبار ان الدور في دعم الانتفاضة يدخل في باب التعبئة.

يعتبر الشيخ نعيم قاسم ان نمط عمليات حزب الله في المزارع متباعد منذ التحرير مع استثناء احداث جنين، ويرى انه يحقق

اهدافه المرجوة في تأكيد الاصرار على استعادة المزارع وابقاء السيف مسلطاً فوق رقبة اسرائيل وايجاد الضغط الكافي للحث على الخروج من لبنان واعطاء الاشارات الملائمة لدعم القضية الفلسطينية وتحرير الجولان ورفض تبعات الاحتلال في التوطين. يقول قاسم مضيفاً: نحن لا نريد ان نحول مزارع شبعا الى تراشق ناري تقليدي. ونعتبر ان ما تؤديه المقاومة يحقق الاهداف المذكورة، ودليلنا على ذلك، انه رغم حجم عمليات المقاومة فإن اسرائيل لا تتوقف عن التهديد والوعيد، وابراز مأزق وجود حزب الله. وهذا دليل على فعالية ما نقوم به.

هذه القراءة التي يقدمها قاسم يناقضها على نحو كلي وشامل الامين العام الاسبق لحزب الله الشيخ صبحي الطفيلي: «عندما يقال ان حزب الله سيبعد عن الحدود اعتبر ذلك بشارة. اذ انني ادرك الالم الذي يعتصر قلوب جماهيرنا الذين ربيناهم وهي ترى الآليات والجنود الاسرائيليين على ارض فلسطين وبينهما مسافة امتار وممنوع عليها ان تقاتل هذا العدو. او اذا كلف ببعض التكاليف المخالفة لقناعاته، اعرف بالتأكيد حجم معاناة المجاهد».

الامر الآخر، يتابع الطفيلي، هناك من اشاد بحكمة حزب الله خلال السنوات الثلاث الماضية التي مرت على التحرير. خلال هذه السنوات السوداء يا حبذا لو ان المقاومة كانت بعيدة عن الشريط لأنها بذلك تبعد على نفسها تهمة حماية الاحتلال الاسرائيلي. عار ان احمل السلاح وامامي اسرائيلي يقوم بدورية وأنا مقابله افعل الامر نفسه. أنا حزين من هذا المشهد، ان تبتعد هذه الصورة عن الشاشة ولا يبقى هذا المنظر ماثلا امامي هو حدث جميل. اضف ان ابتعاد المقاومين عن الشريط سيضعف اجراءات الأمن لحماية الكيان الصهيوني. لنفترض ان الجيش اللبناني امسك الحدود، ستكون هناك سهولة للوصول الى العدو الاسرائيلي. وستكون مضاعفات الوصول اليه اقل مما هي عليها الآن. اذ ان النظام يمكن ان يمسك هؤلاء او يقتلهم حتى. بينما اليوم عبر تفاعلات شعبية تنتج عن التخبط من وجود المقاومة على الشريط. كان يرى الطفيلي اذن الا يصل حزب الله الى الشريط الحدودي اساساً، لان المشهد بحماية الحدود من هذه الجهة والاسرائيلي من تلك الجهة مؤلم. ما كان ينبغي له ان يكون. كان على الحزب ان يظل بعيداً مئات الامتار على الاقل، ويقول أنا لا التقي الا بالقتال مع العدو. ولاني لا استطيع ان اقاتله الآن، حتى لا يدخلني ذلك في قتال مع الجيش اللبناني او سواه فأنا لا استطيع ان اتابع الحرب، لاني لا اريد ان ادخل في حروب اخرى. وابقى بعيداً وجاهزاً لاي فرصة تسنح لمتابعة القتال. الحديث عن الدولة والشعب المقاوم هو كلام. لو ان في لبنان نظاماً سياسياً لما استطعنا ان نؤسس المقاومة. الشعب المصري لم يستطع ان يؤسس المقاومة رغم شجاعته. كلما قويت الدولة تراجعت المقاومة، ممكن للمقاومة ان تستغل اي ظرف وتكمل، ربما تستغل ظروفا كبرى، والمهم ان نتابع النشاط المقاوم.

الحزب والدولة

يبدو من حديث الطفيلي وكأن معارضته تنسحب من الحزب الى وجود الدولة. وهذا ما يرفضه مستعيداً بعض حديث البدايات، وما رسخته الأنظمة عن قدرة إسرائيل «المطلقة»، مما دفعنا الى انتهاز الفرصة وقلنا للحكام اننا سنثبت ان هذه المقولة مزيفة ونتفوق عليها ونحول أرض لبنان الى مدرسة نسعى الى نشرها على كل الحدود العربية. والأمر الثاني هو طرد العدو من أكبر مساحة ممكنة من الأرض. وهذا ما حدث من خلال المقاومة. الجناح الموازي لكلا الأمرين هو العمل السياسي الاجتماعي لبناء مؤسسات خاضعة للقانون. ومع بداية الحديث عن قيام دولة في لبنان، كان لدينا مشروع أن نشكل المراقب الذي يرصد بدقة بناء الكيان والضغط لتوجيهه اسلم المناهج.. هذا الحديث يدخلنا في متاهة مصالح الدول ومساحات التأثير والضغط. هذه لعبت ادوارها واستطاعت ان تجهض تيار المقاومة وتحوله الى تيار مشلول سياسياً، ثم تدخله شيئاً فشيئاً الى داعم لجوقة الفساد في البلد. وقد حاولت جهدي مع اصدقائي والخيرين أن نقلل من هذا التوجه، لكن أمام الامكانات الضخمة التي يتحلى بها أصحاب الرؤى الأخرى وهم دول كانت النتيجة واضحة.

مقابل رؤية الطفيلي لدور الحزب في بناء الدولة، تنهض رؤية أخرى عبر عنها الحزب تصاعدياً حتى باتت له كتلته النيابية جنوباً وبقاعاً.

رئيس كتلة الوفاء للمقاومة النائب محمد رعد يصف مشاركة الحزب النيابية منذ العام ١٩٩٢ بأنها هدفت الى التأكيد انه حزب سياسي له دوره في تطوير الحياة السياسية ويتوسل الحوار والتحالفات وصولاً الى ذلك. وكذلك الافادة من الحضور البرلماني الذي يعكس إرادة شعبية لتوضيح رؤية المقاومة والحزب في المنتديات الرسمية والسياسية المحلية والإقليمية والدولية. خصوصاً وان هذه الرؤية تتعرض للتشويه والتحريف من قبل سياسيين غير مطلعين أو أجهزة معادية. وثالثاً ضبط انفعالات الشارع المقاوم والسير به في طريق منهجية بما يؤدي الى تحقيق مطالبه وأهدافه المشروعة بالسياسة.

يضيف رعد: هذه الأمور يندرج تحت كل واحد منها جملة من المستلزمات التفصيلية والآليات، استطيع أن أقول بأن تجربة حزب الله النيابية قد نجحت بشكل مقبول حتى الآن في الاستجابة لها أو في تخفيفها رغم المضي في العمل السياسي بطريقة محاذرة توازن بين متطلبات الاستنهاض الوطني لدفع المخاطر المصيرية ومن دعائمها الاجماع الوطني اللبناني وبين متطلبات الجمهور التي تحتاج تلبيتها الى ممارسة سياسة الزواريب في التحالفات.

تبدو كل القنوات مفتوحة على بعضها بعضاً. بوابة فاطمة مفتوحة على بوابة لبنان، وبوابة لبنان على بوابات سوريا وإيران وفلسطين والعراق و... الى درجة تصبح معها الخرائط الكبرى مجرد خرائط متداخلة. لكن الجنوب ليس فقط أرضاً للصراع ونقطة على السطر. أيضاً ليس الجنوب مجرد مواقع مقتسمة بين حزب الله وحركة «أمل». وهو بالتأكيد أكبر من مجرد منطقة محاذية للكيان الصهيوني، وان كان لبنان وسوريا والاردن ومصر كانت يوماً تعتبر «دول الطوق»، عندما كان هناك طوق.. الجنوب أيضاً قوى وفاعليات وقرى وبلدات ومدن. مثقفون، أطباء، مهندسون، رجال أعمال، عمال وفلاحون وحرفيون... والثابت ان هؤلاء جميعاً لا ينطلقون من حسابات مفردة بجداول الطائفة الشيعية، ثم انهم ليسوا جميعاً منها، ففي الجنوب تعددية وارجحية في الوقت ذاته..

وهذه المعطيات تفتح على هذه اللحظة في عمر الكيان اللبناني وتراتبيات القوى. وفي المقدمة منها بالتأكيد الطائفة الشيعية، التي تقف الآن أمام المنعطفات تعيد التدقيق بحساباتها ورؤيتها السياسية. ضمن هذا المناخ من التفاعل بين الداخل والخارج، لا بد وأن مصائر القوى واوازنها على محك الواقع بطبيعة الحال.

«الخارطة» تقطع طريق «التحرير» من الجنوب اللبناني إلى القدس

من جنوب لبنان الى فلسطين او بالاتجاهين، وسط تأجج الخطة الاميركية المنفلتة في المنطقة، والتي كانت ذروتها الحرب على العراق وما بعدها من محاولات لادارة الوضع ووقف تيار المعارضة الداخلية، معبرا عن نفسه بالاعتراض والمقاومة المتصاعدة.

فلسطين اولا. وهي في الاصل والأساس والقلب. أحد استهدافات احتلال العراق دعم اسرائيل في موقعها الاقليمي، رغم اهتزازها في الداخل تحت وطأة انتفاضة لا تتعب منذ اكثر من عامين ونصف العام. اسرائيل دوما في صميم الخطط والمشاريع الاميركية للمنطقة. النسخة الأخيرة من هذه المشاريع هي خارطة الطريق، بين الفلسطينيين والاسرائيليين. عشرات التعديلات طرأت على هذه الخارطة احدثها شارون وأركان حكومته. الا ان الأهم ان احتمال نفاذها ما زال محفوفا بالمخاطر. اسرائيل تطمح ان تستثمر الخلل في توازن القوى على الصعيد الاقليمي لاعادة الامساك بالوضع داخل الارض المحتلة. نحو كل ما ترتب على مؤتمر مدريد واتفاقيات اوسلو والانتفاضة من ايجابيات. حسم مسائل القدس واللاجئين وتجريد الفلسطينيين من سلاحهم الذي به يواجهون قوات الاحتلال، وتدمير ما راكموه من انجازات في السياسة والاجتماع، ودفعوا ثمنه من دمائهم.

باول جاء الى المنطقة لمرتين. الاولى منهما الى سوريا ولبنان، والثانية زار خلالها اسرائيل والاردن ومصر والتقى بأبي مازن، باعتبار «ختيار» الساحة الفلسطينية «المحتجز» في رام الله غير مرغوب فيه.. بوش ايضا حط رحاله في شرم الشيخ وجمع بعض الاطراف العرب مع اسرائيل.. صدر في الصحف ووسائل الاعلام كلام كثير منذ زيارة باول الاولى وما تلاها حول مشاريع حلول. تارة تحصر ذلك بالوضع الفلسطيني، وطورا تمد خطوطه نحو كل من لبنان وسوريا. كانت هناك رسائل اميركية مباشرة وغير مباشرة. وخلال اللقاءات قيل كلام كثير حول كل من العراق وضرورة «عدم التدخل» في شؤونه من جانبي سوريا او ايران، حول مكاتب كل من «حماس» و«الجهاد» في دمشق، حول الجيش اللبناني وإرساله حتى الحدود الدولية مع اسرائيل، حول سلاح حزب الله و...

ما يترسب بعد كل ما قيل وبحث، ان التركيز الاميركي محدد المعالم الآن في فلسطين، مع تلميحات الى ضرورة الانضباط على الصعيد اللبناني خصوصا، بما يشبه عملية التبريد للجبهة الجنوبية. حزب الله ما زال يطلق مضاداته على الطائرات. لكن الملفات الكبرى لم تُفتح بعد. لم يشرع بعد، لا ملف لبنان بتفاصيله، وان كانت قد راجت العديد من التكهنات، منها ما يتعلق بسوريا وجيشها في لبنان انسحابا او اعادة تموضع، ومنها ما يتعلق بسلاح حزب الله، وهل طالب الاميركيون بسحبه ام لا.. كل هذا هو بعض البحث المؤجل حتى اللحظة، ما دامت قوات الاحتلال الاميركية وادارتها السياسية غارقة في تربة العراق، دون تسجيل تقدم كالذي كانت تطمح اليه لترسيخ سيطرتها.. في فلسطين ايضا الوضع لا يختلف ازاء خارطة الطريق.

والشيعة هنا، كما هم في العراق في قلب المعادلة. في الموضوع الفلسطيني بالطبع، رغم التعديلات التي طرأت على خطاب حزب الله بين إلقاء الدروس والمواعظ واعتبار نفسه شريكا في الانتفاضة الى التواضع الدفاعي.. الموقفان السوري والايراني لا يختلفان. من رفض اي تسوية، الى القبول بما يقبله الفلسطينيون... ما كان صحيحا قبل احتلال العراق، مختلفا عما بعده. والشيعة هم في عين الاعصار تماما. كل ما يذكر عن الدور السياسي السوري او الأمني في لبنان، ناهيك بإرسال الجيش الى الجنوب، له مضاعفاته الداخلية. منذ عقدين بدأت تتكون معادلات في الكيان اللبناني عظمت من الدور الشيعي في لبنان. تم ذلك برعاية سورية. تحولت مؤسستها الطائفة السياسية والعسكرية الى الرقم الأصعب في الكيان. أمسكت حركة «أمل» بزمام السياسة، انطلاقا من دورها في مجلس النواب، وعبر رئيسها، بالسلطة التشريعية، فيما شهر حزب الله سيفه جنوبا مقاتلا الاحتلال ومستمرا في أدائه، وان كان بوتائر مضبوطة بعد الانسحاب الاسرائيلي في العام ٢٠٠٠. وهي وتائر باتت اشد انضباطا منذ اكثر من ثلاثة اشهر.

اسئلة كثيرة ما زالت معلقة...

سبقت وتبعت التهديدات الاميركية لسوريا خارطة الطريق اعلانا وحركة سياسية. جانب من هذه التهديدات كان له علاقته بالحرب على العراق قتالا وسياسة. وجانب آخر اتجه بوضوح نحو موقع الصراع الفعلي في المنطقة، اي فلسطين.

خارطة الطريق

يصف الشيخ نعيم قاسم خارطة الطريق بأنها واحدة من افرازات الاحتلال. ورغم اعدادها المسبق، الا ان تنفيذها كان مؤجلا لاعتقاد الاميركيين ان المناخات التي ستنشأ بعد سقوط صدام حسين ستكون مساعدة. فالجو العربي سيكون في حال من الاحباط والاستسلام مما يجعله مستعدا لتقبل هذا النموذج. النموذج المقصود هو الذي يتجه نحو إنهاء الانتفاضة وتحقيق المطالب الاسرائيلية. من هنا كانت حركة بوش باتجاهها اعتمادا على المناخات الجديدة. أما الخارطة نفسها فهي مشروع كارثة على الشعب الفلسطيني من خلال محورين اساسيين هما:

الاول - انهاء الانتفاضة باليد الفلسطينية وبمسؤولية السلطة وتحميل الاخيرة وزر اي عمل امني ضد اسرائيل. بمعنى آخر تحميل السلطة مسؤولية تحقيق الأمن الاسرائيلي بنسبة مئة بالمئة.

الثاني - إطلاق يد اسرائيل لتضع الحلول التي تراها مناسبة، والجداول الزمنية الملائمة والآليات المنسجمة مع خطتها بدعم اميركي كامل، خصوصا بعد ان تم افراغ الخارطة من كل ما ورد فيها من التزام اسرائيلي، عندما اعلن بوش الموافقة على الملاحظات الاربع عشرة التي تسقط عمليا الالتزامات الاسرائيلية.

ومن المعروف ان هذه الملاحظات الاسرائيلية تتركز على الاستمرار في عمليات الاستيطان وعدم اعلان الدولة الفلسطينية قبل استكمال الأمن الاسرائيلي، وعدم وضوح حدود هذه الدولة، ورفض حق العودة للاجئين. اي ان الخارطة اصبحت خارطة انهاء الانتفاضة واطلاق يد اسرائيل لتفعل ما تشاء، يتوصل قاسم الى ذلك.

ينطلق الناطق بلسان المكتب السياسي لحركة «أمل» من مؤتمر مدريد واتفاقات اوسلو وما تلاها من مفاوضات اسرائيلية وفلسطينية، ويسأل من كان يعرقل كل ذلك؟. تجزم اجابته ان الطرف الاسرائيلي هو الذي فعل وانقلب على التعهدات ورفض السلام. فالكيان الاسرائيلي قائم على فكرة التوسع والاحتلال، وهذا الكيان قد اتخذ خياره النهائي بعد العام ١٩٩٦، عندما رفض كل الخيارات التي تصب في اطار السلام، وضاعف من ضغطه على الوضع العربي، بما يؤدي ليس فقط الى اسقاط الانتفاضة بل المنطقة بأسرها.

حاليا - يتابع الناطق - فان الشعب الاسرائيلي غير مستعد للسلام، ولا تروقه هذه الفكرة. ما يساعده على هذا الاتجاه، بالاضافة الى عقيدته الفكرية - الدينية الضعف والتشتت العربي والاستقواء بأميركا وبكل امكاناتها المادية والعسكرية والاقتصادية، لذلك - يستنتج - نحن نشك ان يكتب النجاح للخارطة، اذ ان اسرائيل قد اجهضتها قبل ان تولد، وهي كل يوم تضع الشروط والتحفظات حتى تصل الى الساعة التي تدفنها فيها. ان خارطة الطريق هي عرض اميركي سخي لاسرائيل سيرفضها الاسرائيليون، لأن اسرائيل تدفع باتجاه وضع الادارة الاميركية امام خيار واحد هو الادارة المدنية المدارة من جانبها، مع تحضير لعملية ترانسفير - تهجير - الفلسطينيين خارج الضفة الغربية وقطاع غزة. ومن الآن وحتى تلك اللحظة فان اسرائيل ستمضي في تفكيك آخر مظاهر السلطة الفلسطينية وستنتظر الفرصة السياسية الدولية للاجهاز عليها بشكل كامل.

يقترح الناطق خطة سلام شاملة للمنطقة تكون خطة حقيقية مبنية على وقائع وحاجات وعادات وتقاليد الشرق الاوسط والقرارات الدولية ذات الصلة بالمشكلة الفلسطينية.

الانتفاضة والمعادلات

الموضوع الفلسطيني ليس تفصيلا في تاريخ وواقع المنطقة. يمكن قراءة تطورات الاوضاع الاقليمية انطلاقا مما يجري في فلسطين، حيث يحاول الفلسطيني بدمه ان يمنع سحقه، تحت وطأة معادلات الوضع العام. بالتأكيد الحلقة السورية - اللبنانية أشد التصاقا به من سواهما. رغم ذلك ما زالت مصر والاردن و... معنية به الى هذا الحد او ذاك، ناهيك عن اميركا واوروبا و.. ويبقى لبنان الأكثر تأثرا. يكفي الاشارة الى حروب امتدت لأكثر من ثلاثة عقود بفعل هذا الصراع ومنعطفاته.

يعتبر الشيخ نعيم قاسم ان الانتفاضة لم تندلع بقرار سياسي عربي. لو انها كانت على هذا النحو لقلنا بأن وضع الانهزام الموجود حاليا سيؤثر عليها وطريقة ادائها. ولو اعتمدت الانتفاضة على زخم النظام العربي العام وتبنيه لها، لقلنا ان عدم التبني سيجعلها وحيدة ومعزولة، وهذا ما يضعفها. لكن لنكن واقعيين ونعترف ان الانتفاضة قد انطلقت بدوافع ذاتية - داخلية محض فلسطينية لها علاقة بتطورات التسوية ونتائج اوسلو الفاشلة واجماع الفلسطينيين من انصار التسوية واعدائها بعدم جدوى الحلول المطروحة. الدعم العربي لم يكن اكثر من بعض التصريحات التي واكبت الاحداث بشكل خجول، بل انها في الكثير من الاحيان حاولت اقناع الفلسطينيين بعدم جدوى انتفاضتهم. اما الدعم المالي فهو محدود وطبيعته انسانية اكثر مما هو مرتبط بحركة الانتفاضة. وعليه يمكن ان نقول ان التطورات الحالية، تترك انعكاسات نفسية على الفلسطينيين اكثر مما تترك انعكاسات عملية. وبما ان الانتفاضة حركة ذاتية لها علاقة بالمشروع الفلسطيني فتنظيم استمرارها او عدمه مرهون بسببها. اذ على الرغم من مرور اكثر من خمسين عاما على احتلال اراضي العام ١٩٤٨ لم يستطع الاسرائيليون، اقناع الفلسطينيين في اراضي العام ١٩٤٨ انهم قدموا لهم حقوقهم، مما جعلهم جزءا لا يتجزأ من الانتفاضة الاخيرة. كذلك لم يستطع الاسرائيليون ان يتابعوا مسارهم مع السلطة الفلسطينية المقتنعة باتفاق اوسلو، والذي نعتبره اقل بكثير من الحق الفلسطيني. ومع ذلك فقد حشرت اسرائيل السلطة وزجتها في خانة المعترضين فاجتمعت القوى الفلسطينية على الانتفاضة موحدة. اذ ان امام الفلسطينيين واحدا من خيارين:

أما ان يقبلوا ما تريده اسرائيل وهو ما لا يقنع المتخاذلين منهم، وإما ان يستمروا بالرفض عبر الانتفاضة التي تزداد وتخف بحسب الظروف والتطورات في داخلهم. وهذه تحمل أملا بنصر ما وبالحد الأدنى لو استطاع الفلسطينيون ان يمنعوا تشريع الاحتلال وجعل بقائه على أرضهم غير مستقر، وعدم اعطائه عنوان الدولة الاسرائيلية ذات الحدود الواضحة لكان ذلك نصرا

كبيرا بانتظار التطورات. ليس مطلوبا من الانتفاضة ان تحقق انجازا سريعا، انما المطلوب منها اعاقة الانجاز الاسرائيلي، وهذا بمقدور الفلسطينيين مهما كانت التحديات. لكنه يتطلب الحكمة والانتباه لعدم السقوط في صراع فلسطيني ـ فلسطيني يؤدي الى انهاك داخلي. وهناك بعض في السلطة يحبذون ذلك. لا شك انه لو تم تجاوز هذا الامر وقدرت جميع الاطراف عدم الانجرار اليه فان المأزق الاسرائيلي سيبقى قائما ما دام لم يأخذ اعترافا رسميا بدولة اسرائيل ضمن حدود ومواصفات. وكذلك بعدم الاعتراف بدولة فلسطينية ممسوخة او من دون هوية.

من هنا يختم قاسم رؤيته للمعادلات فان الرهان على أمرين أولهما هو حجم المطالب الاسرائيلية التي لا حدود لها والتي تشكل استفزازا كافيا للمعتقدين بامكانية التفاهم مع اسرائيل، ولطالما كان رفض اصحاب التسوية للخطوات الاسرائيلية مرتبطا بهذا الاستفزاز. اما الثاني منهما فهو المراهنة على عامل الزمن للافادة من المتغيرات التي يمكن ان تطرأ في المنطقة او حتى على المستوى الدولي.

واضح مما يقوله قاسم انه يحمل الفلسطينيين وحدهم اعباء مواجهة الآلة السياسية الاميركية والجرافة العسكرية الاسرائيلية، ودون ان يحدد ولو سقف متواضع على المستوى السياسي العربي والدولي في الاسناد المطلوب لهم في معركتهم. لذلك تبدو المراهنة الاخيرة معقودة فقط على حجم المطالب الاسرائيلية وعلى الزمن من دون سواهما. الأهم في التحليل الذي قدمه انه يطيح بالعديد من الشعارات التي تم رفعها من جانب القوى الاسلامية تحديدا في نصرة الانتفاضة ودعمها. يتخفف قاسم من تراث عريض جعل من الجنوب يوما خطوة تحرير تفتح الطريق نحو القدس. دون ان يعني ذلك هجوما عسكريا بالضرورة لا قبل لأحد به ولا وجود لقواه راهنا.

لبنان والعراق وسوريا

العراق، سوريا، لبنان. في العراق باتت القوات الاميركية على الارض، وان بمصاعب قد تتطور نحو مأزق. سوريا عمليا باتت بين الاحتلالين الاميركي والصهيوني. لبنان مجرد موقع في المعادلات. مفتوح على الموقع السوري، عبر «وحدة المسارين» او الصراع العربي ـ الاسرائيلي.. او مهما كانت التسمية. وواقعا بات من الاستحالة الفصل بينهما على هذا المستوى.

ليست خارطة الطريق بالتأكيد شأنا فلسطينيا ـ اسرائيليا. فالفلسطينيون عمليا هم المتراس الحقيقي للدفاع عن وجودهم، وامام احتمال اندفاع الجيش الاسرائيلي نحو اسقاط مواقع عربية بالسلاح او السياسة. من هنا لا بد من رؤية الخارطة بمداها الأوسع. ثم هناك الاحتلال الاميركي للعراق كمعطى مستجد. الموقع السوري المحوري يفتح على جنوبه الشرقي في العراق وجنوبه الغربي في فلسطين. لبنان ايضا ومنذ حوالي الاربعة عقود في صميم المواجهة.

يرى الشيخ صبحي الطفيلي ان لبنان بلد محاذ للكيان الصهيوني، واميركا تنطلق في مواقفها ليس من مصالحها فقط، بل من دعم وأمن هذا الكيان. طبيعي ان الاميركي لا يريد من لبنان ان يكون عنصر اقلاق للكيان الاسرائيلي. ولبنان لفترة كان مأوى لكثير من المنظمات نظرا لخلوه من النظام. ولا زال فيه تشكيلات مسلحة. والاميركي بالتأكيد يريد ان يطمئن الى ان هذه التشكيلات لا تشكل ضررا على مصالحه هو او على الكيان الصهيوني. واذا كان هناك من سلاح لا يصب في خدمته ولا يرى بوجوده فائدة يحاول ان ينزعه. هنا يجب ان نقرأ بدقة. بعد الاحتلال الاميركي للعراق ثمة من يقول ان الوجود السوري مطروح على الطاولة. هذا الوجود لم تكن اميركا بعيدة عنه منذ العام ١٩٧٦. لكنهم يتجنبون اي حديث عن هذا الامر بشكل جلي. ليس معلوما بالضبط هل الاميركي يتحدث عن الموضوع بشكل جدي ام لا. يمكن بعد ايام او اسابيع للاميركي ان يتحدث بلغة اخرى، وربما يعتمد السكوت عنه لفترة طويلة. من اجل الحديث عن المستقبل لا بد من الاطلاع على الاولويات الاميركية.

الآن الاميركيون هم في العراق. وسيأخذ هذا الأمر من جهدهم الكثير، مما يسمح لهم بالتفكير على نحو معمق في لبنان. عندما يتحدثون مهددين سوريا لا أعتقد أنهم يقصدون ذلك. كل ما في الأمر انهم يبعدون سوريا وإيران عن ازعاجهم للتفرغ للفريسة العراقية الكبرى. أتمنى من جانبي أن يزعجوه، واذا لم يفعلوا فإني من الذين سيشعرون بخيبة ومهانة مرة. قرار الازعاج هذا يتعلق به مستقبلنا ومستقبل المنطقة. الاميركي لا يستطيع ان يفعل بسوريا ما فعله بالعراق.. أي خطوة أميركية ضد سوريا او إيران او أي بلد آخر سيكون لها آثار سلبية وضرر على الأميركيين أكبر بكثير مما عايشوه حيال العراق. لذلك أرى أن على الحكام أن يفكروا ويدركوا أنهم ليسوا على الضعف الذي يتصورونه. وهنا لا أتحدث عن الطائرات والاساطيل.. أتوقع ظهور موجة عالمية معادية للأميركيين كردات فعل على سياساتهم. الاميركي لا يستطيع أن يعادي كل شعوب العالم او أن يرجع ثانية الى جزيرته للانعزال فيها. الناخب الاميركي يدلي بصوته لسياسة داخلية وخارجية. قوام الأخيرة العداء للمسلمين والفلسطينيين والأفغان وشعوب العالم الثالث. الناخب الاميركي يتحمل مسؤولياته، بعكس ما هو عليه الوضع في لبنان او العراق او.. في السبعينات فرض الشعب الاميركي على إدارته الانسحاب من فيتنام. إذا كان هذا الناخب لا يريد مزيدا من العداء، عليه الضغط عليها لمنعها من ممارسة الاحتلال ودعم أنظمة الطغيان.

المعادلات والاستهداف

كل هذا الكلام يعيدنا الى لبنان وسط معادلات المنطقة، معطوفة على خصوصية جعلت تجربته مميزة عن سواها، بدليل أنه على أرضه تدور معركة مفتوحة مع الكيان الاسرائيلي لا يعود تاريخها الى لحظة نشوء المقاومة الاسلامية، بل الى العام ١٩٦٨، أي قبل تكونها بحوالى العقد ونصف، مع كل ما مر بها من قوى ومحطات وحروب و... وصولا الى دحر الاحتلال، مع بقاء موقع «إشكالي» تمثله مزارع شبعا اللبنانية.

الآن يتم إقليميا تحجيم الدول لتتناسب مع جغرافيتها دون طموح أكبر، كما حدث سابقا. تركيا تم إبعادها الى هذا الحد او

ذاك عن الملف العراقي. إيران تشهد ما يصب في إرباكها رغم المرونة الكبرى التي تبديها مع أحكام المرحلة. سوريا هناك أسئلة بشأنها لبنانيا. مصر تقوم بالوظائف المقررة لها لا أكثر ولا أقل.. حضر اللاعب «الأعظم» في العالم، فتواضع الآخرون أمام قدراته. وحدها إسرائيل عندما يجاز لها أميركيا تستطيع لعب دور، وهي التي تملك مخزونا نوويا لا يقل عن مائتي قنبلة، وجيش مدجج بالسلاح. أما إذا لم تصدر الاجازة فالانضباط سيد الموقف.

الشيعة في لبنان ربطوا مصيرهم خلال عقود الحرب الاهلية بالوضع الاقليمي لكل من سوريا وإيران. الاحكام الآن مختلفة عما سبق. هذا الارتباط هو ما مكنهم من تعزيز موقعهم اللبناني. أحيانا برز لدى بعض القوى وهم الحجم الذي يتجاوز القوة الموضعية، الى القوة المحركة اقليميا. الآن ينكشف ان المرحلة تختلف جذريا عما سبق. وما كان مسموحا به سورياً وإيرانيا لم يعد كذلك. لذلك فان قيادة حزب الله مثلا تتمهل في إعلاء المواقف وإعلان المعارضات ضمن حدود لا تفيض عن السقفين الإيراني والسوري على حد سواء. وهذا مضمون الرسالة التي حملها خاتمي الى هذه القيادة خلال لقائها، داعيا الى التصرف بحكمة في مثل هذا المنعطف الذي يهدد دولا بمن وما فيها وليس قوى. بات العصر عصرا أميركيا كامل المواصفات، ولا يمكن مواجهته على النحو السابق، من خلال استفراد قوات الاحتلال الاسرائيلية وإلحاق الهزيمة بها. هذه المرحلة انتهت.

يعترف رئيس كتلة الوفاء للمقاومة النائب محمد رعد أن هناك استهدافا اسرائيليا مباشرا لحزب الله. وهذا الأمر مؤكد ولا نقاش فيه، الاسرائيلي يريد الانتقام من حزب الله ومن لبنان عموما بسبب الهزيمة التي ألحقت بجيشه وتكرست في أيار من العام ٢٠٠٠ بالاندحار الذليل ومن دون مفاوضات او اتفاقات مع لبنان. الادارة الاميركية الراعية للإرهاب الاسرائيلي والشريكة الاساسية للكيان الصهيوني في العدوان على المنطقة «تتفهم» العدوانية الصهيونية تجاه حزب الله. ومن الطبيعي أن تتعاطى بأساليبها لتحقيق أهداف العدوانية الاسرائيلية وإن اختلفت مع الاسرائيليين لجهة النبرة والوتيرة الزمنية والتغطية الدبلوماسية.

ما يمكن ان تفعله الادارة الاميركية خصوصا بعد غزو العراق، حاولت أن تمرره عبر كولن باول مدعوما بقصف من التصريحات والمواقف. صدرت هذه عن مراتب متعددة وشخصيات في الكونغرس. تمحورت كلها حول تهدئة الوضع بين لبنان والكيان الصهيوني، وهو ما نفهمه نحن تجنب مواجهة راهنة بانتظار ابتلاع الوضع الفلسطيني في الداخل وترتيب الصيغة السياسية للنظام الذي يراد له أن يحكم العراق، المفردات التي تعبر عن الحاجة للتهدئة تتراوح بين مطلب نشر الجيش اللبناني جنوبا، خروج الجيش السوري من لبنان، وضبط سلاح حزب الله في الخطوط الأمامية. عندما استعمل توصيف ضبط سلاح حزب الله، فذلك لأنه لم يطرح تجريده في المحادثات الرسمية بين باول والمسؤولين اللبنانيين. الموضوع برمته يندرج تحت عنوان التهدئة وعدم التصعيد. كمقاومة نحن راضون ومتفهمون لرد رئيس الجمهورية على ما أثاره كولن باول، ونؤكد أن الاحتلال الاسرائيلي المستمر لبعض الاجزاء في لبنان هو مدعاة أي تصعيد، وأي عدوان إسرائيلي على لبنان هو مدعاة للتصعيد أيضا. ممارسة المقاومة لحقها المشروع في مواجهة الاحتلال الاسرائيلي ضمن الاراضي اللبنانية لا ينبغي أن يفهم في إطار التصعيد، وأن كان أداء المقاومة في هذا المجال يخضع لتقدير مصلحة لبنان العليا ومصلحة المقاومة ايضا.

الضبط والانضباط

يعتبر السيد هاني فحص أن علاقات حزب الله العربية والاسلامية أساسية وحاسمة في ضبط مساره، مصدر الضبط أيضا ان الحزب بحاجة الى الوطنية الايرانية حتى تشاركه معرفيا وسياسيا من أجل ان يرقى بوطنيته اللبنانية الى مستوى القبول النهائي بالكيان والعمل على إنجازه وتجديده طبقا للمستجدات التي يجب أن تكون قد أوصلتنا الى القناعة ان عدم إنجازنا بوعدنا للدولة القومية، ينبغي ألا يعفينا من إنجاز الدولة الوطنية. إذ أن إنجاز الأخيرة هو الاسهام الحقيقي في السياق القومي والاسلامي وهو مشروع المعاصرة الحقيقية. اضافة الى ذلك فإن المشروع الاسلامي الأممي وتعقيداته وتشكيلاته أكبر بكثير من المشروع القومي العربي. انطلق من أن وحدة الاجتماع العربي والاسلامي متحققة، ولكن ليس بالضرورة ان تتطابق مع مشروع الدولة الأمة. فالدولة القطرية لا تقع على الضد من المصلحة الاسلامية، يجزم فحص أن التطورات ستحدث تطويرا في عقل حزب الله، لجهة المطابقة بين العقلين المضمر والمعلن.

يسترعي انتباه فحص وإعجابه ما أعلنه خاتمي الذي رأى لبنان من الداخل وأراده متحررا من ذاكرة الحرب والانقسام، ناظرا الى دوره ومعناه الذي يتجاوز حجمه وإعداده واقتصاده. بما يحول التعددية فيه الى أطروحة حضارية، بدل الاستمرار في القبول به كأمر واقع وعلى مضض، هذا بالضبط ما يرفع لبنان الى مستوى الرسالة، الذي لا يجوز استمرار الكلام الانشائي عنها، بدلا من إنجازها. يجب ان يكون في حال من الانجاز، وهو بهذا المعنى أيقونة الشرق، الذي عليه ألا يتأملها فحسب بل أن يتمثلها أيضا. إذن لا بد من إنجاز الأمثولة، والأمثولة تسع الجميع والا أصبحت إملاء وتكرارا.

هذا قليل من كثير وهذا يفتح الأبواب على مزيد من التدقيق والرصد.

فضل الله: أميركا في متاهة وعلى العراقيين التوافق على الحد الأدنى

يؤكد فضل الله ان اميركا التي انتصرت في حرب سهلة على العراق، لم تستطع حتى الآن الحصول على ثماره سياسياً. من هنا يأتي المأزق الذي تتخبط به، وهو الذي دفعها الى الضغط على مجلس الأمن ليصدر قراراً لم يتناسب مع طروحاتها، لا سيما أنها لا تعتبر نفسها دولة محتلة للعراق، اذ انه في مثل هذا الوضع لا تملك اية شرعية للتصرف في ثروات او استثمارات او اعمار العراق. فالانتصار الذي احرزته لا يعطيها الشرعية اذا لم تكن دولة احتلال. لذا شهدنا اولا مسألة رفع العقوبات عن العراق، الامر الذي يمنحها حرية التصرف بكل ما يتعلق باقتصاد العراق وغيره. هذا القرار يتوقف عليه ان تأخذ صفة الدولة الشرعية بالمعنى القانوني.

يضيف: ومسألة الاحتلال قد لا ترضي اميركا في العمق، وهي تقارب مسألة الاحتلال للضفة الغربية والقطاع التي اعترف بها اريل شارون ثم تبرأ منها بعد ذلك. لهذا بعد ان أصدر مجلس الأمن قراره باعتبار اميركا دولة محتلة باتت تتحمل المسؤولية امام العالم كله في اعادة العراق الى موقعه كدولة تملك الشرعية الوطنية من خلال مؤسساتها وأجهزتها. لكن المشكلة بالنسبة لأميركا، هي انها في ما يبدو لا تتقن عملية لعب دور الدولة المحتلة. تاريخ اميركا وحركتها السياسية هو تاريخ الدولة المسيطرة القاهرة، التي تقمع وتصادر وتتدخل وتستفيد من كل الظروف التي تحمي مصالحها. اما ان تكون دولة محتلة تشرف بشكل مباشر على بلد بكل خصوصياته وكلياته، فهذا امر لا سابق عهد لها به. وهنا تختلف عن بريطانيا التي عرفت في تاريخها الطويل استعمارا للكثير من الدول. لهذا لاحظنا هذا النوع من الارتباك في إدارة المسألة العراقية من النواحي السياسية والاقتصادية والامنية، الامر الذي دفعها الى تغيير مسؤوليها الاداريين بين وقت وآخر، كما جعلها تستنجد بالعالم من اجل ان يساعدها في ضبط الامن، وهي الآن تقوم بأكثر من تجربة لجمع الاطياف العراقية من اجل تأسيس حكومة او ادارة مؤقتة وما الى ذلك.

اذن - يتابع فضل الله - اتصور ان اميركا دخلت في متاهات سياسية وامنية في العراق. ويبدو ان هذا النوع من الارباك هو الذي جعل العراقيين المتحمسين لأميركا يفكرون بأن ما عاشوه في الاحلام كذبه الواقع. وعليه فقد ارتفعت الهتافات التي تطالب بانسحاب قوات التحالف من العراق. كما لاحظنا وجود اكثر من نشاط أمني، ربما ينسب إعلاميا الى جهات من الخارج او الى فلول النظام وغيره. ولكنه يعبر عن ظاهرة قد تكون متعددة الخلفيات، ولكنها تدل على ان اميركا التي انتصرت عسكريا لم تستطع استثماره سياسيا.

● يثير ما تصفه بالارتباك الاميركي مسألة دينامية المجتمع العراقي الذي عانى التدمير طوال عقود متلاحقة.. كيف يعاد اطلاقه لمضاعفة المأزق الاميركي؟

■ انني لا أزال اتحفظ على سرعة النمو السياسي في العراق على المستوى الذي يستطيع معه بسرعة ان يؤلف حكومة مسيطرة. القضية هي ان الاطياف العراقية، سواء كانت تسمى بمعارضة الخارج او الداخل او القوى العشائرية، لا تملك الكثير من مقومات السيطرة الميدانية بدليل تناقضاتها وتعذر توظيفها لإيجاد وضع مستقر. أنا لا أقول ان العراق لا يملك كفاءات سياسية واقتصادية وعلمية. بل أؤكد ان العراق هو بلد الكفاءات، وهو البلد الذي لا يملك حضارة تاريخية، بل يعيشها ويتملاها. لكن قضية الدينامية السياسية تحتاج الى نوع من الخبرة الميدانية المتحركة. وقد غيب العراق عن ذلك كله في الداخل.

اما من كان في الخارج فكان اقرب الى المسألة التنظيرية منه الى المسألة الواقعية. ان هذه الامور تجعل هناك صعوبة فعلية وليس استحالة. لذلك فإني اتصور ان الخطة الوحيدة للعراقيين هي ان يعملوا في الداخل من خلال هيئاتهم لإيجاد قاعدة تجمع الجميع على اساس اقل القواسم المشتركة وعليهم البدء ولتبدأ بمسألة الحكومة الوطنية العراقية، وبذلك يخلقون حاجزا امام اميركا في تبرير تدخلها المباشر في العراق لحاجتها الى الاستقرار. لكن المسألة هي هل الاطياف العراقية التي رأينا بعضها كيف يبحث عن الحصص، والبعض الآخر كيف يطلق العناوين الطائفية والمذهبية وغير ذلك... هذه الاطياف هل تملك الارادة لإيجاد وضع عراقي وطني منفتح على المرحلة والمتغيرات المحلية والاقليمية والدولية من اجل صنع حالة وطنية عراقية ام لا. هذا ما ننتظره.

الفجوة والفراغ

● اذن العراق بين مأزقين: مأزق الاحتلال الاميركي من جهة ومأزق المعارضة العراقية من جهة ثانية؟

■ هذه الفجوة، او هذه المساحة الضائعة التي تعيشها الساحة العراقية بين نظام طاغ جمد العراق كله، وبين نظام محتل اعطى

العراق احلاما لكنه لم يستطع حتى الآن ان يمنحه امنا واستقرارا اقتصاديا وخدمات، وان يضبط الساحة حتى بالنسبة لأمنه هو. اذن هناك منطقة فراغ بين مرحلتين، ولم يتقدم احد حتى الآن ليملأ هذا الفراغ، الذي يخيل للبعض ان هناك ما يملأه كحرية الهتافات والتظاهرات وبعض الاجتماعات والمؤتمرات.. الحرية الاعلامية لا تختزل حرية المواطن والوطن. الكل يتحدث عن التغيير، ولكن لم نجد اي خطوة متقدمة في اتجاهه، حتى على مستوى العلاقات السياسية بين السياسيين انفسهم. لم نجد هناك في العمق وحدة سياسية بين الاطياف العراقية وإن كانت هناك عناوين سياسية تطرح ولكن من دون عمق.

● سماحة المرجع: تقول اننا لم نجد.. كإنسان عاش وعايش العراق ماذا كنت تتوقع خلاف ما تقوله الآن؟

■ كنت منذ البداية اتوقع هذا الفراغ لسبب بسيط. اولا هو ان قوة الاحتلال ليست مستعدة لأن تعطي اي شعب، ولا سيما العراق باعتباره البلد القوي الذي يمكن ان يوازن اسرائيل في القوة على المستويات الاقتصادية، باعتباره من اغنى البلدان العربية في المنطقة، لا في البترول فحسب، ولكن في اكثر من مورد، ثم ان طاقته البشرية تتميز عن سواها من البلدان العربية لجهة الكفاءات الهائلة المنتشرة في كافة القطاعات وعلى كل المستويات. لذلك فإني لا أثق بأن اميركا يمكن ان تعطي اي بلد من بلدان العالم الثالث ديموقراطية على الطريقة التي يمكن ان يتمتع بها اي مواطن غربي لأن هذا ضد مصالحها. هذا امر كان واضحا عندي وما زال.

الجانب الثاني هو ان المسألة السياسية العراقية كانت تعاني من غياب. واذا كان البعض يتحدث عن اجتماعات المعارضة ومؤتمراتها وعلاقتها بأميركا او بريطانيا وبعض الدول العربية، فإنني اعتقد انها كانت مجرد عملية ملء لفراغ، لا يملك احد فيه فرصة الكثير من وضوح الصورة للعراق في تلك المرحلة. الكل كانوا يفكرون كيف يسقط النظام، حتى ان الوجدان العراقي العام اصبح يعتبر اميركا محررة، لأن الشعب لا يستطيع اسقاط النظام، وان اميركا هي الوحيدة التي تستطيع ذلك. هذا الاستغراق في فكرة اسقاط النظام، وهو حق، وهذا الاستغراق في الخديعة الاميركية التي حاولت ان تعطي وهما انها تؤمن بحقوق الانسان وانها تتباكى على الشعب العراقي وانها تريد ان تحرره. لذلك استغرق الجميع في هذا وتعاونوا مع اميركا على هذا الاساس من دون اي دراسة معمقة لما بعد سقوط النظام. اذن لم تكن مسألة ما بعد سقوط النظام مدروسة على الأقل بشكل تفصيلي بحيث يمكن لكل هذه المعارضات ان تدخل الى العراق ومعها «الوصفة» جاهزة لمداواة هذا المرض. هذا بالاضافة الى ما أشرنا إليه من ان الفوضى ما تزال تحكم العراق، مما يجعل الشعب يفكر بأمنه وخبزه وما شابههما من امور بعيدة عن المسألة السياسية، وإن كانت ترتبط بالقضية والحاجة الى حكومة ودولة تحفظ الأمن وتحقق الخدمات. أما الأفق السياسي فإنني اتصور انه لم يكن مدروسا حتى ضمن خطوط عامة تفسح المجال امام خطوط تفصيلية. وهذا لم أجده حتى الآن في التجربة العراقية الجديدة.

الأمن والحصار

● تشير الى انعدام الافق السياسي والفوضى، لكن ذلك لا ينحصر بالعراق وحده، رغم خصوصية اوضاعه.. ألا ترى ان غياب الأفق السياسي يحكم المنطقة بأسرها؟

■ هذه المسألة التي تثيرها تتصل بموقع العراق من الخطة السياسية الاميركية في المنطقة. عندما كنا نتحدث عن العراق في الداخل يتبين ان اميركا لا تملك ولا أي من حلفائها او عملائها، الا ان تعترف بأن هذا المشروع مطروح قبل احداث الحادي عشر من ايلول، وحتى منذ الثمانينيات. اميركا تعمل الآن بمختلف الوسائل وألوان اللعبة السياسية والاقتصادية ان تبقى الدولة المهيمنة على العالم. وقد صرح اكثر من مسؤول اميركي بدورها القائد لعالم اليوم. لذلك فإن ما يجري ينبع من السؤال كيف يمكن ترتيب الشرق الاوسط بما يحقق لها هذه الاهداف.

لا شك في ان اميركا لها عدة اهداف، الاول منها هو حماية امن اسرائيل، لأن هذا الامن يقع في المقدمة الاولى من الاستراتيجية الاميركية في الشرق الاوسط، باعتبار انه يمثل سياسة المطلق، اذا كان هناك من سياسة للمطلق.

الهدف الثاني هو الحصول على مواقع متقدمة للنفوذ الاميركي على جميع المستويات الاقتصادية والأمنية والسياسية. لذلك كانت مسألة احتلال العراق هي من المسائل التي تعتبر المدخل، لا من حيث ان اميركا اقتربت من حدود إيران، اذا كنا نتحدث عن حدود. اميركا تحاصر إيران وتحيطها بدول متعاملة معها. اميركا موجودة في الخليج كله، كما انها موجودة سياسيا وعسكريا في باكستان وأفغانستان وقد مدت اذرعها الى منطقة الجمهوريات الاسلامية التي انفصلت عن الاتحاد السوفياتي. وفي تركيا هناك قواعد اميركية. لذلك فإن الحديث عن ان احتلال اميركا للعراق قد جعل إيران في خطر هو غير صحيح. نعم، ربما يقال ان الخطر قد اشتد. لأن اميركا اكملت التطويق جغرافيا لإيران في هذا المجال.

اميركا تحاول ان تفرض نفوذها على المنطقة، ولكن ليس من الضروري ان يكون ذلك من الناحية العسكرية. اميركا توظف الآن انتصارها الذي جعلها قوة بامتياز كما يقال، من اجل ان تلوح بالعصا لأكثر من دولة في المنطقة. ومن الطبيعي انها تعمل الآن على تغيير المنطقة الخليجية على اساس ان تمسك بها بشكل مباشر، بعد ان كانت تمسك بها بشكل غير مباشر. ان المسألة التي يبشر بها بوش عن نفسه وهي مسألة «النبوة» تقتضي منه ان يحقق رسالته في العالم ولا سيما في الشرق الاوسط، في حقوق الانسان والديموقراطية ومقاومة الارهاب وما الى ذلك. لهذا فإن اميركا تحاول الآن ان تمد ايديها وتمارس الضغط هنا وهناك. ولكن ليس هناك من خطر عسكري في المستقبل القريب على الأقل بالنسبة لسوريا ولبنان.

● الاستنتاج الذي توصلت إليه باستبعاد الخطر العسكري على سوريا ولبنان، هل مرده ان رد الفعل لا يهدد الخطة الاميركية؟

■ السياسة السورية تتميز بقدر كبير من الواقعية السياسية التي تحاول ان تحافظ على الخطوط العامة في عناوينها السياسية المبدئية، ولكنها تتحرك على الارض لتدرس المتغيرات ولتحرك خطوطها داخل هذه المتغيرات بعيدا عما يشطب خطوطها العامة الاساسية، وإن بكثير من اللباقة السياسية في هذا المجال. آما قضية لبنان فإن المسألة هي مسألة المقاومة. أتصور ان أميركا ليست في وارد أن تجمع سلاح المقاومة الاسلامية، ولكنها في وارد ان تبرد الحدود بين لبنان وفلسطين المحتلة. وهذا أمر حاصل من خلال ان المقاومة الاسلامية بلغت سن الرشد، وأصبحت لا تؤمن بالمغامرة، بل تؤمن بالواقعية في الطريق الى الهدف. لذلك فإنني لا أتصور ان هناك وضعا أمنيا اميركيا قريبا، وينسحب الامر على إيران. لعلنا لاحظنا في اجتماعات بوش وبوتين وحديثهما المعلن عن مسألة الاسلحة النووية في إيران او المشاريع النووية على الأصح، ان بوش يقول اننا نريد من إيران أن تضع المفاعلات النووية تحت

إشراف الوكالة الدولية للطاقة النووية. وهذا أمر طلبته إيران منذ البداية، وكانت لها تجربة مع بعض الجدل في التفاصيل. هذا مما يدل على أن أميركا وروسيا وصلتا الى نوع من التوافق الذي لا يسقط مصالح روسيا في بناء المفاعل النووي في بوشهر في إيران وفي التزامها مع أميركا بمنع السلاح النووي.

فلسطين هي الأم

● سماحة السيد، لم تشر الى فلسطين في عرضك لوضع المنطقة مع انها في قلب المحنة أكثر من أي وقت مضى؟

■ أما فلسطين فهي الأم. إنني أعتبر ان فلسطين هي أم المنطقة العربية، ولعل كل ما عرفته المنطقة، بل العالم، وما تعرضت له الدول العربية من ضغوط بهدف تدجينه وإضعافه وزيادته فشلا وعجزا وسقوطا، وإن كان يهدف الى احتواء المنطقة في الخطة الاميركية، الانه ينطلق من مسألة احتلال اسرائيل لفلسطين. انني أعتقد ان كل هذه الخلفية وكل التطورات التي مرت على العالم العربي والاسلامي بكل مفاعيلها السلبية من انقلابات عسكرية ومن فوضى في الأيديولوجيات ومن صراعات داخلية وحكم ديكتاتوري يتحرك بشكل مقنع تارة، وطورا بشكل سافر، حتى إنه صادر الشعوب العربية جميعا ومنعها من حرياتها ومن إرادتها في تقرير مصيرها.. ان هذا كله انطلق من مخطط اللعبة الدولية، ولا سيما الاميركية، كي تصنع اسرائيل دولتها في ظل غياب عربي، يملك الكثير من الصراخ ومن الانفعال ليتحول الى ظاهرة صوتية، وليس الى ظاهرة واقعية.

ولذلك كله رأينا كيف أن الوضع السياسي في العالم العربي، الذي امتد من خلال الخطوط الدولية، ولا سيما الاميركية، تحرك عندما انطلقت الانتفاضة وانطلقت المقاومة في لبنان. فقد اصبحوا عندها ينادون بالويل والثبور باعتبار أن هؤلاء يمثلون التطرف والفئات التي لا تريد السلم والاستقرار. ثم عندما حدثت الحادي عشر من أيلول دخل كل هؤلاء في الارهاب، وتعاونت الدول العربية مع الخطة الاميركية في هذا المجال. ولا تزال الضغوط تتحرك في المسألة الفلسطينية من أجل القضاء على الانتفاضة وفي لبنان من أجل القضاء على المقاومة.

ان المسألة في تصوري وأمام ما يسمى بخارطة الطريق، هي ان الرئيس بوش يتحرك في هذه القضية بطريقة ضبابية، لأنه حتى في خارطة الطريق لم يطرح الخطوط التفصيلية بوضوح، مما يجعل كل نقطة فيها قابلة لأكثر من مئة سؤال كما كان الرئيس الراحل حافظ الإسد يقول عندما كان يتحدث عن اتفاقية أوسلو. وهذا يفسح المجال لإدخال المسألة الفلسطينية من جديد في المتاهات الاسرائيلية، تبعا للطريقة التي تدير بها الحكومة الاسرائيلية مسألة المفاوضات لتجعل الأمور ضائعة تفتقد الواقعية.

اننا نؤكد هذا المنظور في أن الخارطة لا تخلو من أمرين:

الاول: إما أن تكون مجرد واجهة سياسية يراد منها التحريك، من أجل دخول أميركا الى بلدان العالم العربي سياسيا لتعلن انها تتحمل المسؤولية عن هذه المشكلة التي تحتاج الى مفاوضات ومفاوضات.

ثانيا: انها تريد ان تسقط الفلسطينيين بالضربة القاضية ليخضعوا لكل ما تريده اسرائيل، وهذا يمثل الاستراتيجية الاميركية التي تعتبر ان المسألة الحيوية عندها هي حماية اسرائيل من كل شيء، حتى من نفسها كما عبر عن ذلك كلينتون.

اننا لا نثق بأميركا ولا نريد أن ندخل في تخوين مسؤول فلسطيني من هنا او هناك. أتصور ان الضغوط التي تشبه الجبال التي تواجه القيادات الفلسطينية تجعل بعض المسؤولين الفلسطينيين في السلطة يفكرون بأن علينا أن نجرب او أن نكون واقعيين، وأن نتحرك على الارض. ولكن لا أتصور أن اسرائيل التي وجدت في أميركا، الدولة التي تملك العالم، وتملكها هي - اسرائيل - في منطقة الشرق الاوسط، الخادم الذي يخدم استراتيجيتها، ولذلك فإن اسرائيل إذا لم تحصل متغيرات فوق العادة في العالم تضغط عليها، وإذا لم يحدث في العالم العربي والاسلامي ما يضغط عليها، بحيث يشرب حليب السباع بدلاً من حليب الأرانب الذي أدمنه الحكام.. إذا لم يحصل هناك وضع عربي يحرك أوراق الضغط على أميركا قبل إسرائيل، فإنني أتصور أن المسألة ستمتد الى قرن آخر.

الضياع والتحديث

● سؤال أخير سماحة السيد: وسط هذا الاحتدام هناك ضياع فكري فالإسلام هو إسلامات.. والحركة القومية في نزعها، ما هو الخط الفكري - التحديثي لمواجهة التحديات؟

■ إنني كنت ولا أزال أدعو في المنطقة الاسلامية الى الحوار بين الاسلاميين من أجل أن نؤسس لأصالة إسلامية يملكها الاسلام في عمقه، وليس شيئا نصنعه. هذا الامر يتطلب الدراسة الواعية المنفتحة على دور الاسلام في حل مشاكل الانسان ورفع مستواه وإعطائه في كل مرحلة الحياة الجديدة. يقول تعالى «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم الى ما يحييكم». فالدعوة في الإسلام هي دعوة الى الحياة بكل ما تحمله الحياة من أبعاد وتنوعات. كما ان علينا ان ندرس مسألة العنف والرفق في الاسلام. لأن العنف في الاسلام ليس هو القاعدة، ولكنه الخط الذي أخذ به الانسان منذ البداية ولا يزال عندما يعيش حالة الدفاع او الوقاية. لذلك فإن العنف في الاسلام هو عنف دفاعي وقائي وليس عنصرا عدوانيا. ان علينا ان ندرس ذلك كله، أن ندرس أيضا موقف الاسلام من التحديث، وموقفه من القضايا التي تفرض نفسها علينا كالعولمة والتنمية والبيئة وما الى ذلك من الأمور، حتى ينطلق الاسلام في حركة العصر دون أن يكون بعيدا عن تطلعات الانسان، وليشارك في قيادة العالم بمفاهيمه الحضارية الاساسية.

إنني أعتقد أن الحوار مع كل الاطياف الاسلامية في مسألة الاجتهادات في فهم الاسلام، هو الذي يمكن ان يصل بنا الى نتيجة. ولكن هذا، أمام التراكمات من التخلف والخرافة والظلم والضغوط الهائلة التي تتحرك من هنا وهناك ولا سيما في الدوائر التي تفرض التجهيل على الواقع الاسلامي، يحتاج الى معاناة طويلة. وربما تكون الصدمات التي تحدث من خلال هذه العمليات الارهابية وما إليها، قد تكون فرصة لتحريك هذا الاتجاه. إننا لا نعتبر أن هناك إسلامات، بل هناك إسلام واحد يختلف الناس في فهمه.

... بعض من سيرته

الحديث مع المرجع الشيعي السيد محمد حسين فضل الله هو مناسبة بحد ذاتها، اذ دوماً لديه ما يقوله. في هذا الحديث يبدأ فضل الله من العراق لينتهي بسؤال التحديث لمواجهة التحديات المتصاعدة.

لم يقف هذا الحديث عند العراق، وإن كان قد استهل به، بل عرج على كل من سوريا وإيران ولبنان وفلسطين، وأخيرا الخط الفكري للرد على هذه الهجمة الهائلة التي تتعرض لها المنطقة.

في هذا الحديث الذي تنشره «السفير» خلاصة رؤية توصل إليها المرجع الشيعي جراء معرفة ومتابعة للوضع العراقي والاقليمي. فالمعروف ان السيد فضل الله ولد في النجف الأشرف في العراق، حيث هاجر والده آية الله السيد عبد الرؤوف فضل الله. وهناك درس على والده، ثم تدرج حتى انخرط في دروس «الخارج» وهو في عمر السادسة عشرة من عمره. تابع على كبار الاساتذة في الحوزة آنذاك امثال المرجع الديني السيد ابو القاسم الخوئي والمرجع الديني السيد محسن الحكيم والسيد محمود الشاهرودي والشيخ حسين الحلي. وحضر درس «الاسفار» عند الملا صدرا البادكوبي. وقد حصل من المرجع الخوئي على وكالة مطلقة في الامور التي تناط بالعالم المجتهد. وسرعان ما تحول الى أستاذ للفقه والاصول في النجف بعد مرحلتي «الدراسة» و«المباحثة الخاصة والعامة». تولى تدريس «المقدمات» و«السطوح» وكتابي المكاسب والرسائل للشيخ مرتضى الانصاري وكتاب كفاية وأصول للأخوين الخرساني بالاضافة الى كتاب مدارس الاحكام للسيد العاملي.

امضى فضل الله في النجف واحدا وثلاثين عاما قبل عودته الى لبنان، حيث اضافة الى اشتغاله بالدراسة والتدريس شارك في النجف في اصدار مجلتي «الأدب» و«الاضواء». بعد عودته الى لبنان ١٩٦٦ أسس المعهد الشرعي الاسلامي. اقام في منطقة النبعة - برج حمود حتى العام ١٩٧٦، وغادرها بعد سقوطها، ما أدى الى اقفال المعهد. لكنه تابع التدريس في لبنان وسوريا - حوزة المرتضى.

اهتماماته السياسية تعود الى المرحلة النجفية من حياته، وكان مع السيد الشهيد محمد باقر الصدر من المهتمين باكرا بالحركة الاسلامية في العراق. يقول: كنت من اوائل الذين شاركوا في ولادة الحركة الاسلامية الشيعية الملتزمة في العراق، وكنت مع الشهيد الصدر نلتقي معا ونخطط معا لولادة حركة اسلامية في الواقع الاسلامي الشيعي، لأن الحركات الاسلامية كانت تتحرك في الوسط السني كحركة الاخوان المسلمين و«حزب التحرير الاسلامي». وقد شاركت في ولادة هذه الحركة التي امتدت الى اغلب مواقع العالم العربي والاسلامي».

في العام ١٩٧٨ أسس جمعية المبرات وهي تعيل الآن ٣٣٠٠ يتيما و٣٥٠ معوقا في خمس مبرات ولها شبكة من المدارس يبلغ تعدادها ١٤ مدرسة، تضم معاهد فنية ومدارس اكاديمية، ومجموع طلابها ١٥٥٠٠ طالب وتلميذ.. اضافة الى العديد من المؤسسات الاجتماعية.. له عشرات المؤلفات في مسائل فقهية وله اجتهادات وفتاوى جريئة. تعرض لأكثر من محاولة اغتيال، اشهرها تلك التي جرت في بئر العبد وانكشف لاحقا ضلوع المخابرات المركزية الاميركية في تدبيرها.. وقد نجم عنها سقوط ٧٥ قتيلا و٢٠٠ جريح.

أبعد من إزاحة دكتاتور العراق .. خطوة نحو الإمبراطورية الكونية

... نصل الى الشؤون والشجون العراقية، وهي ضاغطة على الجميع، ليس لاعتبارات طائفية بل لاعتبارات استراتيجية كبرى، تتجاوز بتفاعلاتها وارتجاجاتها المدى الشرق اوسطي المنظور، الى الفضاء العالمي الاوسع فالاحتلال الاميركي للعراق ليس حدثا تفصيليا يمكن القفز فوقه او المرور عنه سريعا، طالما انه قد يكون المدخل لتفاعلات واسعة تتعدى بنيته الداخلية بتعقيداتها الى العالم الاوسع.

الاحتلال الاميركي بات كامل المواصفات. احتلال بقرار من الأمم المتحدة. ومعه اصبحت الولايات المتحدة هي المسؤولة عن سياسة واقتصاد وخدمات هذه الدولة التي تم إلغاؤها عن خارطة العالم بقوة الحرب وليس سواها. حدث من هذا الوزن يعيد حسابات الدول والقوى والاطراف، وكل مشتغل ومعني بالشؤون العامة في مداراتها.

بالتأكيد هناك خصوصيات عراقية، وهناك ما يسمى مرحلة الحراك الكبرى التي يشهدها هذا المجتمع بعد ثلاثة عقود ضاغطة، امكن خلالها للنظام الديكتاتوري تحويل القوى الحية الى جثث في مقابر جماعية مجهولة اسماء الاشخاص.. فقط هياكل عظمية مغفلة يعاد اكتشافها اليوم.. لكن هذا جانب من صورة العراق، او وجعه بالأصح. ماذا عن المقابر الاميركية للشعب والجيش العراقي؟!

الشيعة في لبنان، وكما تبين في الأشهر الماضية مثلهم مثل سواهم اعادوا اكتشاف العراق، علما انهم كانوا قبلا على تماس معه من خلال الدراسة في النجف والمرجعية الدينية والاهتمام بالكبير والصغير من شؤونه. اللبنانيون ومن ضمنهم الشيعة كانوا قد تعرفوا على «تغريبة» العراقيين عبر موجات متعاقبة بدأت منذ السبعينات واستمرت نزفا لا ينقطع منذ ذلك، تبعا لمنسوب القمع الفائض الذي تعرضوا له..

العراق اذاً في المقام الاول بالتأكيد، لكن قبلا لا بد من البدء بالسياسة الاميركية مقدمات واحتلالا:

قبل ان تدخل الدبابات الاميركية الى بغداد معلنة سقوط النظام الديكتاتوري في العراق، كانت الولايات المتحدة قد مهدت وعلى امتداد الاعوام الماضية، لـ«قصف» بحملة اعلامية كبرى، لم يعرف العالم المعاصر لها مثيلا. خلالها اتهم النظام العراقي بما هو فيه وليس فيه وحده، ديكتاتور، طاغية، و... وراء هذا وسواه كانت تكمن استراتيجيا تطل حينا وتغيب احيانا. بالطبع، لا يمكن لدولة كالدولة الاميركية معقدة الى هذا الحد على صعيد بنيتها السياسية وشبكات القوى الاقتصادية التي تحرك هيكلها الكبير وأجهزتها السياسية والعسكرية والامنية والاعلامية ان «تبوح» او ان تذيع اسرارها دفعة واحدة، هكذا على الملأ. لكن هذا لا يمنع من محاولة قراءة واستقراء المعالم لهذه الاستراتيجية التي عندما تحددت على الاقل خطوطها العامة تحركت عجلات و«تروس» لا تعد ولا تحصى.

قراءة في الاستراتيجيا

يؤكد نائب الامين العام لحزب الله الشيخ نعيم قاسم ان اعادة قراءة للاستراتيجية الاميركية في نظرتها الى المنطقة امر لا بد منه لدراسة الاحتلال الاميركي، الذي لا تمكن قراءة ابعاده تبعا لخطة الاحتلال المباشرة. وعليه يعتبر قاسم ان اختيارها العراق بوابة للمنطقة مرده غناه وضعفه في الوقت ذاته. ولذلك يصبح هذا المدخل ملائما للسيطرة السياسية والاقتصادية الشاملة. وهذا من شأنه ان يجعل الحضور الاميركي المباشر مطلوبا ومستقرا يؤدي دوره الداعم للمشروع الأساس الذي تتعرض له المنطقة منذ قرن متمثلا بالكيان الصهيوني في فلسطين.

اذاً وكما يبدو من كلام قاسم فإن هناك مشروعا اميركيا معطوفا على مشروع صهيوني بات له مداه الزمني ليس القليل. بهذا المعنى يؤكد قاسم ان مشروعا من وزن احتلال العراق لم يكن رد فعل على احداث ايلول ٢٠٠١ في نيويورك وواشنطن، ولم ينطلق مع مجيء ادارة بوش الابن الى البيت الابيض على رأس ادارة جديدة.

يقدم رئيس كتلة الوفاء للمقاومة في مجلس النواب النائب محمد رعد قراءة للعناوين التي تحركت تحت شعاراتها الاساطيل والجيوش.. أما الهدف الفعلي فلم يكن لا نشر الديموقراطية ولا الاطاحة بالديكتاتورية ولا البحث عن الاسلحة بل وضع اليد بشكل مباشر على العراق لفرض خرائط على المنطقة تحفظ مصالح اميركا وحلفائها الغربيين. ولتحقيق ذلك كان لا بد من الامساك بزمام المادة الاستراتيجية التي تحتاجها كدولة عظمى وهي النفط. ومن اجل الوصول الى ذلك كانت هناك خطوات ممنهجة افادت من الاحداث الدولية ووظفتها في خدمة استراتيجيتها واثبات سيادة اميركا على القرار الدولي برمته. الحرب على افغانستان اوصلتها الى التماس مع نفط بحر قزوين. وهو الاحتياط الاستراتيجي الذي تم اكتشافه مؤخرا، وهو يكفي العالم لمدة قد تصل الى قرن. والنفط في العراق هو الثاني احتياطا في العالم الآن. والهيمنة على العراق تتيح عمليا تجاوزه الى السيطرة على الخليج بنفطه وسياسته. والنتيجة ان اميركا باتت الآن قادرة على التحكم بأكثر من ٨٠ بالمئة من نفط العالم. وبالتالي التأثير على سياسات الاوبك توزيعا وأسعارا وعلى اقتصاديات العالم بما يتيح ضبط اي محاولة للتفلت من نفوذها لدى بعض الدول الصناعية.

امبراطورية العالم

المؤكد ان اميركا، وفي دوائر قرارها تحديدا تملك تصورا امبراطوريا للعالم. مركز قوي يمسك بزمام القارات والدول والشعوب والثروات.. دوما لا تقوم الامبراطوريات على السياسة فقط، بل على ما يشبه الرؤى المقدسة. الكثيرون يتحدثون في العاصمة واشنطن عن لغة يستعملها بوش تذكر بلغة «الأنبياء»، لغة تعتمد الايحاء بوجود رسالة كبرى. رسالة تضع على عاتق الولايات المتحدة الاميركية مهمة سامية، باعتبارها القوة العظمى للخير في مواجهة فلول الشر. هذه الثنائية للعالم، والتي تعتبر الوجه الآخر للعملة التي روجها بن لادن هي التي تحرك اميركا.. خلف المصالح هناك «لغة الوهية».

الامين العام الاسبق لحزب الله الشيخ صبحي الطفيلي يرى ان الاميركيين يريدون العالم امبراطورية صغيرة لهم حقا. ويصف كل كلام خارج هذا الموضوع بأنه خداع. خداع للنفس وخداع للعالم عند نفي ذلك. واحتلال العراق هو ركيزة اساسية في اطار بناء هذه الامبراطورية. وقد ساق الاميركي الامور سوقا في هذا الاتجاه، ومنذ حربي الخليج الاولى والثانية. فالاميركي هو الذي طلب من الكويت تحصيل ديونها من العراق، وهو الذي دعاها الى ضخ النفط بكثافة كي تهبط الاسعار، وهو الذي اوحى لصدام بإمكانية اجتياحه للكويت، وهو الذي ابقى عليه بعد هزيمته.. وهو الذي كان قد سبق وأغراه بفتح القتال مع ايران وهو... وعندما وجد الاميركي ان مصلحته باتت تقضي الاطاحة به فعل ذلك. ولم يمنعه من الشروع في الحرب وتكريس بنائه الامبراطورية علاقته مع الاوروبيين، ولا الهيئات الدولية ولا العلاقات السياسية. بالطبع انطلق في ذلك كله من قراءة للوضع الدولي والعراقي والعربي ولكن هذه القراءة قد تصيب او تخطئ تبعا للمتغيرات والمعادلات التي لا يمكن حسبانها بدقة.

يعتبر ابراهيم شمس الدين ان المورد الأهم للولايات المتحدة هو القوة. لذلك يتم استثمار وجود القوة حتى الحد الاقصى. بهذا المعنى لا يصبح الجيش عبئا على الموازنة الاميركية كما يتصور البعض، بل الحل لمعضلات الاقتصاد والسوق والشركات. الاستثمار لوجود الجيش يتم عبر الحصول على ما يريدونه من مواد واسواق بمعزل عن الآخرين او رغم انفهم. بهذا المعنى لا يصبح تعبير القوة الغاشمة مجرد لغة انشائية او وصفية، بل توصيف القوة غير العادلة التي لا تقيم وزنا للشرعية والاخلاق. والحقيقة ان ما يريده الاميركيون هو اضافة المصدر النفطي الى قوتهم. كان العراق بالنسبة لهم يشكل حالة مغرية تقدم نفسها كفريسة. فالنظام نظام قمعي وطاغ. وهذا ما جعل منه موقع استهداف. بالتأكيد النظام يستحق الاطاحة به ولكن على يد الشعب العراقي.

اما لماذا تم على يد الجيش الاميركي، فذلك لأن الاميركيين يملكون رؤية للعالم، وهذا بات ثابتا في الادبيات السياسية الاميركية. دوما تكون الرؤية لمفكرين ومعلمين وشعراء، وعندما يتقمصها قادة سياسيون تحدث الكوارث. النازية كانت تملك رؤية لنفسها وللعالم. الادارة الحالية تملك رؤية تحاول فرضها اعتمادا على مورد القوة الذي تملكه دون سواها في العالم. قسم من هذه الرؤية يقوم على مبدأ حل النزاع العربي - الاسرائيلي عبر الانحياز للرؤية الصهيونية. هناك الآن توحد رؤية بين الادارتين الاميركية والاسرائيلية. استعمل كلمة رؤية بمعنى انقلابي شمولي. الموضوع ليس موضوع ديكتاتور فاسد. هم يخططون الآن للتدخل في ابسط نظم الحياة للناس تحت شعار «الدمقرطة». هناك حديث عن انظمة قيم وتعليم ومناهج جديدة. حتى انهم ينوون ادخال تعديلات على النص الديني.. وهذا من اخطر وأسخف ما يمكن ان ينشأ حول هذا النص. هم يتعاملون مع الاسلام بوصفه عقيدة عنيفة بل إرهابية. هذا ما لا يقولونه علنا. كان بوش يطمح الى جر المسيحية وراءه، لكن الموقف المسيحي الكنسي والسياسي الدولي جردهم من ذلك، رغم عملية البحث عن المشترك الاطلسي وسيل الضغوط والاغراءات.

النفط أيضا وأيضا

يتوافق قاسم مع ان هناك مشروعا واحدا للمنطقة هو مشروع اميركي - اسرائيلي متطابق. ويحدد ثلاثة عناوين رئيسية في الاهداف الاميركية من الغزو. الاول منها يتناول النفط، الثاني السيطرة السياسية تمهيدا لأحداث تغييرات في الانظمة وخارطة المنطقة، اما الثالث فهو استكمال المشروع الاسرائيلي من وجهة نظر الصهيونية.

في الجانب الاول يعتبر قاسم انه لو لم يكن العراق غنيا بالنفط لما فكر الاميركيون بغزوه. اذ ان هذا الغزو يحمل رصيدا استثماريا ضخما. فالعراق يشكل خزانا كبيرا وملائما يمكن معه تعويض كلفة ونفقات الجيوش ويفتح المجال امام الشركات للعمل، ويطلق الخطوات الاولى نحو نظام اقتصادي يتحكم بالمنطقة اعتمادا على بوابة العراق. ولعل هذا ما بدا واضحا من خلال الاهتمام بإدارة

النفط وحماية وزارته دون سواها.

ناطق باسم المكتب السياسي لحركة «امل» يعود الى القرار ١٤٤٨ الذي جعل من العراق قانونيا ارضا محتلة مسيرة من قبل قوات التحالف حتى قيام حكومة عراقية. لكن هذه الحكومة العراقية، لا نعرف موعد قيامها، وحتى لو قامت وأعلن عنها، فإن الولايات المتحدة الاميركية ليست جمعية خيرية توزع عطاياها مجانا. إذ أن حماستها بحشد الجيوش وصرف الموازنات لم تكن لإزاحة صدام «كرمى لعيون» العراقيين، إنما من أجل مصالحها الاقتصادية الاستراتيجية ومصالح حليفتها إسرائيل السياسية والاقتصادية. يمكن إضافة المزيد ليتبين المسار الاستراتيجي المتكامل الذي يتمثل بـ«إقامة الهلال النفطي الذي يمتد من المملكة العربية السعودية جنوبا الى العراق شمالا وإيران ومحيط بحر قزوين وأفغانستان شرقا» مع مستتبعاته.

احتلال وتقسيم؟

رغم كل هذه الشروحات لا يمكن القول ان هذه النظرة البانورامية تملك ما يغطي هيكلها العظمي. ربما السبب هو ارتباك الخطة الاميركية نفسها، ربما ان ما يخطط على الورق هو غيره على الارض، عندما تنفذ أجزاء أساسية منه، لا سيما تلك التي تتمثل بالاطاحة بالنظام السابق.. الارتباك ينسحب على الجوانب السياسية والامنية والاقتصادية. التعبيرات عنه تجد تجليات مختلفة على ألسنة المسؤولين الكبار.. فالأصغر. الكل يعبر عنه. لم تصل الأمور الى مرحلة المأزق الذي يتطلب إعادة التدقيق في حسابات الارباح والخسائر. ما زال تصور المردود هو الأساس، وهو ما كان في صميم مشروع الغزو. يتم إبدال غارنر ببريمر، ويعترف الأخير بأن هناك مقاومة منظمة تواجهها القوات الاميركية في ضوء وتيرة يومية للخسائر في صفوفها، ناهيك عما يمكن أن تثيره من خسائر سياسية للمشروع برمته، فضلا عن الارباح الاقتصادية التي قد تتهددها حرارة العراق..

احتلال أم تقسيم.. أم احتلال وتقسيم في الوقت نفسه. هل الهيمنة والسيطرة تفترض «التوحيد»، ماذا تريد أميركا من العراق حقا على ضوء انفراط الصيغ والمحاولات واحدة وراء أخرى.

العلامة محمد حسن الأمين لا يتخوف من الاحتلال نظرا لبدء تشكل قوى الممانعة والاعتراض، بل من التقسيم الى دويلات طائفية وإثنية انطلاقا من الوضعية الديموغرافية للوطن العراقي، والتي قد تغري بالعمل على إنجاز هذا التقسيم بين مناطق شيعية وسنية وكردية.

هذا الاحتمال الذي يتخوف منه الأمين، يعني في ما يعنيه استعمال المبضع في جراحة كبرى لم يعرفها العراق. ومثل هذا يفتح سؤالا آخر يتعلق بالفكر السياسي والديني للشيعة العراقيين تحديدا.

يقول الأمين، على المستوى السياسي، فإن الاجتماع السياسي العراقي لم يشهد عبر تاريخه ما يشير الى أي نزعة انفصالية او طموح انعزالي لإقامة كيان سياسي - شيعي مستقل، والحركات الوطنية العراقية بتاريخها القريب تدل دلالة واضحة أن القوى السياسية الشيعية كانت تشكل محور التوجيه الوطني العراقي التوحيدي. ولعل المساهمة المعروفة للشيعة في ثورة العشرين ضد الانكليز تشكل محطة لرصد التوجه السياسي للشيعة، حيث ظهرت من خلالها إمارات انتمائهم الوطني الخالص للوطن العراقي.

هذا على المستوى السياسي باختصار، أما على المستوى الديني فإن الدور التاريخي للنجف الأشرف كان يصب دوما في اتجاهات الوحدة العراقية. وهو ما تجلى في دور القيادة الدينية في ثورة العشرين والمراحل التي أعقبتها، ومنها مرحلة تأسيس الدولة العراقية التي فضلت النجف الانتماء اليها. رغم النقص في التمثيل الشيعي على مستوى الدولة.

من هنا أرى أن الشيعة سوف يمارسون دورا إيجابيا في حركة الاعتراض والممانعة ضد كل أشكال التقسيم التي يمكن ان ينطوي عليها مشروع الاحتلال الاميركي الراهن. وهم بذلك يشكلون مظهرا حيويا للتعبير عن الإرادة الوطنية العراقية. حيث باستثناء الحالة الكردية فإن المنحى العام، للتيارات السياسية العراقية هو منحى الوحدة الوطنية وإن كان ذلك لا يمنع من الإقرار سياسيا بعلاقة فيدرالية بين العرب والأكراد، ولكن ليس بين العرب المسلمين داخل العراق.

يختم الامين تحليله بالاشارة الى استمرار غموض المشروع الاميركي، وإن كان ملمحه ظاهرا في ما يسمى بخارطة للمنطقة مختلفة عما هو راهن. وعليه يتساءل الأمين: هل يكون العراق هو نموذج الممانعة العربية للتلاعب بها؟ لذلك كله تبدو المسألة العراقية حيوية جدا ليس على المستوى الخاص بل على مستوى المنطقة العربية ككل ولا سيما المحيطة بها.

المفتي السيد علي الأمين ينطلق من القاعدة القانونية المعروفة في أن ما يبنى على الباطل هو باطل. وعليه فإنه يعتبر أن كل عمل تقوم به الادارة الاميركية على المستوى السياسي والديموغرافي بما يؤدي الى تصديع وحدة العراق أرضا وشعبا ومؤسسات هو عمل باطل تبعا لكل القوانين والاعراف الدولية. ويصف المفتي الأمين أي خطوة تقسيمية تسعى الولايات المتحدة الى تسويقها في العراق، بأنها عبارة عن رسالة الى العالم العربي والاسلامي تدلل ان المشروع الاميركي يهدف الى تقسيم المنطقة والعالم الى طوائف وأعراق وقبائل إمعانا في الاضعاف والتمزيق. والهدف من ذلك كله الى جانب السيطرة تبرير وحماية الكيان العنصري الصهيوني. وعليه، فإنه يدعو الجميع في العراق وخارجه من شعوب ودول الى رفض هذا المسعى الاميركي من خلال البوابة العراقية.

الاحتمالات المفتوحة

ينبغي المزيد من النسج على منوال الحاتمالات المفتوحة، خصوصا ان لا وجود لصورة كاملة للوضع لمن هم داخل العراق، فكيف بالخارج. بالطبع هناك مؤشرات ونقاط استدلال وكل ينطلق منها في تحليله للموقف.

الشيخ صبحي الطفيلي ينطلق من معرفة واسعة بالعراق مدنا وأمزجة لشرائح وأفراد وجماعات. ويؤكد ان الشعب العراقي شعب واحد، حتى الأكراد لا يعتبرون أنفسهم غير عراقيين. القضية الكردية سيست كثيرا وتم اللعب عليها في أجواء القومية العربية. ليس هناك في العراق ما يخيف من نزاعات وصراعات. لكن إذا أراد الاميركيون إحداث فتنة فهم قادرون. هذه مسألة ممكنة، رغم انها ليست من طبيعة او تاريخ الشعب العراقي. الشعارات التي ترتفع هنا وهناك رغم غياب التنسيق واحدة. العراقيون لم يلملموا جراحهم بعد، ما استفاقوا من طغيان النظام حتى رأوا الاحتلال بأم أعينهم. لذلك فان أي قراءة للعراق بعد رحيل صدام مباشرة، ودون أخذ الوقت الكافي هي قراءة متسرعة، إذ أغلب ردود الفعل ما زالت عاطفية وليست صادرة عن تبصر.

يستنتج الطفيلي أننا حيال الوضع العراقي أمام احتمالين:

الاول منهما أن ينجح الاميركيون في تثبيت سلطتهم، وعندها نكون قد دخلنا في نفق على صعيد المنطقة يتجاوز كل ما عرفناه من تمزق وتخلف وفقر، أكثر مما هو قائم، باعتبار ان المصلحة الاميركية تقضي بذلك.

والثاني ان يتمكن الشعب العراقي من إلحاق الهزيمة بالأميركي وهو أمر ممكن على ضوء غنى العراق بالرجال والتراث والحضارة، مما سينتج عنه تداعيات إيجابية. إذ المعروف ان أميركا تدعم اسرائيل وأنظمة المنطقة وإذا ما هزمت ستتفكك الأطراف ولا بد أن ينعكس ذلك على الكيان الصهيوني ويكون ذلك إيذانا بهزيمته.

يقدم النائب محمد رعد عرضا لما هو عليه الوضع القانوني للعراق اليوم انطلاقا من التفويض الاميركي بالتصرف بالوضع السياسي والاقتصادي والأمني. ويرى أن القوى السياسية في العراق أخذت تدرك وعلى نحو مبكر انها على تماس مع قوات احتلال وليس قوات تحرير كما أعلنت. الأصل أن تنبعث إرادة رفض الاحتلال من الشعب العراقي وقواه السياسية ومرجعياته الدينية. وبموجب القوانين الدولية ايضا فإن للشعب المحتلة أرضه ان يكافح لتحريرها بالطرق التي يراها مناسبة. وهنا يصبح الكفاح مشروعا: وإذا كان هناك من يدعم حق هذا الشعب في كفاحه فإن هذا الدعم يصبح مشروعا بموجب المواثيق والقوانين الدولية. أساليب الدعم تتفاوت بتقديرات الجهات الداعمة. لكن قبل كل ذلك يجب ان نعترف أن لا أحد يدعم شيئا غير موجود. استدراج الدعم يتطلب نهوضا داخليا له مشروعيته على مستوى القانون الدولي، بالتأكيد لسوريا وإيران مصلحة ألا يكون هناك الى جوارهما نظام سياسي معاد، وللشعب العراقي مصلحة ألا يكون محكوما باحتلال ولا استقرار في علاقاته مع دول الجوار. وعليه يجب ان تبقى الساحة العراقية في حال من القلق على الاقل، حتى تتحقق هذه المعادلة التي تقوم على تطابق المصالح المتداخلة بين العراق وسوريا وإيران وتركيا والسعودية وغيرها من دول الجوار.

مفاجآت وطائف

الحديث عن الاحتمالات بالنسبة للشيخ نعيم قاسم يفتح على المقدمات. لا إمكانية للحديث عن احتمالات اليوم والغد دون إعادة التدقيق بما شهده العراق منذ الغزو حتى اليوم. عليه لا ينفي الحديث عن الاستراتيجية الاميركية الكاملة غياب او ارتباك الخطط التفصيلية للوضع العراقي، فالاميركيون لم يكن لديهم معرفة دقيقة بالنسيج الشعبي والطائفي والإثني، بدليل المفاجآت التي واجهوها. بداية اعتقدوا ان قمع صدام سيتحول ترحيبا بهم فلم يحصل، واعتقدوا ان لقاءات لندن مع المعارضة تشكل غطاء سياسيا فاكتشفوا مدى حجم المعارضة لهم بدليل التظاهرات المليونية. كان العراقيون يميزون في تحركاتهم بين إسقاط النظام واحتلال بلدهم. ما تصوره الاميركيون كافيا للاقناع بضرورة وجودهم انقلب ضدهم. لقد تركوا مجالا للفوضى أملا بإشعار العراقيين بحاجتهم الى الأمن الاميركي، لكن المسؤولية تجاوزت ذلك لتصيبهم في كل ما جرى ويجري. نسمع من بريمر اليوم مزيدا من التأجيل لقيام اللجنة التي يفترض ان تدير العراق، نظرا لعجزه عن تشخيص القوى الفاعلة التي تكفيه مؤونة المعترضين. باختصار يقول الشيخ نعيم قاسم انها تجرب وتحاول تقديم بدائل ميدانية، لكنها لا تملك صورة كاملة وواضحة وان كانت تملك أهدافا واستراتيجية عامة. وفي الخطط لا بد من التفاصيل، لأن الأخيرة قد تؤدي الى نجاحها او فشلها.

أعتقد أن الاميركيين سيفشلون نظرا لتعقيدات الوضع العراقي، او لأنهم مصممون على إدارته كغزاة محتلين. وهذه نقطة جوهرية في الخلاف مع القيادات العراقية والشعب العراقي. وهذا ما يمكن ان ينتج حالا من الاعتراض القابلة للتطور وإرباك الأداء الاميركي.

يعترف الشيخ قاسم بأنه لا يستطيع في هذه اللحظة استشراف تطور حجم المعارضة وهل تصل في الصراع الى مستوى الفعل العسكري أم تظل في حيز الاطار السياسي. وبانتظار مرور أشهر من الزمن ستكون الصورة أكثر وضوحا لدى العراقيين والأداء الاميركي أكثر انكشافا.

أوسع متابعة للشأن العراقي بتفاصيله وتعقيداته هي التي قدمها العلامة السيد هاني فحص، انطلاقا من معرفة دقيقة بالتركيبة العراقية في مستوياتها السياسية - الاجتماعية - الإثنية - المدينية. يؤكد فحص وعلى ضوء عرض تاريخي يعود في بعض جوانبه الى ما يزيد عن ألف عام، مع تفصيل في تكون التاريخ الحديث.. يؤكد انطلاقا من ذلك كله على ضرورة الحذر، فما حدث في العراق هو بمثابة جرس إنذار أخير اما ان نسمعه او لا نسمعه. ولهذا متوجباته ولذاك مخاطره المضاعفة.

في الجانب الذي نتناوله يؤكد فحص على ضرورة قيام مشروع إنقاذي، العراق بأمس الحاجة اليه. هذا المشروع الذي يتحدث عنه هو عراقي بقدر ما هو إقليمي. ويطرح رعايته على كل من: مصر، سوريا، السعودية، إيران وتركيا. على أن يتم تدبره او تدبيره بالتشاور والتنسيق الكامل مع كل الحساسيات العراقية بما هي قوى ومرجعيات وشرائح وإثنيات و..

ولكن ماذا يمكن أن يحمل مثل هذا المشروع لعراق تحت الاحتلال؟

يحمل له كما يرى فحص اتفاقا مشابها لاتفاق الطائف اللبناني بعد تجريده من خصوصياته المحلية واستبدالها بالخصوصيات العراقية. لذلك من الآن وكي نصل الى تلك المحطة، فإن المطلوب من هذه الجهات - الدول - هو التواصل مع المعارضة العراقية وتقلل من اعتراضاتها على كثير من الامور في العراق، وان تتفهم حتى الخطأ العراقي، الذي له أسبابه ومسبباته، وتسهم في تهيئة المناخ لبداية عراقية تفتح على إنتاج سلطة وطنية تتولى إدارة العراق وأمنه واقتصاده ومؤسساته وإعماره من دون أوهام. بمعنى أن هناك مرحلة انتقالية قد يناسبها نوع من الكتلة التاريخية المتكونة من دون تدقيق كامل حتى يعود العراق مكانا ماديا حقيقيا لرؤية سياسية مستقبلية.

ينطلق فحص في دعوته من جراحات العراق العميقة، ودور ما تبقى من قواه في ضوء مئات ألوف المبادين و ٤ ملايين مهاجر قسري الى أربع جهات الارض.. ومن اعتباره ان الوجود الاميركي في العراق بات حقيقة لا يمكن تجاهلها او استسهال التعامل معها. لكن ذلك لا يمنع العراقيين والعرب من العمل على توسيع هامش الإرادة العراقية بالتدريج، مع الانتباه الى الصعوبات التي يفرزها الواقع. أما إذا مُنع العراقيون من تحقيق إرادتهم فيكونون قد اكتسبوا مصداقية تؤهلهم لرفع درجة الممانعة الى مستوى المقاومة، دون أن تكون هذه المقاومة لصالح ما تبقى من نظام صدام.

بداية ينفي إبراهيم شمس الدين أي خصوصية شيعية في العراق. هناك نظام سياسي أسقط وحال من الفراغ بعده. يسأل لماذا يصدر كلام حول توقع دعم الشيعة للأميركيين، فيما الشيعة تصرفوا كعراقيين كما يجب ان يكونوا. رغم الأذية السياسية والمنافي التي تعرضوا لها فقد تصرفوا كمواطنين ورفضوا الاحتلال، ومارسوا ما يليق بوطنيتهم. الخيبة التي وقع بها البعض نتيجة لتحليلات خاطئة قدمها الشلبي وغيره.

الجانب المهم ان هناك صيغة لنظام سياسي لا بد أن تنشأ، يجب ان يشارك الجميع في صياغتها، ضمن وجهة تحفظ للعراق وحدته وتسمح بتطويره. وليس ضمن مبدأ المحاصصة. المسلمون في العراق أكثرية يجب ان يتعامل مع هذا. في الوقت ذاته لا يمكن أن يبنى نظام يتنافى مع الاسلام. ولا أعني قيام نظام ديني سواء على الطريقة السعودية او الايرانية. ضمن هذا الوضع الشيعة يشكلون أكثرية بالواقع، وليس بالغلبة النوعية، لا نوع يغلب نوعا. المسألة ليست ديناصورات وأكلة لحوم. هذه حقائق سوسيولوجيا الاجتماع السياسي. الأكراد موجودون ولهم لغة وتراث ثقافي خاص بهم، ومن حقهم التعامل معهم كجزء مكون من الشعب، وليس باتجاه الاستقلال. لماذا يتم طرح الموضوع وكأن للشيعة مطالبات خاصة. يجب ان تبنى دولة العراق لمصلحة العراقيين ككل. الشيعة ليست لديهم مطالب خاصة، والوالد كان يردد دوما كما في لبنان ان العددية ليست مقياسا ومرجعا لغلبة سياسية. يعود في طرحه الى مفهوم المواطنة والمشاركة. في العراق هناك عراقيون وليسوا سنة وشيعة. الكسب يتم عندما يطمئن شريكك الآخر، لأن البديل عن ذلك هو احتمال خسارة كل شيء.

.. كل هذا يتطلب الدخول في نسيج المجتمع العراقي بما يعيشه من قوى وتيارات وطوائف ومرجعيات واثنيات..

خارطة العراق الطائفية والسياسية أمام فجوات السياسة ووقائع الاحتلال

.. والحديث عن العراق يتطلب الدخول في عمق النسيج الاجتماعي. التفاصيل هنا تصبح هي الاساس، باعتبارها المحرك نحو المستقبل مع كل ما يحف بها من قوى ومصالح. تتفق اكثر التقديرات على ان عدد سكان العراق ٢٤ مليونا. سوى ذلك هناك خلافات. عدد الشيعة يرتفع وينخفض. يصل في الحد الاقصى الى ٦٤ بالمئة من السكان، ويهبط في الحد الأدنى الى ستين بالمئة. لكنه في الجنوب لا يقل عن تسعين بالمئة. الباقون هم حوالى ١٨ ـ ٢٠ بالمئة من الاكراد يتركزون في الشمال، ويبقى ما بين ١٦ ـ ٢٠ بالمئة هم من السنة والتركمان السنة والآشوريين والكلدان والصابئة و... هذه بعض الارقام، وفي الجغرافيا، الجنوب يحظى بأكثرية شيعية، وفي الشمال الاكراد وفي الوسط تقريبا السنة. ليست الخارطة الطائفية على هذا النحو القاطع بالتأكيد، ففي الوسط بغداد العاصمة هي خليط بين السنة والشيعة و... العراقيون ينقسمون ايضا الى عرب وغير عرب. في الفئة الاولى يدخل السنة والشيعة وفي الثانية الاكراد والتركمان.

لا يعرف الاجتماع العراقي تمييزا، الا بما هو خلاصة وتفاعلات للتدخلات السياسية. هناك مدن شيعية واخرى سنية وثالثة مختلفة، وهناك تمازج أعراق ايضا. المدن دوما تدمج في رحابها، تحتضن الجميع وتعيد تنظيمهم في بوتقتها. في الأرياف هناك عشائر وقبائل، وهذه الاخيرة سنية وشيعية على حد سواء، وبعضها يملك امتدادات عابرة لحدود العراق، مثلهم مثل الاقليات الاثنية (الاكراد والتركمان). ويؤلف سكان المدن حوالى ثلثي السكان والأرياف من الثلث الباقي.

تختلف التقديرات بشأن حضور الجماعات الدينية في مؤسسات السلطة. الشيعة كما يقول السيد هاني فحص اكثرية في الاجتماع اقلية في السلطة بالمقارنة مع السنة. حدث هذا منذ اندراج العراق في اطار الدولة العثمانية، ولم يتغير لدى دولة العراق الاستقلالية. ولكن السؤال هو هل السنة في السلطة حقا؟

بالتأكيد لم يكافأ الشيعة على دورهم في بناء العراق الحديث، الذي كان مدماكه الاساس ثورة العشرين التي لعبت فيها النجف دورا رئيسيا... استمر الاجحاف في العهود الاستقلالية وتعمق في غضون العقود الثلاثة الماضية.

السؤال الذي طرحناه بداية هل كان السنة في السلطة؟ يمكن الاجابة عليه بـ«لعم»، أي لا ونعم. على الاقل أمسكوا رسميا بمقاليد السلطة وحددت الاخيرة نسبة المشاركة للآخرين بما لا يمكن تجاوزه. ولكن في العقود الاخيرة، أخذت السلطة تتحول الى اداة اقلوية لأقلية. حصة الشيعة في المواقع الادارية العليا لم تزد عن خمسة بالمئة من الوظائف، وهم مع الاكراد والتركمان الذين يزيدون ربما عن ثمانين بالمئة حصلوا على ما لا يتجاوز الـ٣٥ بالمئة من النسبة العامة للوظائف. لم يكن نظام الرئيس صدام حسين سنيا، كان معه وحتى اللحظة الاخيرة عدد من الرموز المحسوبين على الطائفة الشيعية. كانت حصة السنة محصورة ومحددة في مدن، وبتدقيق أشد في عائلات بعض المدن. جاء صدام وحصرها في مدينة واحدة ثم في عائلة واحدة ثم في جزء من العائلة. ذاب الحزب وسط هذا المسار الدموي العاصف؟.

رغم هذا الخط الناظم للتاريخ حتى الأمس القريب، لم يعرف العراقيون فتنا طائفية. عندما كانت المدن العراقية تشهد توترا من هذا القبيل، كان الامر يتم بفعل الحاكم سواء كان شيعيا او سنيا، بويهيا او سلجوقيا عثمانيا او صفويا او قاجاريا.. ناهيك بالانكليزي والبعثي الذي سلط سيفه على الجميع، وان تفاوتت حدته بين جماعة واخرى. هذا ما يثبته فحص.

هذا التقديم يفتح الكلام ولا يقفله. يفتح الكلام على عراق اليوم. ما مضى قد مضى، والعراقيون مرغمون اضطرارا على النظر الى المستقبل. ليس العراقيون وحدهم في هذا الامتحان، اذ الموضوع الفعلي يتعداهم الى اصغر «دسكرة» في المنطقة العربية والاسلامية، لا سيما ان الزلزال الكبير له زلازل ارتدادية قد لا تكون اقل عنفا من الاصلي الذي تفرعت عنه. هذا يتطلب الدخول في تلمس بعض معالم خريطة القوى السياسية على الساحة العراقية.

الأكراد والسنّة

يعتبر نائب الامين العام لحزب الله الشيخ نعيم قاسم ان قوى الاعتراض العراقية تتمثل بشكل رئيسي في المنطقة غير الكردية. لأن الاكراد بحكم خصوصية الشمال العراقي وما تكرس لهم خلال الفترة السابقة قد أرسى قناعة بتطوير ما تم الحصول عليه مع بعض التحسينات، بمعنى سلطة ما محدودة في اطار ما هو قائم الآن. وهو أمر وارد، إذ ان الاميركيين قد يفكرون بتحييدهم من دائرة

الحالة العامة القائمة في عراق اليوم. رغم هذه الوجهة العامة، يستدرك قاسم قائلا: لكن لا بد وان نضع في حسابنا احتمال ان لا يقبل الاميركيون بالوضع السابق للاكراد وهذا احتمال ضعيف، لأنه عندها ستجد القوى الكردية نفسها مساقة للانضمام الى المعارضة العامة.

الرعاية الاميركية لوضع الشمال برزت منذ البدء بحشد القوى على حدود العراق وما أثاره الموقف التركي من صعوبات امام تلك الجبهة، حتى أمكن ايجاد المخرج. ثم كانت العمليات العسكرية كردية واميركية. وهي تتويج لمسار من العلاقة بين الاميركيين وكل من البرازاني والطالباني. خلال الحملة أمكن «اجتثاث» المجموعات السنية الكردية الاصولية.. وبعدها عندما انهارت القوات العراقية شمالا بعد قتال نسبي، دخل غارنر دخول الفاتحين الى مدن الشمال مستقبلا بالأرز والزهر. تمدد الاكراد لبعض الوقت ومعهم حساسيات مراحل سابقة.

لكن هذا لا يعني ان إشكالية وضع الاكراد قد حلت، اذ ان اعادة تركيب الخارطة لم تبدأ بعد، ولا شك بأن تركيا التي كانت تراقب الوضع ما زالت في طور التدقيق في كل الاشارات التي يمكن ان يشتم منها «رائحة» دولة كردية لها حساباتها المختلفة على وضعها الداخلي.

الاكراد طبعا هم جزء من الكتلة السنية التي تم تقسيمها في عهد النظام الراحل الى عرب وأكراد وتركمان ثم قسمها الى حزب ولا حزب. ثم شطب مواقع الانتاج السياسي في تاريخها: الانبار، الرمادي، الفلوجة وهيت وعامر وعانة وسامراء وحديثة. ثم شطب الموصل سياسيا وأبقى لها فرصة الترقي في المؤسسة العسكرية من خلال كبار الضباط. الكوادر المتقدمة والقيادات الفاعلة في الحزب كانت بنسبة تسعين بالمئة سنية، الا انها تبددت في عمليات التطهير، لا سيما بعد ان رفع تكريت فوق الجميع، ثم رفع العوجة فوقها، ثم رفع العائلة على العوجة، ثم جزءا من العائلة على الجزء الاكبر.

هذه الصورة التي يقدمها السيد هاني فحص تحتاج الى استكمال باعتبارها جامدة، وان كانت تمثل تراتبيات وأفضليات متلاحقة. يضيف فحص: لم يبق مكان سني إلا وزعزعه عبر حصر التمثيل فيه على حساب سواه، ثم أقصاه لحساب غيره وهكذا. عالج الشيعة بالقتل الواسع وعالج السنة بالقتل المباشر المخطط، وغير المباشر من خلال الطرد والاختزال، فالكتلة السنية تشعر الآن بأنها تدفع ثمن نظام لم يسمح لها بمعارضته بشكل متماسك وقوي، وتعبر عن ذلك بوضوح. الآن هي في صدد تجميع أنفسها على مقتضى وطني. والشيعة العراقيون لا يحملونها مسؤولية النظام. هذا لا يعني أنه ليس هناك إشكالية شيعية ـ سنية، ولكنها كأي إشكاليات أوطان التعدد الديني والمذهبي والقومي. لقد كان بإمكان النظام فصل الأكراد عن السنة، وفصل الاخيرين عن الاول، وهذا ما مكن النظام من مصادرتهم وإضعافهم أكثر. ويعتقد فحص أن أهم دلالات الاستضعاف منعهم من التعبير عن معارضتهم خلاف الشيعة الذين عبروا وان كانوا قد دفعوا ثمنا فادحا.

يصف الباحث د. رضوان السيد الحزب الاسلامي العراقي السني بأنه من أكبر دعاة الديموقراطية، وقد عاود افتتاح مراكز له في الموصل وبغداد والانبار وديالي والرمادي. وقد تأسس الحزب كفرع للاخوان المسلمين على يد الشيخ محمد الصواف، ومنع مرارا بدءا من العام ١٩٦٠، وقد ارتاح هؤلاء قليلا أيام العارفين عبد السلام وعبد الرحمن، إلا أنه عانى المنع والتشدد والسجن أيام حكم الرئيسين البكر وصدام. وما يقال عن الحزب الاسلامي يقال عن حزب التحرير وسواه. السيد يستنتج ان السنة أصيبوا برضة بالمعنى النفسي لسقوط صدام ستتركهم في حيال ضياع لزمن قد يطول، لا سيما في المدن خصوصا حيث نسبة كبيرة منهم كانت في الجيش والادارات والامن والاجهزة الاخرى.

النجف ومرجعياتها

الملايين التي تجمعت في كربلاء في أربعين الإمام الحسين، كانت تتجاوز شعائر الحزن التقليدية للتعبير عن حضورها في معادلة عراق الغد، باعتبار ان الاحكام القاهرة المفروضة عليها لا بد وأن تتغير. أحكام قاهرة فرضها عليها النظام السابق، واحتلال جديد يتجاوز على العراق بأسره عندما يعيده الى قيد الاحتلال.

يعتبر العلامة محمد حسن الأمين أنه من الطبيعي أن تكون النجف أكثر عناية واهتماما من سواها بالتغيير الحاصل بعد هذه الحرب التي أزالت النظام. وهي ترى في ذلك الفرصة من أجل استعادة دورها ومكانتها التاريخية كمركز للعلوم الدينية على مستوى العالم الشيعي. وقد يكون ذلك صعبا خلال فترة زمنية قصيرة، فاستعادة هذا الدور تتطلب فترة أطول واستقرارا. أحسب أن النجف سوف تعمل بكثافة على الافادة منها لاستعادة بنيتها، ولا شك أيضا بأن النجف تعمل الآن وستعمل في المستقبل لكي تكون هناك ضمانات سياسية من أجل وضع حر ومستقل ومؤثر على المستوى السياسي في العراق. والمعطيات التاريخية والدينية والاجتماعية جميعها تؤهل النجف لكي تنجز هذا الموقع، ما لم يكن هناك ممانعة استثنائية على المستوى السياسي الذي تتحكم فيه اعتبارات وقوى خارجية ولم يعد عراقيا صرفا. رغم ذلك أرجح أن تحقق النجف ولو دائرة أولى من الاستقلال والفعل والتأثير حتى في ظل الاحتلال الاميركي للعراق نظرا للمكانة الدينية التاريخية لهذه المدينة ولحوزتها ومرجعياتها العلمية ـ الدينية.

إذن يتحدث العلامة الأمين عن دورين للنجف، الدور العلمي كمركز دراسي للطلاب الشيعة اللبنانيين وغير اللبنانيين وهذا يمكن تحقيقه بعد مرحلة من الاستقرار، والثاني هو الدور السياسي الذي يتطلب مزيدا من البحث والتعميق، لا سيما ان هذا الدور السياسي يتغذى ويغذي الدور الديني للنجف، باعتبارها المرجعية العليا للشيعة في العالم، وهي بالتالي المؤسسة المستمرة منذ حوالى الألف عام دون انقطاع. وقد لعبت أدوارا أساسية في تشكل العراق الحديث، كما تركت بصماتها على إيران أيضا.

وقد فجرت الثورة ضد الاحتلال الانكليزي العام ١٩٢٠. وقد بلغ من عنف هذه الثورة انها أبادت إحدى وحدات الجيش البريطاني

كاملا ولم يعد منها سوى طبيب هندي الأصل.

إذن كانت المرجعية تمسك بزمام الدفة السياسية، وآخر مرجع توافر له هذا الدور كان السيد محسن الحكيم الذي توفي في العام ١٩٧٠، وقد أصدر فتاوى حرم فيها الانتساب الى حزب البعث او التعامل معه، مما دفع النظام القائم آنذاك الى تصعيد وتيرة قمعه، والتي بلغت ذروتها في إعدام المرجع الشيعي محمد باقر الصدر ومعه مئات العلماء والطلاب. بعده تولى المرجع السيد أبو القاسم الخوئي المرجعية، حتى وفاته، حيث خلفه تلميذه السيد عبد الأعلى السبزاوي، وبوفاته انتهت المرجعية او المساحة الأوسع منها، ليخلفه المرجع السيد علي السيستاني الذي ينتمي الى منطقة سنية في إيران هي سيستان ويبلغ من العمر ٧٨ عاما وهو من تلاميذ الإمام الخوئي كما يذكر فحص. والمعروف أنه صاحب أفكار متقدمة على الصعيد الديني، إلا أنه لم يعهد عنه - كما يقال - أنه صاحب طروحات سياسية، خصوصا أنه مارس الانسحاب من واجهتها. ويدل حذره أنه يدرك مدى التعقيدات التي يعانيها العراق بعد سقوط النظام، ويحاول أن ينأى بنفسه عن المواقف السياسية، دون أن يمتنع عن تحديد سقف عام هو أن يحكم العراقيون عراقهم بأنفسهم.

السياسة والعباءة الدينية

هذه الصورة العامة تتطلب المزيد من الألوان والخطوط كي تكتمل. إذ بين مرجعية السيد محسن الحكيم ومرجعية السيستاني خيط من الدم الذي لم ينقطع. مئات من العلماء وطلاب الحوزة تم إخفاؤهم. الآن يتم التأكد من قتلهم. لكن بين التاريخين أيضا مسافة زمنية كبرى، هي التي تم خلالها إضعاف النجف والمرجعيات فيها. فالأحزاب التي خرجت من تحت عباءة الحكيم لتنسج على منوال الحركات السياسية السنية العربية، وتحديدا «الاخوان المسلمون» و«حزب التحرير» تعرضت لما تعرض له المراجع والمحيطون بهم من مقلدين. وكانت الحصيلة ان ذوت النجف، مقابل نجاحها في إضعاف صورة الملتحقين بالنظام من أبنائها ومحيطها. ظلت النجف إذن رغم حال التراجع في الشأن العام راسخة، بل وأشد رسوخا من رموز المؤسسة الحاكمة، أملا في الوجدان العام.

يميز الشيخ نعيم قاسم بين المرجعيات الدينية بالمعنى الشيعي، أي التي تصدر الفتاوى مثل السيستاني، الحكيم، الشيخ الفياض وبين الحركات السياسية التي تستفيد من هذه المرجعيات الدينية، لكنها لا تبلور حركة ميدانية مطلبية ذات أبعاد فكرية وسياسية بأداء حزبي، وهي التي تتمثل بالمجلس الأعلى برئاسة السيد محمد باقر الحكيم وحزب الدعوة وتيار الشهيد الصدر وغيرهم. فعمليا المرجعيات تتحدث عن قواعد عامة، بينما يدخل التنظيم في الحركة السياسية. وبهذا المعنى فإنها لا تتدخل كمرجعيات وان كانت تؤشر الى توجهات. أما قيادة الجمهور وتأطيره باتجاه أفكارها ومبادئها، فهو من مهام الحركات السياسية.

لكن المرجعية الدينية ذات الظلال السياسية ليست مرجعية واحدة على أي حال. هذا ما تثبته التجربة والممارسة الراهنة على حد سواء. يقول العلامة محمد حسن الأمين، التعدد على مستوى المرجعيات ليس ظاهرة جديدة في النجف، بل هي قديمة قدم الحوزة العلمية نفسها، ولكنها في إطار الملابسات السياسية القائمة حالياً قد تكون مؤثرة أكثر لجهة صعوبة عودة النجف الى حالتها الطبيعية السابقة، ويعلن العلّامة الأمين عن اعتقاده أن الدور التاريخي للنجف على صعيدي استقلالها وتعدديتهما سوف يكون مؤثراً في تجاوز الصعوبات السياسية الراهنة. فصراع المرجعيات إذا صح التعبير سوف يكون محكوماً في قدر منه للتراث والنهج التاريخي للنجف، بأكثر مما هو محكوم للاعتبارات السياسية الراهنة. والمرجعية في النجف في المحصلة هي مرجعية دينية بالدرجة الأساسية. لذلك ستكون الاعتبارات المتحكمة في صياغة بنية النجف اعتبارات دينية أكثر مما هي سياسية.

ما يلح عليه الأمين هو ضرورة التمييز بين مجتمع سياسي متغير ومتقلب وبين مرجعية دينية تستند الى ثوابت واعتبارات راسخة. هذا على الأقل يفسر كيف ظلت النجف تشكل المرجعية الدينية رغم تعدد المراحل السياسية وتباين الاتجاهات السياسية للشيعة أنفسهم. إذ لا بد أن تكون النجف هي مرجعية الجميع، وهي في التجربة الراهنة يجب أن تستعيد هذه الوضعية والأرجح أنها تتجه لاستعادتها، مما يجنبها أن تغدو فريقاً ويكرس موقعها مرجعية للجميع سواء كانوا من الإسلاميين أو الوطنيين أو القوميين، خصوصاً أن الاجتماع الشيعي في العراق ليس اجتماعاً تنظيمياً ذا رؤية سياسية واحدة وهم كغيرهم يشكلون تيارات سياسية وفكرية متعددة.

حوزة وعائلات

الاسماء التي تتردد كمرجعيات تتباين على صعيد النجف، التي أفادت «قم» من ضعف دورها. لكن هذا التباين قد يعبر عن تباين سياسي أكثر منه اجتهادات فقهية، لا سيما أن العراق يشهد نهوضاً لقواه، بعد مرحلة السحق الطويلة. الأسماء التي تتردد تبدأ بالسيد علي السيستاني ويليه محمد سعيد الحكيم، محمد باقر الحكيم، بشير الباكستاني، الشيخ إسحاق الفياض الأفغاني، السيد محمد بحر العلوم، السيد اسماعيل الصدر و...

مع ذلك فقد ارتفعت الشعارات تطالب بإعادة الاعتبار للحوزة في القرار السياسي الوطني. قد يكون الأمر رداً على سياسة التهميش التي مورست ضدها والتكبيل الذي منعها من لعب دورها في التعبير عن منظومة مصالح المجموع العراقي وليس الشيعي فقط.

يرى الشيخ صبحي الطفيلي أن في الحوزة تيارات سياسية، بعضها كان متباعداً عن البعض الآخر قبل انهيار النظام ودخول

الأميركيين. وقد حاولوا اللعب على هذه المسألة، للتفاعل على نحو سلبي. كل هؤلاء حوزة ونحن معهم بغض النظر عن خلافاتهم.

يعتبر السيد هاني فحص أنه في النجف لا أحد يلخص أحداً، ولا أحد يلخص النجف ونسبة تمثيلها متفاوتة. النسبة الأوسع هي للسيد السيستاني بالمعنى المرجعي على مستوى العراق وخارجه. النسبة الثانية هي للسيد محمد سعيد الحكيم، إنما داخل العراق فقط. أما المراجع الآخرون فتمثيلهم محدود جداً. التمثيل السياسي لدى السيد محمد باقر الحكيم واسع نسبياً. التمثيل المرجعي يحاول تأسيسه على الماضي، على مرجعية أبيه القديمة، مع أهلية فقهية لا تصل الى حد جعله مرجعاً مع إشكالية وجود مرجع حقيقي من آل الحكيم هو ابن شقيقته السيد محمد سعيد الحكيم. أما مقتدى الصدر فيمثل حالة شعبية تعاني من شيء من الالتباس والشعبوية. وقد تأسست هذه في فترة حصار شديد للمرجعية في النجف بعد انتفاضة العام ١٩٩١. وقد استفاد النظام من غياب الخوئي بالموت فتصدى السيد محمد الصدر للمرجعية بقرار ذاتي. وقد تغاضى عنه النظام حتى قوي هذا التيار وامتد الى قوى شعبية غير مسيسة، حاول الصدر الاستقواء بها على النظام لفرض بعض مطالبه فقتل.

إذن لا تمثيل مرجعي للسيد مقتدى الصدر وتياره، إلا بحدود ما تبقى من الموروث في السياسة والدين وهذا الموروث مرشح للتناقص بعد استعادة النجف حركتها وحيويتها. وهذا بعض ما يسمى تيار الصدر.

يتكئ كل من الأسماء الواردة الى موروث. بعض الأسماء التي صعدت سقطت سريعاً. كأن هناك ما يشبه شبهات الوراثة العائلية. آل الحكيم يعودون الى المرجع السيد محسن الحكيم صاحب الباع الطويلة في الدفاع عن النجف ودورها، وقبلاً عن العراق ككيان وطني. آل الصدر يستندون الى السيد والمرجع محمد باقر الصدر الذي حاول تجديد المرجعية وتأطيرها عبر حزب الدعوة الذي كان أحد مؤسسيه ثم لم يلبث أن انسحب منه احتياطاً لاحتمالات نجاح الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ حيث أمكن اعتقاله ثم اغتياله. حتى عبد المجيد الخوئي الذي اغتيل مؤخراً يمتلك علاقة نسبية مع الإمام الخوئي وأحد أنجاله محمد تقي الذي كان قد اغتيل هو الآخر...

أما بالنسبة للمواقف السياسة فالمعروف ان المواقف التي أعلنت من جانب المرجعيات الدينية لم تصل بعد الى مستوى الدعوة الى التمرد على الاحتلال الأميركي ـ البريطاني للعراق، علماً أنه مع بداية الحرب صدرت فتاوى دعت للجهاد ضد الكفار الأجانب ودعت الجمهور للحفاظ على المال العام وعدم اللجوء الى الأعمال الثأرية. المشايخ والعلماء في المدن والبلدات لا يتحركون دوماً بالتنسيق مع النجف بل تبعاً لملابسات معقدة يتداخل فيها العنصر العام مع العناصر المحلية. كما يقول الباحث د. رضوان السيد.

التيارات السياسية

تنتمي معظم التيارات السياسية، ان لم نقل جميعاً الى مرحلة ما قبل انهيار النظام. وهي بالترتيب المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، حزب الدعوة، أنصار الصدر، منظمة العمل الإسلامي، وحزب الله ـ العراق. الى جانب هده القوى لا بد من الإشارة الى الحزب الشيوعي العراقي والعديد من التشكيلات من نوع المؤتمر الوطني العراقي وحركة الوفاق الوطني العراقي وحركة الائتلاف، التنظيم العراقي المستقل وفصائل ومنظمات بعضها تركمانية وبعضها الآخر سنيّة الى جانب الشيعية بطبيعة الحال. ثم هناك بالطبع الشخصيات الوطنية التي عانت كما سواها من وطأة القمع وهجرت مثلها مثل الأحزاب تماماً.

يؤشر الشيخ قاسم الى اتصالات للعديد من القوى هذه مع الأميركيين، مما يعني أن القناعة الكاملة لقيادات الاتجاه الديني لم تصل بعد الى مرحلة رفض الاحتلال واعتماد أشكال النضال المتاحة. رغم ذلك يلحظ قاسم وجود قواسم مشتركة بين عموم الحركات والمرجعيات تتمثل في رفض الاحتلال الأميركي والتأكيد على حرية الشعب العراقي في اختيار نظامه والانفتاح في دائرة النظام بما يأخذ بعين الاعتبار تنوعات الشعب العراقي مع المحافظة على احترام الإسلام والإفادة منه.

يصف قاسم المواجهة الآن بأنها سياسية، أما كيف تتطور الأمور، وهل تتجه أميركا نحو محاصرتها وضربها، فهذه أسئلة مفتوحة على اجابات متنوعة فلا يمكن إذن استباق نتيجة الصراع سلفاً لتقول إنه سيكون لمصلحة أميركا أو المعارضة. ما نستطيع التأكيد عليه أن حجم الاحتلال سيكون خطراً أو مقلقاً للمعارضة الى درجة سيجعلها تواصل دورها بما يتاح لها من إمكانات وبما تسعى لتوفيره، ولا يؤمل أن يتولى أحد غير العراقيين هذا الدور. فالنجاح مرتبط بمستوى حركتهم الداخلية، وكل العوامل الأخرى قد تكون عوامل مساعدة.

المجلس والحزب

مشكلة المجلس الاعلى للثورة الاسلامية الكبرى في علاقته بطرفي معادلة متناقضين، أي ايران من جهة والولايات المتحدة الاميركية من جهة ثانية، حتى انه يظهر احيانا وكأنه على حد السيف... مع مشكلة إضافية تتمثل بعلاقته المتوترة بالمرجعية في النجف لكنه يظل القوة الاساسية من خلال فيلق بدر الذي ربي في ايران وعاد منها مؤخراً مع رمزه الابرز السيد محمد باقر الحكيم وهو الابن الرابع للمرجع السيد محسن الحكيم. وقد تتلمذ الحكيم على يد شقيقه يوسف وعلى المفكر الاسلامي محمد باقر الصدر لمدة تصل الى حوالى عشرين عاما. ومن المعروف عنه انه كان من اوائل المنضوين في اطار حزب الدعوة الاسلامي، لكنه انسحب منه في فترة مبكرة بايعاز من والده الذي وجد ضرورة الفصل بين المرجعية والحزب. وتتحدد عناصر قوة هذا المجلس في شبكة علاقاته الواسعة. فإضافة الى ايران كممول لرئاسته وعناصره قبل العودة، يملك علاقات مع مصر والمملكة العربية السعودية والكويت والامارات كما يقول السيد هاني فحص.

الان عدة معضلات تتفاعل داخله. فالقوى السياسية التي شاركت في تأسيسه لم تلبث ان انسحبت منه كحزب الدعوة ومنظمة العمل وجماعة العلماء و... هذا جانب، الان الجانب السياسي هو الابرز، حتى ان د. رضوان السيد يعتبر ان مشكلته الكبرى، الى جانب علاقته المتوترة بالمرجعية هي تبعيته لايران وميله للتفاعل مع اميركا والمعارضة، علماً انه حضر بعض مؤتمراتها وقاطع البعض الآخر. هذا جانب. الجانب الاهم هو موقفه من الاميركيين، فقد دعا الحكيم بداية الى الحياد بين النظام والاميركيين. بل واكثر من ذلك كان على جهوزية للمشاركة في القتال ضد الجيش العراقي لولا «النصائح» الايرانية. ويعتبر الحكيم من ابرز الشخصيات المتعاونة مع ايران، علما ان الإمام الخميني كان قد استقبله بحفاوة. حيث اقام في ايران منذ العام ١٩٨٠ بعد مرحلة اقامة قصيرة في سوريا.

أما حزب الدعوة الذي يعتبر الاعرق لجهة التأسيس، فقد عرف منذ اغتيال المرجع محمد باقر الصدر سلسلة من الانشقاقات التي مزقته. وقد تأثر تنظيمياً بكل من الاخوان وحزب التحرير والحزب الشيوعي. ويعتبر تأسيس هذا الحزب تطوراً هاماً بالقياس الى التشكيلات التي سبقت تأسيسه في العام ١٩٥٧. ويذكر ان في عداد مؤسسيه من اللبنانيين السيد محمد حسين فضل الله والشيخ محمد مهدي شمس الدين، كما يذكر البعض الإمام موسى الصدر، واللافت ان المرجع محمد باقر الصدر الذي دفع ثمن وضعه لدستور الجمهورية في ايران وتشريعه ولاية الفقيه لم يتمكن من تسويق الولاية هذه لا في حياته ولا بعد موته داخل هذا الحزب. المهم ان هذا الموضوع فتح على الانشقاقات في صفوفه. وهو الآن عبارة عن احزاب ثلاثة او اربعة. وقد فقد الالوف من كوادره وعناصره قتلا ونفيا خلال الفترة السابقة. واللافت ان بعض اقسام هذا الحزب أيدت الغزو الاميركي، فيما ظلت اقسام منه على معارضتها للجميع: ايران، اميركا، والمرجعية النجفية... كما يقول السيد الذي يلحظ تطوراً في طروحاته عن المراحل السابقة.

يعاني هذا الحزب مثله مثل سواه من مشكلات كثيرة، اذ كما يذكر فحص فإن تمثيله المرجعي شبه معدوم، فهو في هذا المجال حركة سياسية ـ دينية لا تستطيع الوقوف في وجه المرجعية، ولانه تاريخي فقد نال النصيب الاكبر من القمع، فخسر العدد الاكبر من قواعده بالقتل والاحباط والاستنكاف السياسي وعدم تجديد بنيته التنظيمية. لقد بات الآن تنظيما هرما. وقد تعرض لانشقاقات الى حد انه عبارة عن ثلاثة محاور متنافسة ومتصارعة، لكنه قادر بحكمة وتأن من لملمة نفسه. حتى الآن لم يظهر منه أي سلوك متعجل يمكن ان يورثه أوهاما وخسائر.

هوة وداخل وخارج

يعتبر الشيخ نعيم قاسم ان البارز في قوى المعارضة، القوى الدينية بشكل اساسي، وهي ممثلة بالمجلس الاعلى وحزب الدعوة وتيار الصدر والحزب الاسلامي وجمعية العلماء لدى السنة. إضافة الى هذه هناك قوى علمانية تتجمع حول شخصيات اكثر منها تنظيمات وحركات مثل الشلبي والباجه جي وعلاوي وغيرهم. وهؤلاء ليس لديهم حضور كبير في حركة الاعتراض الميداني، باعتبار ان المشاعر الدينية ما زالت الاكثر حضوراً في التعبير عن تشكيلات القوى السياسية والحزبية. لا بد من فترة زمنية تحتاج الى اشهر لتتبلور هذه القوى في الاتجاهين الديني والعلماني على نحو أوضح.

يؤشر الشيخ صبحي الطفيلي الى ان ما يجمع بين التيارات السياسية الشيعية انها من مرحلة ما قبل سقوط حكم البعث وجل قياداتها كانت مهاجرة من العراق قبل ربع قرن او اكثر. اذن هناك فجوة واسعة بينها وبين الواقع المعيش داخلياً وهذا ما سيشكل ازمة مع الناس. اغلب هذه التيارات تتحدث كأن الاميركيين راحلون، ولم تستحضر بعد فكرة انهم باقون وعلى اساس هذه الفكرة كيف ستتصرف. يتحدثون عن حصص ومشاركة... الامر يحتاج الى اكثر من شهور قليلة للعودة الى التوازن في الرؤية... أعتقد ان التفكير في بناء دولة في ظل الاحتلال الاميركي يجعل منها في خدمته. ينبغي صب الجهد على طرد الاميركي اولا وبعدها يبني العراقيون دولتهم. السيد هاني فحص يرى الامر على نحو معاكس بالكامل تقريبا: ليس العراق اول دولة تتكون في ظل الاحتلال، خصوصا بعد ان اعلن الاميركيون انهم محتلون. دولنا الوطنية تكونت في ظل الانتداب. وهذا لم يمنع من ان تكون اداة للاستقلال...

يختصر النائب محمد رعد المعادلة على النحو التالي: من موقع معرفتنا بواقع الشعب العراقي وتحسسه الوطني والقومي والديني، وانطلاقا من فهمنا لأهمية الساحة العراقية وتعقيداتها نميل الى الاعتقاد ان الاميركيين قد ابتلعوا كتلة شوك ستتسبب لهم بالكثير من الآلام...

لا مشروع دولة شيعية جنوب العراق وإيران والخليج في دائرة الخطر

إيران في قلب العاصفة، مثلها مثل بعض دول الجزيرة العربية. تعتمد ايران اليوم سياسة الحذر والتروّي. وهذه عبر عنها الرئيس الايراني محمد خاتمي خلال زيارته الاخيرة الى لبنان بأجلى الصور. الامر ليس من قبيل «التقية» بالتحديد. الثور الاميركي لم يهدئ من هياجه احتلال العراق. يومياً هناك رسائل موجهة الى ايران ومعها سوريا ولبنان.

وإيران في ايران مثلها في لبنان. الذي شهد تحولا نحوها، لم يحدث صدفة او بفعل قوة سياسية هي حزب الله، الذي استمد منها العصب و«العصبية» و«المقدرات». سبق ذلك انتصار الثورة وإزاحة الشاه بما يشبه الانفجار. كان من البديهي ان يتأثر شيعة لبنان به، وما أطلقه من طروحات ومواقف، لا سيما في ذروة الحماسة والتوهج. على الأقل اتضح ان حدثا من هذا النوع ليس قضية يمكن ان تختزل او تفصل على مقاس الطائفة، رغم اهميته لها.

الأهم ان هذا الحدث قد ترافق تماما مع تراجع العامل العراقي في السياسة والاجتماع اللبناني. حزب البعث الموالي له استنفد صعوده مثله مثل بقية التنظيمات التي انضوت في اطار العمل القومي والوطني. بعض كوادره تعرضت للتصفية او التهجير. الموجة الدينية التي اطلقها الانتصار الايراني اصابته كما اصابت سواه. والحصيلة ان المفارقة كانت جلية. صعود ايران مقابل هبوط العراق. هذه المعادلة حكمت «لبنان الشيعي» منذ الثمانينات وحتى اليوم.

خلال زيارة خاتمي تبارى كل من حزب الله وحركة أمل في حشد الانصار والمحازبين لاستقباله وسماعه. يمكن قراءة ما بين سطور المحتشدين. ايران باتت المتكأ الذي يشعر معه شيعة لبنان انهم مثلهم مثل سواهم من الطوائف اصبحت لهم مرجعيتهم. دون ان تعني الكلمة الاخيرة ما تعنيه في الادبيات الشيعية، اي المرجعية الدينية، المقصود هنا المرجعية السياسية. نمت قم على حساب النجف تبعا لمعادلة الصعود والهبوط. المعطى الايراني دخل قويا من مختلف الابواب وعلى حساب العراقي بالطبع. لا يعني ذلك ان النجف وقم موحدتا المرجعية الدينية او السياسية. هناك دوما صراعات وتيارات على كل المستويات في المدينتين والحوزتين. كل منهما له مذاقه الخاص ونكهته المميزة. لكن ما لا بد من التأكيد عليه ان شيعة لبنان يتأثرون سلبا وايجابا اكثر مما يؤثرون، في العراق او إيران. هم اصلا لا يملكون اسباب التأثير الا في حدود متواضعة جدا. اكثر من ذلك لم يكن للشيعة اللبنانيين دور ملموس ـ مع استثناءات فردية ـ في اندلاع الثورة الايرانية الا في حدود الاعلام والاحتضان، كما لم يكن لهم دور في انتفاضة العراق الجنوبي عام ١٩٩١، مثلما ليس لهم دور الآن في ما يشهده العراق. كانت الكتلة الشيعية دوما خارج الاستقطاب بين العراقي والايراني. اهمية هذا كله انه وإن كان يفتح القنوات الموصلة، الا انه يعني التفاعل. كل ساحة من ساحات الوجود الشيعي لها خصوصيتها وملابسات اوضاعها، وبالتالي ليس الشيعة كتلة تتحرك بناء على معطى واحد، بل انطلاقا من معطيات يغلب عليها الداخلي ـ الاجتماعي والسياسي على الايديولوجي والفكري، لا سيما مع ملابسات المرجعيات المعروفة. ولنبدأ من ايران في رصد التحولات. علما انه لا يمكن الفصل بينها وبين دول الخليج العربي التي يفصلها عنها الخليج الذي تهتز مياهه بفعل الاساطيل والبوارج، ناهيك بالقواعد البرية.

على مختلف الصعد تملك ايران امتيازا شيعيا خاصا. هي النظام الوحيد في العالم الذي يعلن التزام المذهب الجعفري ـ الاثني عشري وهو السائد في لبنان. وتمتلك عمقا مذهبيا يعود الى القرن الخامس عشر الميلادي، اما العمق التاريخي والحضاري فعمره ألوف السنين وليس اقل من ذلك.

التطويق والمواقع

المعطيات السكانية بالغة الأهمية، فالرصيد البشري للدولة الايرانية ليس اقل من سبعين مليون نسمة يمثلون عصب الشيعة في العالم ومركز ثقلهم، مع وجود أقليات سنية ومسيحية ويهودية و.. هذه الدولة تملك مقومات اقتصادية نفطية وزراعية وصناعية لا يستهان بها. الموقع الاقليمي على مياه الخليج يجعلها على الضفة المقابلة للمنطقة العربية ويفتح امامها البحر على آسيا والعالم. هي في قلب منطقة الشرق الاوسط وعلى حافة العالم العربي. إسلاميتها تتيح لها التوجه عربيا بدل الانكفاء الآسيوي الذي تحول دونه الجبال والصحاري الجغرافية والسياسية والتاريخية.

إيران هذه «مهوى أفئدة الشيعة» بما تعبر عنه من تراث وحاضر معا. لم يكن مثل هذا الشعور قائما في مرحلة عهد الشاه محمد بهلوي، لكنه واقع منذ انتصار الثورة الاسلامية العام ١٩٧٩. لكن ايران هذه مطوقة اميركيا على نحو كامل ودون فجوة واحدة في الجدار المفروض عليها. قبل الاحتلال الاميركي لكل من العراق وقبله افغانستان كانت ذاكرة حرب الخليج الاولى مع صدام حسين حائلا دون هذا المدى. لذلك رسخت علاقاتها سورياً ولبنانياً وطبعتها خليجيا، بدءا بالملكة وصولا الى البحرين. الآن بلغت الامور مرحلة الخطر الفعلي: الاحتلال الاميركي في العراق هو في غربي ايران عمليا. القوات الاميركية مرابطة في السعودية والبحرين وقطر ومياه الخليج وفي قواعد متناثرة في المحيط الهندي. شمالا هي ايضا في افغانستان وتركيا..

لكن الموضوع المطروح يتجاوز ايران بطبيعة الحال. الشيعة لا يختزلون في ايران او العراق اجتماعهم البشري والسياسي. في المملكة العربية السعودية هناك اقلية شيعية وسط المحيط الوهابي السني، يتركزون في المنطقة الشرقية، منطقة آبار النفط. مؤخرا وجه ١٥٠ من علماء ومثقفي وفاعليات الشيعة عريضة الى الامير عبدالله ولي عهد المملكة العربية السعودية يطلبون فيها اصلاح النظام والمؤسسة الحاكمة. لم يكن هناك استقبال متوتر للعريضة ـ البيان. في البحرين تجري انتخابات ينجح فيها الكثير من المرشحين الشيعة، وتبدأ مرحلة دستورية.

وما تعانيه ايران ليس فريدا في بابه، فالأنظمة العربية، بما فيها تلك التي كانت أكثر «وفاء وولاء وعلاقة تاريخية» مع اميركا تقدح زناد فكرها في كيفية التعاطي مع المتغيرات.. انفجارات كل من الرياض والمغرب طرحت الكثير من الاسئلة ليس فقط حول اداء المنفذين، بل حول البنية والبنى القائمة برمتها.

لا.. لا ليس هناك من استهداف مخصوص للشيعة يقول رئيس مؤسسات الصدر ـ المفتي السيد علي الامين. استهداف الشيعة هو جزء لا يتجزأ مما يستهدف الشعب العربي من المحيط الى الخليج. مما يستهدف الدول والشعوب الاسلامية في كل مكان. يجزم المفتي الامين ان الشيعة لا يملكون تطلعات خاصة بهم سوى تطلعات الامة العربية نحو حريتها واستقلال ارادتها ورفض كل مشاريع التجزئة والتقسيم في العالم. من هذا المنطلق نرفض التهديدات الاميركية وندعو لمقاومة الاحتلالين الاميركي للعراق والاسرائيلي لفلسطين.

الثورة والدولة

لا تتصرف ايران تجاه التحولات بتسرع، بل بكثير من الحذر. وايران تتجه وطنيا بعد رحلة تغلب خلالها الطابع الثوري ـ الاسلامي. هناك الآن ما يشبه المعادلة بين ايران الثورة وايران الدولة على حد سواء. وهذا ما لا يتنافى مع الاسلام شريعة او عقيدة كما يقول السيد هاني فحص الذي يفسر علاقة ايران بالأنظمة العربية بعد حرب الخليج دون القطع مع الحركات الاسلامية. ومثل هذا وجد تجلياته في افغانستان، ومن خلال الرضا الايراني عما يجري داخل السعودية بين الشيعة وسلطاتها وما يجري في البحرين، والحياد الايراني في معركة العراق. وهذا يشرح المقولات التي أطلقها خاتمي في لبنان معبرا عن اعجابه العميق بالتجربة اللبنانية، الملتئمة على مشروع وطني.. والانفتاح على حركة «أمل».. هذا كله يضعه الايرانيون تحت سقف المصلحة الوطنية الايرانية. وهو ما ينعكس على موقفهم من القضية والوضع الفلسطينيين، بدليل انهم لا يعاندون الواقع، لم يسحبوا اعترافهم بالقرارات الدولية ويقولون انهم يقبلون بما يقبل به الفلسطينيون دون تغيير قناعاتهم، ويدركون الآن وبوضوح ان فلسطين تختلف عن جنوب لبنان.

يبدو من خلال حديث فحص ان «المشروع الأممي الاسلامي» الايراني قد تجاوزته مصالح الدولة الايرانية، لكن ان يخبو شعار من هذا النوع، لا يكفي للاطمئنان الى الوضع الداخلي الايراني خصوصا والشيعي عموما. العلامة محمد حسن الأمين ينفي وجود مشروع شيعي في العراق وعلى امتداد مواقع الاجتماع الشيعي. ينطبق هذا على لبنان، كما على المملكة العربية، وكذلك على سواهما. بالطبع هناك بعض الملابسات اللبنانية بين كل من العراق وايران. يقول الأمين: سوف تكون هناك ملابسات راهنة بعد الاحتلال الاميركي للعراق، اذ انه سيكون عاملا مؤثرا بالتأكيد على التوجه الكامل من قبل الشيعة اللبنانيين نحو النجف، ولكن ذلك مرتبط بالتطورات المقبلة، حيث النجف سيشكل نقطة استقطاب في مقابل مدينة قم، دون ان يعني ذلك ان الشيعة سيختارون النجف كتعبير عن موقف سلبي من ايران. بل يمكن القول ـ يتابع ـ ان ايران تستطيع ان تستقطب ولاء الشيعة واهتمامهم على المستوى الديني ـ السياسي، فيما النجف ستتكرس كجامعة دينية اساسية في العالم الاسلامي.

إيران والعراق «الإسلامي»

هذا الجانب الذي يؤشر اليه العلامة الامين لا يمنع من العودة الى جادة البحث في الموضوع الايراني الذي يندلع داخله الصراع بين «محافظين» و«اصلاحيين» ويصل في بعض اللحظات الى حدود الاشتباك دون ان يبلغه. علما ان ضغوطات الخارج تتفاعل مع وضع الداخل من المعطى الايراني، الذي يبدو منقسما على نفسه، لكن هل هذا يعبر عن توجهين ازاء احداث كبرى كتلك التي تعيشها المنطقة ونراه على مسرحها؟

في تقديري أن التوجه الإيراني واحد، ولكن التعبير عنه يختلف بين المحافظين والإصلاحيين. والاختلاف ناشئ من طبيعة الصراع الداخلي. يقول السيد فحص، ويشرح: الاصلاحيون تعبيرهم أوضح لأن خطابهم علني ويجاهرون بما هو أكثر. وأحد الأسباب التي تجعل المحافظين والاصلاحيين يلتقون عند نقطة الاعتدال أو الواقعية في التعاطي مع القضايا الكثيرة الملحة، من بينها طبعاً قضيتا العراق وفلسطين ان الشعب الإيراني بات يعبر عن ميله للاستقالة من الهموم الكبرى خارج وطنه، لأنه يريد

للثورة والدولة أن تحقق وعودها التي لم تتحقق على صعيد التنمية خصوصاً.

هذا التكثيف الذي يقدمه فحص يفرض العودة الى الخارطة. فالمعطى الأميركي في العراق قائم، وإيران هي الأقرب نظراً للعلاقات التاريخية التي لا يمكن أن تؤرخ نظراً لجذورها البعيدة. إضافة الى جوانب التداخل العقائدية والثقافية والمصالح المتبادلة. كل هذا يدفع الى سؤال جوهري حول الطموح الإيراني بإقامة دولة إسلامية في العراق.

لكن هذا كله لا يمنع من استمرار طرح السؤال حول دولة إسلامية في العراق بدعم إيراني خصوصاً إذا ما تذكرنا الحلم القديم بتصدير الثورة واكتساح المنطقة مما كان في صلب حرب الخليج الأولى؟

يرد فحص ان الدولة الإسلامية في العراق ممنوعة، لأن هذا يعني ببساطة دولة شيعية. يمكن أن يقبل ذلك الأميركيون، ولكن هذا تترتب عليه معادلات إقليمية كبرى. إذ إن هذا الكيان قد يصبح قناة لايران على المنطقة كلها من الخليج وحتى الشرق الأوسط، الدولة الكردية من يستطيع أن يقول لا لها. مصلحة تركيا وحدها لا تقرر، إذاً عندها يملكون المبرر السياسي الكامل لإنشائها. لكن الموضوع العراقي شأن آخر. هذا يثير سؤالاً حقيقياً حول مصلحة إيران في قيام دولة شيعية بالعراق بالمعنى التام الصافي. هذا يعني محواً لكل الطروحات الإيرانية ـ الإسلامية وللتقارب العربي ـ الإيراني. محمد باقر الحكيم تأخر بقرار ايراني في العودة، ثم جاء بقرار منها، وقال لا لدولة إسلامية ونعم لدولة ديموقراطية للجميع. وذكر في من ذكر المسيحيين والصابئة. وتراجع عن موقفه السياسي الى موقعه الديني ليجعل أخاه في الموقع السياسي الذي لا يفصّل عليه بحسب حجمه وموقعه مشروع إسلامي. وصدر موقف من المرجعية العليا ممثلة بالسيد السيستاني بتأييد توجه محمد باقر الحكيم هذا. طرح الدولة الإسلامية في العراق يتردد على لسان تيار مقتدى الصدر، وهذا التيار لا يعرف ماذا يطرح ويعاني مراهقة سياسية واضحة. مرة يقول دولة إسلامية ومرة يقول غيرها. واعتقد ان مصير هذا التيار الاستيعاب عند استعادة الحوزة عافيتها وحركيتها.

الخليج على صفيح ساخن

يفصح مثل هذا الكلام عن موضوع أساسي هو أن إيران العام ٢٠٠٣ لم تعد هي إيران العام ١٩٧٩. أربعة وعشرون عاماً كانت كافية لها لتجاوز مرحلة «التفجر الثوري» ونقل الثورة الى كل الأمكنة التي تستطيع بلوغها ان لم يكن بالفعل فبالقول والتأثير.

إذاً لا شيء في العراق يمكن إطلاق تسمية الدولة الإسلامية عليه كخيار إيراني. مقابل تيار الصدر الذي يطلق بعض الأجنحة فيه مثل هذه المقولة، هناك أجنحة أخرى لا ترفض الدولة الإسلامية فقط، بل ولاية الفقيه أصلاً وبالأساس. تتحدث عن ديموقراطية شعبية وشورى وأنظمة حكم منتخبة ومؤسسات قائمة ومستقلة عن بعضها البعض، ثم ان هذا التيار لا يعبر إلا عن توافق جزئي مع بعض التيارات الإيرانية، وليس مع إيران الدولة بجناحيها الإصلاحي والمتشدد.

رغم غياب هذا المشروع تظل إيران واحدة من مراكز الثقل في المنطقة. هي الآن أكثر رسوخاً في مواقعها الإقليمية من ذي قبل. لم يعد لديها طموح في لعب دور «ثوري الخليج» بدلاً عن شرطيه الذي حاوله الشاه. وتملك الآن شبكة من العلاقات والمصالح مع دوله. لا سيما والجميع في صميم الاعصار الأميركي. ايران هي واحدة من الدول الكبرى في المنطقة وهناك سواها ممن له وزنه. مصادرة وزن العراق لا يلغيه كشعب، ثم ماذا عن المملكة العربية السعودية. تحدث باول مراراً عن إعادة رسم خارطة المنطقة. لم يقرن ذلك مع تحديد يتبين منه المقصود. هل هذه الدولة أو تلك. هناك من يفسر ذكره بالجغرافيا الكيانية، لكن الكثير يقصرونه على الأنظمة الحاكمة، المطالبة بالتكيف مع الخطة الأميركية في ذروة اندفاعها. الكلام الأميركي الذي اتجه نحو السعودية جاء قبل الحادي عشر من أيلول على شكل تباينات، وبعدها راجت مقولات أميركية تتناول المملكة كمكان «لتفقيس» الجماعات الجهادية. ثم ربط ذلك بالبنية السياسية والعقائدية للمملكة، وجرت مطالبات بطرق سرية حيناً وعلنية حيناً آخر بضرورة احداث «نفضة» شاملة تتلاء م مع حداثة مقررة بعد ان بات الاستمرار بالفكر كما كان عليه مهدداً لمصالح حليفتها الاعظم. المسؤولون السعوديون يبذلون الكثير لابعاد الكأس المرة عن شفاههم. لكن نبوءات الرئيس بوش الابن وفريقه من المسيحيين المتصهينين الجدد لا تكل يطرق على هذا المنحى، في رسالة «تحديث» العالم، وهو واجب على الحليف قبل العدو. في مثل هذا المناخ جاءت انفجارات الرياض لتطرح أسئلة حول الجهة المستفيدة من هذه الضربات؟ هل التيارات الأصولية الإسلامية أم الأميركية؟ للمرة الأولى يحدث ذلك.

أرباح وخسائر

والشيعة في قلب الحدث، ليس فقط لوزنهم العراقي بل ولحضورهم الخليجي أيضاً. لكنهم في قلب الحدث من دون مشروع خاص بهم. وعليه لا يتصور النائب محمد رعد أن يصل جنون العظمة بالإدارة الأميركية الى حدود التلاعب بكيانات المنطقة، باعتبار أن ذلك يفتح على تطورات لا قبل لأحد بالسيطرة عليها. يؤكد بالمقابل المسعى الأميركي نحو انجاز خارطة جديدة للانظمة داخل الكيانات القائمة وفق تصور جديد لتكييفها مع الاستراتيجية والمصالح الاميركية. وهذا ما يتذمر منه بعض حكام المنطقة الذين هم على علاقة تاريخية ايجابية مع الادارة الاميركية.

يتوقف رعد ايضا عند ظاهرة العنف التي تلاحقها الادارة الاميركية، وهي صادرة عن جماعات لها وزنها في الشارع. لكن الوزن الشارعي هذا لا يعني انها تملك رؤية سياسية منهجية تلحظ الارباح والخسائر. يؤكد رعد ان هذه الجماعات تستند الى نصوص يتم اسقاطها على الواقع الغربي عموماً والاميركي خصوصاً، ودون حساب لموازين القوى ولواقع التحولات والابعاد وتأثيراتها على الأمة بشكل عام. يتذكر رعد ان الادارة الاميركية سبق وفتحت جسور علاقات مع هذه الجماعات وافادت منها في مناهضة الاتحاد

السوفياتي، لكنها الآن توظف عنوان هؤلاء لتصادر حق اي جماعة او شعب في ممارسة الكفاح المسلح ضد الغزو والاحتلال لأراضيه.

العنف والديموقراطية

لا يمكن لعاقل ان يرى الرفض للوجود الاميركي على مساحة المنطقة بمثابة توجه اصولي سني، هناك تنام في هذا السياق. في الوقت ذاته هناك رفض متصاعد لممارسات هذه الجماعات. للمرة الاولى لا يقتصر الامر على النقد الاعلامي والسياسي، بل يتجاوزه في المغرب الى التظاهر في الشارع. لكن هل يكون احتلال العراق بديلاً اميركيا محتملا عن شبكة القواعد الاميركية في الخليج والتي «تربح» اميركا من ورائها يوميا اعداء جدداً؟. هل تريد من احتلاله التموضع على ارض العراق لسحب الذريعة من ايدي الذين يستغلون ذلك لتبيان تناقض القواعد مع احاديث الرسول في اعتبار الجزيرة العربية «ديار الاسلام» لا مكان فيها لـ«الكفرة» الاميركيين؟

الشيخ صبحي الطفيلي لا ينفي مثل هذه الاحتمالات. الا انه يرى ان الاميركيين يحاولون التأسيس لمرحلة جديدة يحاول بعض الحكام العرب ترجمتها الى تطورات سياسية حميدة. لكن الامر ليس كذلك، لان هذه المنطقة رغم حال التجزؤ عرفت اقدم الحضارات البشرية، وهي تضم الآن مصر والعراق وإيران وتركيا والسعودية وهي مؤهلة للعب دور دولي نتيجة موقعها الجغرافي. في حال فقدت اميركا مواقعها هنا، معنى ذلك انها ستعود جزيرة نائية. هذا التفكير الاميركي له تراثه الأبعد. من هنا كانت الرغبة في زرع الجسم الاسرائيلي الغريب في فلسطين والاصرار الاميركي خصوصاً والغربي عموماً على منع العافية عن المنطقة بأسرها. منع العافية هذا يتم بطرق متعددة منها الانظمة العسكرية التي وجدت ومعها منظوماتها الأمنية لقمع الشعوب العربية. الاميركيون يتحدثون الآن عن الديموقراطية وهم ضدها لانها تتناقض مع مصالحهم. اذ ان اي فرصة لتسيير الشعوب العربية لشؤونها بنفسها تهدد مشروع الهيمنة وشبكة المصالح. حسب نظري - ينهي الطفيلي - ان الغرب يحاول تدمير ما يمكن ان يكون وسيلة او مادة تستخدمها شعوبنا للنهوض وإثبات الوجود والعيش بكرامة. اميركا حريصة على ابقاء ما سرقته ونهبته في ايديها ومضاعفته، وأن تبقى شعوبنا في سجون محكمة الاغلاق.

يعتبر الناطق بلسان حركة أمل ان ما تغير في السياسة الاميركية هو الطريقة التي يضع فيها الاستعمار يده على مقدرات الامة. كل ما تفعله ليس سوى الحصول على عناصر الزخم لتبرير الحروب والسيطرة على الموارد وانتاج الملائم من الانظمة والتراكيب. وعليه فإن المطلوب هو ايجاد افضل الوسائل لتطبيع العلاقات بين العرب واميركا وانشاء وسائل وقنوات اتصال معها، كما تفعل اسرائيل. ما المانع اذا ما وضعنا بعض الامكانات في مكانها الصحيح وهي متوافرة. الوقت لا يزال متوافراً، والمؤامرة واضحة، وهي تتطلب وقفة جدية حفاظا، ليس على بلد بعينه، بل على الامة جمعاء... يشترط الناطق قبل كل ذلك تحصين المجتمعات العربية بالانفتاح والديموقراطية. وأن يترافق ذلك مع احياء التضامن العربي والاسلامي كي يصبح اكثر فاعلية وبمستوى دقة المرحلة وتحدياتها. بما يفرضه من تحديث الجامعة العربية لمواكبة التطورات.

يعمم ابراهيم شمس الدين النقد الذي يقدمه الى الكيانات العربية والاسلامية القائمة، لأنها غارقة في مشاكلها الداخلية عن ادراك المتغيرات وكيفية التعاطي معها. وهي انظمة غير ديموقراطية، وباتت الآن غير صالحة. ربما كانت صالحة في ظل تعاقدات سابقة. اما الآن فلم تعد كذلك. هذه الانظمة سواء كانت ملكية او امارات او جمهوريات تعاني من مشكلة التعبير عن نفسها والنمو الداخلي والتفاعل مع العالم. الآن كل يفكر في دائرته الصغرى، فيما الضعف والهشاشة يصلان الى الحد الاقصى. المطلوب معالجة المشكلات بجرأة، وهذا يفترض اولا تحديدها. لدينا كم متراكم لا يجد حلولا. ادعو الى تدرج وأشكال متتابعة من الديموقراطية قابلة للتطور باستمرار وليس انقلاباً. وإلا لا منجاة لنا مما يخطط ويرسم لنا.

لا يشك النائب محمد رعد ان معظم الانظمة في العالم العربي تكاد تكون نتاجا لفرص انقلابية، مدعومة ومتوافقة مع القوى الخارجية لتمرير مصالحها بمعزل عن مراقبة الجمهور. لذلك نرى ان اكثر هذه الانظمة تكاد تكون مفروضة وغير ديموقراطية، لكن للمهمات الجليلة التي تقدمها فهي محمية ومصانة من اي تحرك جماهيري اعتراضي، كما ان سياساتها تبدو مغطاة لجهة ممارساتها القمعية والديكتاتورية ضد هذه الجماهير ويستمر الامر كذلك الى حين استنفاد اغراضها في خدمة المصالح الاجنبية. يختم رعد.

لكن الشيخ صبحي الطفيلي يؤكد من جانبه ان صورة صدام ستكون حاضرة امام عيني اي حاكم عربي، مما يعني ان الاميركيين قد يعيدون النظر بالجامعة العربية والخرائط والكيانات السياسية. ربما يقررون تشكيل كيانات بحجم قرى وطوائف صغيرة او اي حجم يقررونه... هذا ما اتوقعه، الا اذا حدثت مقاومة في العراق، عندها يمكن ان تخرج الامة من السجن الكبير وتحطم أغلالها وتسترد عافيتها. يتوجه الطفيلي الى كل المتمولين من عراقيين وغيرهم، لمساعدة الشعب العراقي على تفجير ثورته في وجه الاميركيين، هذا هو واجبهم الشرعي... وليعلموا ان النتائج السيئة لاي ثورة ستكون متواضعة بالمقياس الى الكوارث التي يقود إليها استقرار هذا الاحتلال. النتائج السلبية اكبر بكثير من مجرد مناوأة ايران وسوريا وتمرير خريطة الطريق في فلسطين.

البقاعي المحقق الكركي يشيِّع إيران الصفوية

يعتبر علي بن الحسين بن عبد العالي الكركي نسبة إلى قرية كرك نوح القريبة من زحلة مؤسس المذهب الشيعي الجعفري في إيران خلال حكم الشاه اسماعيل. ولد الكركي في العام ٨٧٠ ـ ٩٤٠هـ/ ١٤٦٥ـ١٥٣٣م. في الكرك وكانت من المراكز العلمية المعروفة في البقاع اضافة الى مشغرة. يصفه شيخه ابن خاتون في اجازته له بأنه «الشيخ الفاضل والعالِم والرئيس الكامل» وهي صفات غير عادية. بعد اجازته انطلق في رحلة علمية زار خلالها دمشق. بيت المقدس، مكة ومصر وأخذ عن فقهائها ومحدثيها السنة. وكان فقهاء جبل عامل قد درجوا على ذلك حتى انقطاعهم بعد مقتل الشهيد الثاني زين الدين بن علي عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م. بعد عودته التقى شيخه الأكبر علي بن هلال الجزائري وأخذ عنه المنطق والاصول والفقه، وكان الابعد تأثيراً عليه. ثم غادر الى النجف الاشرف وكربلاء والحلة. ولم يلبث ان ظهر في هراة التي كان الشاه اسماعيل الصفوي قد افتتحها. وباتت الهضبة الايرانية تحت سيطرته، بعد ان اخضع الامراء والاقطاعيين. وقد امر الشاه بقتل مجموعة من فقهاء السنة في هراة ومن بينهم شيخ الاسلام احمد بن يحيى الشهير بأبي احمد الحفيد نسبة الى كونه حفيد البلاغي الشهير سعد الدين التفتازاني. وقد اتصل الكركي بالشاه منكراً فعلته، مغلباً السيف على الحوار.

امضى الكركي ١٢ عاماً في ايران تدفق خلالها العلماء من جبل عامل عليها مما ساهم في تبدل وجه ايران الثقافي والعقائدي تبدلاً كاملاً. وقد عاد الكركي الى النجف قبل وفاة الشاه اسماعيل بعامين وأمضى فيها ثلاث سنوات، ويبدو ان ذلك بسبب خلافات داخلية على دوره. لكن اعتلاء طهماسب ابن اسماعيل العرش اعاده، وأصدر فرمانا ملكياً يأمر فيه بطاعة الشيخ ويحذر من مخالفته تحذيراً شديداً. ويصف فيه الكركي بأنه «نائب الائمة المعصومين» وهي المرة الاولى التي تدخل مثل هذه العبارة النصوص الرسمية.

وقد بلغ خلال هذه الفترة الذروة على صعيد السلطة والنفوذ حتى لقب بأنه «ملك ايران وأهلها». وكان يشرع القوانين ويصدرها ويولي كبار المسؤولين ويعزلهم. وقد امتدت هذه الفترة حوالى ثماني سنوات. وقد اثارت عليه سلطته الواسعة الامراء والنافذين الذين تحركوا في وجهه يتقدمهم الشيخ ابراهيم بن سليمان العطيفي الذي تتلمذ على يديه وتخصص للرد على استاذه وما صدر عنه من آراء واجتهادات. ثم لم تلبث ان جرت محاولة لاغتياله، مما دعا الشاه طهماسب الى التخوف من انفجار الصراع فلجأ الى ابعاده الى العراق. ثم ما لبث ان اصدر فرمانا في العام ٩٣٩هـ/ ١٥٣٣ بشأنه وصفه فيه بـ«انه اعظم علماء العصر ونائب الإمام» مكرراً الصفة السابقة، وطلب من اركان الدولة الاقتداء به وطاعته. لكن الاقدار لم تمهل الكركي للعودة الى ايران فتوفي في النجف في العام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م، ويقال في بعض الروايات انه مات مسموماً، دون ان يثبت ذلك. لذلك يلقبه البعض بالشهيد الثاني.

تضخم وزن الطائفة داخلياً وثنائية أمل - حزب الله

بعد هذه الجولة في مسارح الاحداث والتي بدأناها من الجنوب اللبناني، مرورا بالعراق وايران والخليج، لا بد من العودة الى لبنان. هناك من يجزم بوجود هيمنة شيعية على النظام السياسي، فيما وتيرة الحساسيات الطائفية ترتفع ايقاعا. وحده الرئيس نبيه بري من بين الرؤساء الثلاثة يبدو مستقرا، سعيدا في رئاسة المجلس النيابي، فيما الرئيسان اميل لحود ورفيق الحريري يكتويان بنار المنازعات. لا يقتصر الأمر على زعامة بري بل يمتد الى حركة «أمل» المطمئنة مثلها مثل «حزب الله» الى مواقعهما الشيعية، في الضاحية الجنوبية، المصيلح، الجنوب وشمالي البقاع، ناهيك قبل كل هذه الأمكنة بساحة ومبنى البرلمان اللبناني ومعادلات الكيان.

البعض ينسب الوزن والرسوخ الاستثنائيين هذين الى المظلة العربية - الاسلامية، فيما بعض آخر ينسبه الى اسباب اخرى من بينها ايضا: توزيع الأدوار بينهما على نحو جلي وواضح. احدهما للمناورة السياسية وادارة العلاقات، والآخر للمقاتلين وحشودهم، او لمضاعفة الوزن الداخلي من خلال العدد والعديد بالتحالفات الاقليمية ولعب الاوراق الرابحة. الرئيس بري وحركته فتحا المؤسسات امام ابناء الطائفة على نحو ملموس منذ توقيع اتفاق الطائف. وبات كل من يود ان يدخل الى ملكوت السياسة والادارة مضطرا الى المرور بعين التينة للحصول على قرار او مرسوم التعيين. هناك مؤسسات باتت مفرزة للطائفة في عهده، فيما اخرى متقاسمة مع بقية الطوائف، المثال على الاولى مجلس الجنوب الذي يبقى فوق المحاسبة والمراقبة والسؤال والجواب، المثال الآخر ما يدخل في باب الاقتسام هو كل ما تبقى من مؤسسات عامة او مختلطة او... حزب الله الذي لم يحصل على هذا الامتياز احتكر المقاومة في ظل ظروف مؤاتية اقليميا ومحليا. المدد الايراني لم ينقطع والاحتضان السوري في اصعب المفاصل كان حاضرا مما جعله عصيا على النقد، وقادرا على القول الآن: ان خياري هو الذي انتصر في نهاية المطاف.. مع ذلك لم يُعطَ ما أعطي بري، وظل محشورا في تمثيله البرلماني ومؤسساته الاعلامية وغير الاعلامية من اجتماعية وسواها.

دوما الساحة الشيعية كانت تراقب متغيرات العلاقات السورية - الايرانية، تنتابها خشية ان تدفع ثمن اي اهتزاز فيها. لكن الموضوع يتعدى بطبيعة الحال المعطيات الجيوسياسية والاستراتيجية الاقليمية القديمة، خصوصا في ضوء حضور الوزن الاميركي الكبير في معادلات المنطقة من بوابة الاحتلال الاميركي للعراق ومحاولاته تسويق خارطة الطريق. الاسئلة المطروحة حول وزن الطائفة الشيعية مطروحة على نحو دقيق منذ الانسحاب الاسرائيلي الاضطراري في ايار من العام ٢٠٠٠، اي منذ قبل ثلاث سنوات تحديدا. الآن باتت الاسئلة أشد حضورا. الخوف من المد الشيعي ليس مفردا في الوسط المسيحي، بل يتعداه الى الطائفة السنية، التي تجد كل يوم تآكلا في دورها، وعجزا عن صياغة تسوية تعيد وصل ما انقطع في نوابض الكيان اللبناني. لكن الخوف ليس من الشيعة فقط، بل هناك خوف عليهم ايضا. اذ ماذا يضمن استمرار «المساكنة» بين قوة ووزن المصالح السياسية التي تقودها حركة «أمل» وتيار الايديولوجيا الذي يرفع رايته «حزب الله». كل ما يجري داخل هذين التنظيمين ينبئ ان هناك ما يشغل البال، وسراً فإن التنازع بينهما على أشده. يتمثل ذلك في الصراع داخل المؤسسات على استحضار الوزن، وان كان ما زال محصور ما دون التمثيل النيابي الذي تتم قسمته في دمشق. ما دون ذلك معارك موضعية لا يهدأ اوراها.

اسئلة ملحة كثيرة مطروحة على الاجتماع الشيعي، وهي اسئلة تتجاوز الطائفة لتنطرح على لبنان وعلاقات مكوناته في المدار السياسي وما يتجاوزه ايضا.

يقدم السيد هاني فحص قراءة استرجاعية تبدأ من الستينات لحركة الامام موسى الصدر، الذي حاول المرور على حد السيف بين الشيعة وسواهم، دامجا قضيتهم مع قضية الاجتماع اللبناني وأعطابه. بهذا المعنى كان منتبها للضرورات الوطنية وعلى رأسها اعادة بناء مشروع الدولة، بما يقود الى دمج الشيعة في الاجتماع الوطني، من خلال جعل الدولة الوطنية فكرة نهائية والارتقاء بالعروبة من طور المشروع السياسي المأزوم الى طور الانتماء الجامع وتسليحها بالمزيد من الجامع المشترك والوعي دون الغاء الذات او الآخر.

يؤكد فحص على دور الاحزاب في تسييس الطائفة المهمشة التي انتقلت من «التقية» الى «التعبئة»، مما سمح لها بتفجير طاقاتها الرافضة في مشاريع نضال حقيقي، وهي العملية التي استمرت مع الصدر وفضل الله والخميني وحزب الله. إذاً هناك ما يشبه الخيط المنتظم في ممارسة الفعل السياسي والاجتماعي عبر مشاريع نضالية، اولا مع الاحزاب اليسارية العلمانية، واصلاحية مع الامام الصدر وحركة امل وثورية مقاومة مع ايران وحزب الله.

يصف د. منذر جابر دور الشيعة بأنه كان مستورا طوال الخمسينات والستينات والسبعينات، «كان هذا الدور مستورا وراء

«قيم» وطنية رفعتها الحركة الوطنية اللبنانية. وكانت هذه المطالب على عفتها الوطنية الظاهرة تستبطن بالميزان السياسي اللبناني هوية سنية عميقة. كان عمقها هذا وشمولها وراء اختفاء هويتها المذهبية وتداعياتها بين الطوائف الاسلامية اللبنانية. لقد نشأت هذه المطالب مع نشأة الحراك السياسي العربي مع تقسيم المنطقة الى كياناتها الحالية، ومن يومها كبت مطلب الوحدة العربية بطانة المواقف السياسية للطوائف الاسلامية. لكن الشيعة اتخذوا هذه البطانة على غير خيار او عن غير وعي بخيار على الأدق.

الاجتماع الشيعي متوحد في الظاهر كما يبدو، لكنه منقسم مثله مثل الطوائف الباقية، مادام المعطى الطائفي في لبنان بات سيد الموقف. وهذا الانقسام مستور على حد وصف جابر بالمظلة الكبرى السورية ـ الايرانية. عدا ذلك هناك كل انواع التنافس المضبوط الذي لا يفيض عن الخطوط الحمراء التي أمكن التوافق عليها بعد معارك عنيفة شهدتها الضاحية الجنوبية بين كل من «أمل» و«حزب الله». يبدو الخلاف، بل الصراع ساطعا في العديد من المفاصل. يتم اعتماد لغة «مدوّرة» للحديث عن الاتجاهات ومحاولات تثمير الاوزان سياسيا على ساحة واحدة تتعرض فيها الكتل الجماهيرية للتجاذب لترجمة خياراتها بينهما.

الوفاق والخلاف

يستحضر ابراهيم شمس الدين تجربة والده في الوقوف على مسافة من «امل» والحزب. يقول شمس الدين: كان الوالد يمارس الوسطية. وهذا الامر لم يكن سهلا ان تقف على مسافة متوازية من الجميع، واستطاع ان يفرض هذه السياسة في لبنان، اي داخل الطائفة وخارجها ايضا، وذلك من اجل حفظ الجميع، خصوصا عندما لا يتمكنون هم من حفظ انفسهم. الهدف هو الشيعة كجزء متمم للاجتماع الوطني. ورسخ فكرة العيش الواحد كبديل من مصطلح التعايش، ليس بوصفهم شيعة، بل كونهم لبنانيين يحملون نظام مصالح واحدا، يجب عليهم الا يحملوا أي نظام مصالح مختلف عن الآخرين مهما كان بسيطاً. ولهذا أحد تعبيراته الشهيرة كان دعوته «الى الخروج من كهف الطوائف الى رحاب الوطن». هذا الموقف الوسطي كلفه الكثير، لكنه نجح وتبين ان الشيعة والمسلمين كلبنانيين يقرون بدوره. بهذا المعنى منع تحول المجلس الشيعي الى هذه الجهة أو تلك، وابقاه الإطار الجامع الذي يضم الجميع بتبايناتهم، يلجأون إليه عندما يعجزون عن ايجاد الحلول. قوة هذا الموقف نبعت من أنه لا يريد شيئاً لنفسه، لذلك كانوا يطمئنون اليه عندما ينحشرون. الانتظام العام للشيعة هو انتظام وطني. الانطباع عنه ايجابي كدور وموقع بالعلاقة مع الآخرين.

يؤكد شمس الدين أن الاجتماع اللبناني اجتماع عاقل، وقد صقلته التجارب ومر بخيارات كبرى كثيرة، حتى ان أكثرها غرابة وتطرفاً حتى الخيال جرب. واعتقد اننا كلنا وصلنا الى نتيجة أن نكون وحدة وطنية حقيقية وان نعمل لذلك. لا أحد يسير بصيغة الإرغام، ومثل هذا لا علاقة له بالعقيدة أو الإيمان. لا المسلم ولا المسيحي يقبلان بوطن مضحوك عليه بمعنى السيادة والاستقلال، حتى لو حملت مثل هذا الشعار الولايات المتحدة الأميركية. ديموقراطية أميركا تطبق داخل حدودها. أما في الخارج فالأمور معكوسة، وهذا أمر واضح. هناك سؤال حول مستوى الديموقراطية في أميركا. وهو ما يطلق عليه النظام الرئاسي. ما معنى أن يملك رجل واحد القرار وحق استعمال السلاح النووي وتعطيل الحقوق المدينة وشن الحروب؟ مثل هذا النظام العرفي مشهور في المنطقة العربية وكذلك في أميركا. غريب ذلك.

يعتقد السيد فحص ان العاطفة والعقيدة الشيعية الجهادية ومخزون الحرمان الشيعي المبالغ فيه أحياناً قد انتجت ثمراتها وان ليست كلها. ولكن لبنان يقتضي كي تحفظ نفسك الا تحقق مطالبك كلها، أي الا تفكر بالغلبة المطلقة لكي لا تغلب ثانية. الآن الشيعة بحاجة الى العقل. والعقل لدى الشيعة هو أحد مصادر التشريع، وذلك بهدف حفظ ما حققوه ولجعل مكسبهم مكسباً وطنياً وعدم الاغترار بالعدد والسلاح؛ أي «تسييل» ما تم انجازه في الدولة والتحرير في مشروع وطني يمر بهم ولا يتخطاهم ولا يتوقف عليهم؛ أي الاندماج في إنتاج الامثولة اللبنانية في السلم الداخلي بعد الحرب. هذا المطلوب هناك قدرة عليه. وهذا لا يتم انجازه الا بالشراكة التي لا تنفي الاختلاف ولا الصراع، ولكنها تحقق ضوابط تمنع من تحويل الاختلاف الى تناقض وبالتالي الى عنف متبادل يسقط الدولة على رأس المجتمع والمجتمع على رأس الدولة. ولا اعتقد أن هناك طرفاً عربياً أو إسلامياً يعارض هذا التوجه، بل الكل يرون ان مصلحتهم فيه. وأرى ان أفضل خدمة نقدمها في لبنان لقضايانا القومية والإسلامية وللأوطان العربية عامة هي أن يسلم لبنان ويستكمل تجربته. ولبنان لا يسلم الا بالوفاق الوطني الذي لا ينفي الخلاف، ولكنه يديره بالروح الميثاقية التاريخية تحت سقف الدستور غير المقدس، ولكن لا يمكن أن يتم تغييره أو تطويره بالطريق الصحيح الا من خلال تطبيقه الدقيق. وفي رأيي ـ يضيف فحص ـ أن المسلمين في لبنان مكلفون حضارياً طمأنةَ المسيحيين الى موقعهم في الدولة اللبنانية على مقتضى الطائف بصرف النظر عن عوامل القوة والضعف بالمعنى المادي، لأن المسيحيين في لبنان ضرورة وطنية بمعنى ضرورة وجود للكيان الذي يصبح من دونهم لا داعي له.

الطائفية السياسية

الواضح أن مثل هذا الجدل يتطرق الى الاجتماع العام اللبناني، من دون أن يتوقف عند خصوصيات الطوائف، وهي عوائق حقيقية بعضها مرئي وبعضها الآخر «غير مرئي»، أي أنه ما زال يحول دون الوصول الى العقلنة كما يصفها شمس الدين إضافة الى «الوسطية»، أو الى الروح الميثاقية التاريخية والحاجة الى العقل كما يصنفها فحص. والعوائق التي نؤشر لها موجودة داخل الجماعات، كما هي راسخة في المواقع السياسية سواء كانت رسمية أو أهلية. وهي تتجاوز حدود الطائفة الشيعية بطبيعة الحال. حتى ان الطروحات تبدو في الكثير من الأحيان عبارة عن مناكفة أو للتلويح بالحد الأقصى. المثال على ذلك عندما طرحت مسألة الغاء الطائفية السياسية أو ما سماه الشيخ الراحل محمد مهدي شمس الدين الديموقراطية العددية. عندها برزت المخاوف جلية وواضحة. وهي المخاوف التي تظهر للعيان على شكل كيان يدار عبر منحى واحد وخط متفرد يعزل الآخرين عن القرار، ولا يحسب لهم فيه أي حساب، مهما كانت كلفته فادحة.

يقول ابراهيم شمس الدين: لقد عارض والدي نظام الطائفية السياسية منذ العام ١٩٨٥ ووضع اطروحته الخاصة عنه بشكل

كامل. وكان يقول اننا بحاجة الى ديموقراطية مثل السائدة في فرنسا وإنكلترا والهند. في هذا المناخ طرح الديموقراطية العددية القائمة على مبدأ الشورى. لا اعرف لماذا اختار هذا العنوان المعقد. تعبير العددية هو الذي ادى الى الالتباس. كان يقصد اللبنانيين الافراد الذين يتكوّن منهم لبنان، أي أربعة ملايين نسمة وليس ثماني عشرة طائفة. العددية بهذا المعنى. دائماً هناك وسيط بين المواطن والدولة. أراد علاقة مباشرة دونه. الوسيط هو من يأخذ من كرامة ورزق المواطن في حقه أن يكون منتسباً للدولة. الناس تنتخب سلطتها ولا تتمثل عند الطائفة أولاً. نحن نعلم ان الطائفية، بل اناسا محددين يكسبون من رفع لوائها ويستحوذون على كل شيء. وهؤلاء هم من كل الطوائف.

يتابع شمس الدين: والدي صاحب اطروحة الديموقراطية والغاء النظام الطائفي وقف بكل جرأة وشجاعة ليقول: «اعتقد انني مخطئ، اذ بعد تبصر عميق بالاجتماع اللبناني، اعتقد ان نظام الطائفية السياسية ملائم ينبغي على ألا يعمل على الغائه الآن. لا بمعنى التحريم لأن الغاءه سيهدد كيان لبنان... والأمر يظل مفتوحاً للمستقبل. نبقي هذا النظام ولكن يجب ان نعمل على تطويره مثله مثل اتفاق الطائف... كان رجل لبنان بالمعنى الكامل، انطلاقاً من فكره الفقهي، وهو يطرح أسساً جديدة لإعادة الكيان اللبناني الى نصابه.

الشيعة وعقدة التقاطعات

دوماً بين الطروحات النظرية والممارسة اليومية مسافة شاسعة. هذا في المبدأ، ثم الأهم ان الذين يطلقون هذه الطروحات ليسوا هم أصحاب القرار أو الحشود على الأرض. المسار الذي أوصل الى الحالة الراهنة لجهة علاقات الطوائف بالكيان معقد. تتداخل فيه المحلية بالإقليمية. هذا يتغذى من ذاك ويغذيه. وحدث انه في غضون تلك المرحلة فاض المجتمع على الدولة واوقعها تحت ثقله، كما يرى فحص، مما أدى الى ما أدى إليه. لكن هل السر الوحيد يكمن في التحالفات أم أن هناك عوامل أخرى فاعلة.

يؤشر د. منذر جابر الى ان الإقامة المجزأة للشيعة هي ما أعطى تثقيلاً لدورهم، إذ قدمت هذه الإقامة ادواراً من موقع الغلبة في غير جبهة. يعود جابر هنا الى المسلسل الذي شهدته مرحلة أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات كمؤسِّسة للحال الراهنة.

يصف جابر جبهة الجنوب بأنها جدلت كل جبهات لبنان. فمن «الجدار الطيب» مع شمعون بيريز الى بوابة فاطمة في كفركلا، حتى التحرير في ٢٥ أيار العام ٢٠٠٠. كل رصاصة في تلك الجبهة كان لها رجع وصدى في مسارات الحرب اللبنانية، حامية أو باردة، وفي مسارب تلك الحرب داخل لبنان او في محيطه الاقليمي الأقرب.

يضيف جابر: كانت هذه الجبهات مفتوحة في الغالب في آن معا. وكانت غلبة الشيعة في هذه المعارك تدور غمغمة وهمسا في زمن الحركة الوطنية وجهارا نهارا في زمن «أمل» و«حزب الله»، ومع «أمل» خاصة. وما هم هنا بالطبع الحديث في أسباب الغلبة الشيعية، فلا فرق بالتالي ما بين هوية هذا النصر وطائفيته. المهم ان الغلبة في الحرب تحجب العصبيات وتحجب «النقار» السياسي. الهزيمة مدعاة المحاسبة والشيعة في غلبة. المحاسبة كانت مثلا مع معركة النبعة عام ١٩٧٦. يومها لم توفر التهم فصيلا إلا وطالته. راح التطاعن يدور على قاعدة الاصول: جنوبية هذا وبعلبكية ذاك. ولكن طاحونة حرب السنتين عادت وغضت من تلك الأصوات. وكان للسيد موسى الصدر دور حاسم يومها في كبت «التهاتت بالاصول»، لأن انقسام الشيعة بين جنوبي وبقاعي بعد معارك النبعة والمسلخ والكرنتينا وبرج حمود، جاء على قاعدة قلة ثورية وقلة التزام هذا عن ذاك.. أي جاء على قاعدة انتسابهم وطنيين الى الحرب اللبنانية. مع مجيء أفواج المقاومة اللبنانية وانطلاقها فصيلا مستقلا في الحرب وعلى قاعدة الانتماء الصريح الى التشيع، كانت وحدة جناحي الشيعة في لبنان، وصار البقاع كما وصفه رجال القيادة الشيعية خزانا يرفد الجنوب. ولم تقصر «مجاري» الهواء السياسية التي كانت تهب على الساحة اللبنانية من «الدرفات» المفتوحة المتقابلة ما بين دمشق وطهران في رفد هذه الكتلة، سواء في البقاع او الجنوب او الضاحية. أعلنت هذه الكتلة عن صريح انتمائها، وهو انتماء ما زال الى الآن مكتنزا، ولم تستطع النُّذُر العصبية التي كانت تطل بين الفينة والفينة، شأن ثورة الجياع مثلا من أن تجلو الغلاف السميك الى الآن والذي يبارك وحدة الطائفة.

تجديد التمثيل السياسي

وحدة الطائفة التي يتحدث عنها جابر انتصبت في ميزان ثنائية بين «أمل» و«حزب الله». ولكل من القوتين طروحاتها بطبيعة الحال. احتفظت «أمل» بالكثير من المعادلات «الصدرية» كيانيا، وباتت جزءا مكونا من مكونات السلطة، فيما «حزب الله» دخل الى المحفل السياسي، لكنه ظل مشدودا الى جذره المقاوم باعتباره واحدا من التجليات التي أبرزتها الثورة الايرانية بعيد انتصارها المدوي.

يقول النائب محمد رعد: نحن في ما نمارسه من عمل نيابي نعمل على توضيح رؤية المقاومة و«حزب الله» في المنتديات السياسية، لكنا نسلك طريق شفير الهاوية. نحن على خط الوسط، ودوما معرضون للسقوط. السياسة في لبنان لا تستطيع ان تطلق نقلات تحدث تغييرات نوعية على الأقل في هذه المرحلة، تحاول ما استطعت في كثير من الأحيان أن تمنع تداعيات او تدرأ بعض المفاسد، لكن ليس بحجم ما يؤمل تحققه من مصالح. نسبة نجاحنا في العمل البرلماني نسبة مقبولة وتتراوح دائما عند الوسط. أداؤنا في المعارضة يستند الى تسليط الضوء على ممارسة اركان الحكم وأدائهم، ان يعترض على هذه الممارسات بطريقة غير مثيرة، مركزا على أن الأشخاص في السلطة هم نتيجة قواعد سياسية وقوانين معتمدة في هذا النظام وهي لا تنتج إلا مثل هذه الممارسات. بالتأكيد لدينا ملاحظات على مشروع إعادة بناء الدولة وعلى طريقة ترميمها أثناء الوقوع في منزلقات ومطبات. ولكن لا نستطيع أن نتخلى عن مشروع الدولة قيد الانشاء، ولا تستطيع أن تفرض رؤيتك على الآخرين في تقديم هذا المشروع وسط مرحلة مليئة بالتجاذبات والضغوطات وخصوصا الأولويات التي تلزمها.

كل الوقائع تشير الى تجديد التمثيل الشيعي سياسيا الذي بات متقاسما بين الحزب والحركة مع تفاصيل معلومة المرجع. هناك أرجحية رئاسية للثانية وان كانت غير عددية. في هذا المجرى تمت الاطاحة بما كان يسمى الاقطاع السياسي جنوبا وبقاعا.

هذا الحكم الذي يعتبره البعض حقيقة تشبه حقائق الكيمياء لا يعتبره د. جابر مؤكدا. يسأل بداية عن المعايير التي رازت الاقطاع السياسي والاطاحة به ومن هو هذا بالتسمية والتحديد.

يرى جابر أن الرائز الاول لتحديد مصير هذا الاقطاع وهو هنا الأسعدي عرفا، يكمن في النتائج الانتخابية حيث ذهب الى غير رجعة حتى الآن، أي مقعد لعائلة الأسعد. ولكن هنا نجد أنفسنا أمام احتمالين: الاول منهما يفترض تصديق ان لعبة الانتخابات هي المعبر الفعلي عن أوزان القوى السياسية. الانطباع هنا يقود الى القول ان الاقطاع السياسي في أحسن حال. فعائلات عسيران والزين والخليل لا تخشى هزات الريح. بل ان الاقطاع الاقل درجة شأن بزي والعبد الله أعادته الانتخابات الاخيرة الى حصته نائبا عن بنت جبيل وآخر عن الخيام. ثم ان الانتخابات الأخيرة أبعدت آخر أسعدي «سعيد الأسعد» الا انها أشرت الى ظاهرة أسعدية صاعدة، كان لها من تأييد الأصوات منفردة ما عادل أصوات اللائحة الكاملة مجتمعة. الاحتمال الثاني إذا كذبنا مقولة ديموقراطية التمثيل عبر الانتخابات، شأن ما تتشكل فيها لوائح الشرف النيابية في الانتخابات اللبنانية، فلا يصح والحالة هذه القول بموت الاقطاع، وهو الأسعدي ضمنا وعرفا. ولكن نقول ان الكأس الذي شرب منها اليوم كان قد سقاها يوم الهتافات «نحن رجال الاربعتعش ونائب للشوفارية»، يتجرعها من رجال الـ٢٣ ونائب ونصف للشوفارية. باختصار، يتوصل جابر الى أننا انتقلنا من لعبة الاقطاع السياسي الى لعبة الاقطاع بالسياسة.

في بعلبك أطيح بعائلات حمادة والدنادشة والحيادرة و.. والكتلة الشعبية الشيعية سواء كانت في «بوسطة» او محدلة باتت تتحكم بنواب المناطق التي تملك فيها الثقل البشري، حيث تندر الاختراقات او تنعدم بالأصح، وعلى حساب خيارات أبناء الطوائف لمثليهم.. هذا الحكم أكثر صحة في الجنوب حتى جزين وصيدا وحاصبيا وفي البقاع الشمالي، تبعا لتفصيلات قانون الانتخابات.

الإسلام الشيعي والجمهورية

لا شك في أن «حزب الله» قد شذب من خطابه كثيرا، إذ إن عقدين من عمره ليسا سنوات قليلة. بين الرسالة المفتوحة الى أمة «حزب الله» وبين اللحظة سالت دماء كثيرة في الجنوب وسواه ونضجت التجربة السياسية لديه عما كانت عليه نظريا.

ينفي الشيخ صبحي الطفيلي، الأمين العام الأول لـ«حزب الله» أن يكون شعار الجمهورية الاسلامية هو شعار الاسلام، الجمهورية الاسلامية صفة قد يراها البعض مناسبة او غير ذلك. شعار الاسلام هو العدالة الاجتماعية. لم يطرح «حزب الله» الجمهورية الاسلامية، بل طرح أنه مع قيام نظام إسلامي لا يعتمد الضغط والعنف لإرغام الناس على هذا التوجه، بل يعتمد الحوار مع الآخر. وإذا قبلت به الاغلبية يتحقق مع حكم الأغلبية، وإذا لم تقبل به فإن لها الحق في معارضته والدفاع عن قناعاتها. فكما لا أفرض على أحد القبول، لا يفرض أحد علي القبول على ما لا أقتنع به. نحن نعمل على تسويق هذه الفكرة على أمل أن تصبح ذات أغلبية. البعض حاول إضافة الطوائف والمذاهب والهدف كان التحريض على «حزب الله».

لا يرى المفتي السيد علي الامين ان هذه الثنائية تمنع من بروز تيارات اخرى داخل الطائفة الشيعية. ولا يعني ان هذه الصيغة الثنائية التي لم يكن متفقا عليها في الاساس هي الصيغة النهائية. نعم ليس هناك أسس ثابتة لدى الطائفة الشيعية في لبنان وهي التي تمثل نظرتها الى الوضع اللبناني والنظام السياسي، والتي عبر عنها الإمام الصدر في مراحل عديدة من المحنة اللبنانية من وحدة اللبنانيين في عيش مشترك والغاء الطائفية السياسية من النظام السياسي والعمل على انشاء الدولة العادلة لمواطنين احرار يتساوون في الحقوق والواجبات في وطنهم النهائي. ومن خلال هذه الاسس يمكن القيام بدور وطني يعمل على تغيير النظام السياسي الذي لم يتغير كثيراً بعد اتفاق الطائف مما كان عليه قبله بعيداً عن الصيغ الطائفية والمذهبية.

«الحكمة» والتجاذب

قياسا الى حركة «امل»، يبدو «حزب الله» اسير لغة مقاومة، بات بعد تحرير الاجزاء الاساسية من الجنوب هامشها بالغ الضيق ومحدود الاستقطاب، خصوصا انه قد اكتشف مدى تشابك المداخلات، الى الحد الذي باتت فيه ثنائية الاحتلال ـ المقاومة بحاجة الى اقناع الاطراف التي ادارتها وقدمت الدعم والاسناد. هذه الاطراف باتت ترى تمرير المرحلة بما لا يطلق، لا الدب الاميركي ولا الذئب الاسرائيلي بقوتيهما النارية والسياسية.

يعترف النائب رعد بمدى ثقل التجاذب السياسي على دور الكتلة النيابية للحزب، خصوصاً ان هذا التجاذب هو داخل الساحة الواحدة، التي تحرص على عدم حدوث احتكاكات فيها، بما يحول دون الوصول الى حدة في التجاذب، ويتم ذلك من خلال الحرص على الوقوف عند القواسم المشتركة العامة. ومثل هذا الوضع يؤثر على النهوض بالكثير من متطلبات النجاح في العمل السياسي على الطريقة اللبنانية. لكن لسنا نادمين على ذلك لاننا مقتنعون بأن تماسك ساحة الداخل، خصوصا الساحة التي هي على تماس مع الاستحقاقات المصيرية امر فوق الضرورة، ويستحق ان نقدم من اجله تنازلات كثيرة وتتضرر مصالح فردية لكثيرين.

ويرى نائب الامين العام لحزب الله الشيخ نعيم قاسم ان ما يشعر به الآخرون من ان الحزب يعمل بطريقة حكيمة ومنضبطة تأخذ بعين الاعتبار الظروف السياسية، ويتحرك بمقاومة مدروسة تؤدي اهدافها، هذه نقطة ايجابية. ومهما اعتبر الآخرون ان طريقة الأداء تخضع لخطوط حمراء او انها مسيسة بمستوى عال، فهذه لا تغير من واقع ان «حزب الله» مقاومة موجودة، اهدافها مرسومة عند قيادته، وتعتبر هذه القيادة معنية بتحقيق هذه الاهداف من خلال السياسة المتبعة.

يضيف: ان اسرائيل لا تريد حزباً منضبطاً، انما تريد الغاء اصل وجود الحزب. اميركا ليست مقتنعة بحقنا في مزارع شبعا، مع ذلك فإننا نقاوم فيها. يريد الطرفان ايضا الغاء قدرة لبنان وسوريا من خلال الغاء قدرة «حزب الله» لتبقى المنطقة مجردة من عوامل الرفض. ومع ذلك فالحزب بمقاومته مستمر، ما يدل على ان الحديث عن ضوابط وقيود لا يعدو كونه اختيارا، له علاقة بتقدير المقاومة وينسجم مع مسارها. ولا اعتقد ان المطلوب هو مقاومة غير واعية او غير مسيسة او مندفعة بالاتجاهات الخاطئة. نحن مرتاحون الى ادائنا ونتائجه. بل ان المقاومة استطاعت ان تصبح محل اجماع لبناني تقريباً على تنوع وتعقيد الواقع اللبناني وهذا بحد ذاته انجاز كبير لا يمكن التغاضي عنه.

يلحظ السيد هاني فحص تطوراً في الخطاب اللبناني لـ«حزب الله»، مما جعله منذ التسعينات وحتى اليوم واثر انتهاء الفتنة مع «امل» منافساً وطنياً وشيعياً للحركة. خلال الفترة السابقة لم يكن هذا النصاب متحققا. كان المشروع السياسي للحزب عابراً للمسألة الوطنية ويندرج في اطار الخطاب القومي - الاممي المتعالي على الكيان. من هنا كانت المنافسة مع حركة «امل» وتشيعها بخصوصيته اللبنانية. ولبنان لا يحمل مشروع دولة إسلامية، وادبيات الإمام الصدر لا تشير اليها. لا بد من الانتباه هنا - يضيف فحص - الى ان الحزب ما دام يقدم نفسه كحزب إسلامي فمعنى ذلك ان التوجه الاسلامي لا وطنيا، لذا فإن المفارق للوطنية يبقى كامنا فيه. لذلك نسمع بين فترة واخرى من قيادات الحزب ان مشروعها وطني والدولة الاسلامية غير مطروحة. وخطاب الاسلام داخلي ايضا، لأن استقطاب المشروع الاسلامي اساس في اي حركة إسلامية - سياسية.

والموضوع يتعدى بالطبع كلا من «امل» و«حزب الله» ليصل الى الكيان اللبناني برمته. ليست هذه الطائفة بقواها السياسية والمجتمعية خارج فضاء هذه الجغرافيا - السياسية - الاجتماعية. لذا يلح ابراهيم شمس الدين على صيغة الطائف، التي رأى الوالد في كتاب الوصايا انها صيغة صالحة لان تعتمد وتتطور وتسمح بآليات الحوار. عندما يتوقف الحوار يبدو الطائف كمشكلة. أنا أرى انه يؤمن آلية وفاقية صحية ويبني حالة سياسية صحية تسمح بتطويره لاحقاً. الوالد قال عنه «انه اتفاق الضرورة والآن اعبر انه اتفاق الاختيار». هذه هي احد اشكالات موضوع الحوار. الحوار بحاجة الى تنظيم. ما يصطلح عليه بأنه الوفاق الوطني يجب ان يتحول الى مفهوم مشترك لكل التفصيلات: قانون الانتخاب، النظام القضائي و...

هذه المعطيات تدخل في الفكر والسياسة والاجتماع، لكنها لا تختزل تلك المعادلات التي رسخت من وزن الطائفة داخليا ضمن رياح اقليمية مؤاتية.

حركة «أمل» التأسيس والميثاق

يعتبر خطاب الإمام السيد موسى الصدر الذي ألقاه في السابع عشر من آذار في العام ١٩٧٤ في مدينة بعلبك، وقال خلاله عبارته الشهيرة «السلاح زينة الرجال» منطلق ما عرف باسم حركة المحرومين، بعد تمهيد تعبوي استمر عدة سنوات، وقد تعهد الصدر خلال خطابه المذكور، والذي حضره حوالى ٧٥ الف مواطن بالنضال حتى تحقيق مطالب المحرومين ورفع اشكال الظلم الاجتماعي.

الا ان انشاء ميليشيا خاصة بالحركة قد تأخر عمليا حوالى العام ان لم نقل اكثر، رغم قعقعة سلاح الميليشيات والمقاومة في حينه. اذ تم انشاء افواج المقاومة اللبنانية المعروفة باسم «أمل» على يد ضباط من حركة فتح وبإشارة من الامام الصدر بالتأكيد. وقد ظلت التدريبات الاولية لهذه الميليشيات سرا حتى انكشف الامر في اعقاب انفجار لغم في منطقة بعلبك خلال التدريب مما ادى الى مقتل وجرح العشرات من المشاركين. وقد استمرت هذه الميليشيا على وتيرة قتالية متواضعة.

يتألف ميثاق الحركة من اربع وثلاثين صفحة فولسكاب تعلن الايمان بحرية المواطن ومحاربة كافة انواع الظلم من استبداد وإقطاع وتسلط وتصنيف المواطنين. وتعتبر فيه ان نظام الطائفية السياسية يمنع التطور السياسي ويجمد المؤسسات الوطنية ويصنف المواطنين ويزعزع الوحدة الوطنية. وتعلن الحركة في ميثاقها عن رفض الظلم الاقتصادي وأسبابه، وتدعو الى توفير الفرص لجميع المواطنين باعتباره أبسط حقوقهم في الوطن، وتحدد واجبات الدولة بتأمين العدالة الاجتماعية. وتصف الحركة نفسها بأنها حركة وطنية تتمسك بالسيادة الوطنية وسلامة اراضي الوطن وتحارب الاستعمار والاعتداءات والمطامع التي يتعرض لها لبنان. والحركة تعتبر ان التمسك بالمصالح القومية وتحرير الارض العربية وحرية ابناء هذه الأمة هي من صميم التزاماتها الوطنية لا تنفصل عنها. وغني عن القول ان صيانة لبنان الجنوبي والدفاع عن تنميته هو جوهر الوطنية وأساسها، حيث لا يمكن بقاء الوطن من دون الجنوب ولا تصور المواطنية الحقة من دون الوفاء للجنوب.

ويقول الميثاق: فلسطين، الارض المقدسة التي تعرضت ولم تزل لجميع انواع الظلم هي في قلب حركتنا وعقلها وان السعي لتحريرها اولى واجباتنا، وان الوقوف الى جانب شعبها وصيانة مقاومته والتلاحم معها شرف الحركة وإيمانها. لاسيما وان الصهيونية تشكل الخطر الفعلي والمستقبلي على لبنان وعلى القيم التي نؤمن بها وعلى الانسانية جميعا، وانها ترى في لبنان بتعايش الطوائف فيه تحديا دائما لها ومنافسا قويا لكيانها.

وتفرد الحركة في «المبدأ الثالث» حيزا اساسيا لوجوب محاربة الاقطاع والاقطاع السياسي ونظام الطائفية السياسية. تقول الحركة حول الاول «.. وقد ورث الزعامة السياسية في الدولة اللبنانية، احفاد الاقطاعيين، ولعب الاقطاع السياسي دوره الفعال في الاحتفاظ بمناصب الدولة وتجيير المنافع لحسابه الخاص، وللابقاء على مكانته المتسلطة على الناس، لذلك فإن الحركة بجهادها سوف تعمل جاهدة لعزل هذه القيادات الاقطاعية وتعريتها وفضحها... وحول الطائفية السياسية يرد ما يلي: ..« ان هذا النظام يمنع التطور السياسي ويجمد المؤسسات الوطنية ويصنف المواطنين ويزعزع الوحدة الوطنية».

وترى أن معالجة الحرمان تكون باجتراح خطة ليس فيها شيء من المعجزة الاعجوبة لتعميم العدالة وتهيئة الفرص التكافئة في السياسة والاجتماع والعمران والتربية والثقافة.

وتقول «ان حركة المحرومين لا تعمل من اجل طائفة معينة، ولا من اجل فئة معينة، فمبادئها ملك الجميع وجهادها لخير الجميع وهي تفرق بين الالتزام الديني والتعصب الطائفي الذي يعرقل سير تقدم الوطن. كما انها ترى طرحها الديني المتقدم هو الكفيل بنزع الصبغة الطائفية التعصبية عن الدين، وان الروح الدينية الواقعية هي القادرة على غرس المسمار الاول في نعش الطائفية البغيضة والفئوية المقيتة.. وهي تعمل لتهيئة الارض الصالحة للتغيير، وبإعداد القوى المساعدة على تحقيق عملية التحويل في الجانب الفكري والمادي والاجتماعي».

مسيرة الطائفة من هامش «الكتاب» الى «متن» الكيان

لا حركة أمل ولا حزب الله جاءا من فراغ. كما ان عمريهما الزمني لا يختصرهما. سواء تعلق بالاولى مرحلة الستينات وما حفلت به من نهوض سياسي، ولا الثمانينات وما شهدته من تحديات وتطورات بالنسبة للثاني. كان للشيعة مسار ومسيرة توصلا الى المرحلة الراهنة من الحضور. قد يصل عمرها الى اكثر من ثمانين عاما اذا اعتبرنا اعلان دولة لبنان الكبير كمفصل، او ستين عاما اذا انطلقنا من عمر استقلال الكيان. ايا يكن التاريخ الذي لا بد من اعتماده، من المهم الاشارة الى ان هناك الكثير من المعطيات الوازنة التي حسمت في الموقع الراجح الراهن. والمعطيات التي نؤشر اليها متداخلة منها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

بداية لم تكن هناك طائفة شيعية بالمعنى الحقوقي الذي استقر عليه سواها من موارنة ودروز وسنة و.. كانت هناك جماعات بشرية متناثرة تحاول الدخول في الكيان المفصل بموجب اعلان الجنرال غورو من قصر الصنوبر. جماعة شيعية في الجنوب، ثانية لجهة الوزن في البقاع الشمالي، ثالثة في البقاع الغربي ورابعة في بلاد جبيل. وكانت الخطوط مقطوعة بين هذه وتلك. والمعروف انه خلال الحكم العثماني لم يكن للشيعة قانون للاحوال الشخصية معترف به. قبلهم كانوا «مجرد روافض» على حد تعبير ابن تيمية الذي جرد عليهم الفتوى والسيف. في بيروت كان حضور هذه الطائفة محدودا وقليل الفاعلية بالقياس الى السنة او الموارنة او حتى الارثوذكس. كان الشيعة على هامش الكيان الذي تقرر بناؤه، في الاطراف الشمالية والجنوبية منه على نحو دقيق. خارج الجبل وخارج بيروت باعتبارهما المركز الموعود. في الاولى عشائر تعرف دمشق اكثر مما تسمع ببيروت. اقتصاد الندرة والكفاف والماشية، وفي الثانية زراعات بعلية فقيرة بالكاد تكفي الأود. علاقاتها مع جنوب الجنوب نحو مدن فلسطين الشمالية: حيفا ويافا و... حيث بساتين الليمون والحمضيات.. البديهي انه لا تتأسس جماعة سياسية على مواقع هامشية في كل المناحي. كان هناك حضور سياسي محدود ومضبوط زمن الدولة العثمانية، تطور خلال الانتداب، لكنه ظل مقننا بالعناصر المؤثرة في العهود الاستقلالية.. ثم كانت فورة الستينات والسبعينات.. تحول الجنوب من هامش الى قلب، دخلته عواصف المنطقة على نحو خلع ابوابه المقفلة منذ قيام دولة اسرائيل.. واستمر المسار مع تأكد مأزق سياسة فتح الجبهة اللبنانية على الصراع مع العدو الاسرائيلي دون افق عربي. الكلفة الفادحة للموقع دفعت الى البحث عن البديل من داخل الكيان وبالعلاقة مع مستوى السقف الاقليمي. العامل الفلسطيني الذي اقتحم الخط الحدودي، اخذ يتحول الى عنصر براني مرفوض، وأخذت تظهر معالم طائفة بالتضاد معه، وبالتضاد مع النظام الذي فرض عليها موقعا هامشيا في معادلاته على مختلف الأصعدة قبلا.

الشيعة الآن هم الرقم الأصعب في متن مكونات الكيان اللبناني، وبالأمس كانوا على هامش كتاب الطوائف في لبنان.. ولمسيرة العقود الستة او الثمانية سيرة لا بد وان تروى لوضع الامور في نصابها. فالمارد لم يخرج من القمقم صدفة او لمجرد اكتشافه في قاع البحر من قبل صياد محظوظ، سواء اسميناه نبيه بري او حسن نصرالله.

الشيعة بين الخيارات

لم يختلف الشيعة عن السنة كثيرا في الخيارات التي أملاها عليهم وقوعهم تحت الانتداب الفرنسي. في أعقاب هزيمة الدولة العثمانية. كان جبل عامل تابعا لولاية بيروت، وكانت بعلبك الهرمل تابعة لولاية دمشق، وهي احد الاقضية الاربعة التي ضمت الى الكيان لاحقا.

كما السنة، كان الهوى الجنوبي فيصليا، وبالتضاد مع الانتداب الفرنسي. كان مصير المنطقة ومن ضمنها هذه الجماعة على المفصل، مثلها مثل سواها. الجماعتان الوازنتان في الجنوب والبقاع كانتا مطالبتين باعتماد موقف، وبسرعة تم الانتساب الى المشروع الفيصلي، لكن معركة ميسلون حسمت المصير بسرعة وتكرس ان سوريا ولبنان هما من حصة فرنسا وفلسطين من نصيب الانكليز. كان امام ابناء جبل عامل الخيار الفلسطيني، لكن الامر حسم لصالح «الخيار السوري» رغم انشاء دولة لبنان الكبير. لبنان الكبير هذا طرح الموضوع الطائفي على نحو جلي اذ كي تدخل هذه الجماعات البشرية في الكيان عليها ان تدخله كطائفة شيعية وليس بصفة مواطنية. معنى ذلك ان من سيدخل الى اللجنة الادارية تحت الاشراف الفرنسي قبل وجود دستور ومجلس نواب (١٩٢٦) فانه لا بد وان يعبر من التمثيل الطائفي.

مثل هذا الامر لم يكن واردا خلال الدولة العثمانية ـ يشرح المؤرخ احمد بيضون. اذ ان كامل الاسعد (جد الحالي لأمه) كان نائبا في مجلس «المبعوثان» عن ولاية بيروت. وقد انتخب الى هذا البرلمان الذي أسس في العام ١٩٠٨ باعتباره زعيما محليا نافذا وبارزا

وليس على اساس تمثيله للطائفة اذ انه تنافس مع كل من رضا الصلح السني وشكيب ارسلان الدرزي، وهؤلاء ابرز من وصلوا الى المجلس، علما ان ولاية بيروت كانت تصل الى بلاد الشام الساحلية في فلسطين وسوريا عدا متصرفية جبل لبنان التي افرزت لها وضعية خاصة منذ العام ١٨٦٠.

تبدو هذه المرحلة التي يتحدث عنها المؤرخ بيضون بعيدة الغور، لكنها كانت المنطلق بالتحديد، باعتبارها المقدمة الطبيعية لبناء الكيان ولاستقلاله ولمواقع القوى وتراتبيتها في توازناته كما كانت عليه. يقول بيضون ان الاسعد (كامل الاول) الذي كان يرى في نفسه منافسا وزميلا للصلح وارسلان كان يدرك ان التمثيل الطائفي لا يحكم وصوله او عدمه. لكن في الاطار اللبناني اخذ يتكون وعي يغلب عليه الاعتبار الطائفي على الاقطاع الذي يتعلق بجماعة محددة في منطقة معينة. الطائفة الشيعية وجدت نفسها وسط مجتمع طوائف فاتجهت نحو التجانس في العلاقة مع الطوائف الاخرى ولا سيما المسيحية، التي كانت قد قطعت شوطا واسعا في هذا المجال. اذ انه كان لها حوالي قرن تعامل كطوائف من خلال النظام الملي العثماني، وكانت امورها تتدبرها في كنائسها، ولديها ما يمنحها شخصية معنوية بما في ذلك الحمايات الخارجية، فرنسا والفاتيكان للموارنة. روسيا للارثوذكس، النمسا للكاثوليك.. الدروز الذين خاضوا مواجهات مع الموارنة أدت الى بروز شخصيتهم، حتى ولو تم ذلك من خلال الزعامة الاقطاعية. السنة كانوا اكثر انجذابا الى محيطهم الاوسع، باعتبارهم مركز السلطة والثقل والوزن الاعمق على صعيد اجتماع وسياسة المنطقة وليس لبنان.

اذن كانت هناك خيارات ثلاثة كما يذكر بيضون: سوريا، فلسطين ولبنان ككيان مستقل.

العصيان والانضباط

لم يقدم الشيعة ولاءهم لفرنسا على طبق من فضة. اعلوا راية العصابات المسلحة ضد الانتداب وحلفائه فكان ان تعرضوا لغرامات كبرى كعقاب. تعلموا الدرس جيدا عندما اندلعت الثورة السورية الكبرى ورفضوا الانحياز لها، وعجزت الاخيرة عن التقدم من حاصبيا وراشيا الى النبطية فصيدا. يقول المؤرخ بيضون أن هذا الموقف ساعد على حصر الثورة ومكن الفرنسيين من القضاء عليها، وقدروا موقف الشيعة فاعترفوا بهم كطائفة، وحصلوا للمرة الأولى منذ أربعماية عام على مراكز شرعية واختيارية.

مع ذلك فان هذه الطائفة ظلت مشدودة الى عوامل انقسامها بين جبل عامل والبقاع. يتربع على رأس المنطقة الاولى زعامة بيت الأسعد (أحمد) الذي يعتبر من بيت علي الصغير والذي يضم عائلات: التامر وحمزة والضاهر. وكان اسم هؤلاء بيت النصار قبلا. في المقلب الآخر أي بقاعا كان آل حمادة يستقطبون الكتلة الأوسع من عشائر بعلبك الهرمل. وكانت العشائر الحمادية متعددة تضم في صفوفها آل علاو والدنادشة وجعفر وغيرهم. وهناك فئة ثانية يطلق عليها عشائر الهموند.

يتابع المؤرخ بيضون قائلا: بيت عسيران، الخليل، الزين، فرحات، بزي، بيضون هي عائلات وليست عشائر. مثلهم مثل بيت حيدر والحسيني في البقاع، أي أنه ليس لديهم مجلس عشيرة. تختلف هذه العائلات من حيث عددها وإفادتها من مرحلة النهوض أواخر العهد العثماني، حيث برز التخلي عن الارض من جانب القطاع من جهة والوظيفة الادارية من جهة ثانية. لكن الأخيرة لم تستبعد الاقطاعيين تماما، فالقائمقام كان زعيما والمتصرف كان يشبه المحافظ اليوم. ستكتمل هذه التحولات مع بروز التجارة وجمع المال، كما فعل كل من آل الزين وعسيران والخليل، يضاف الى هذه وتلك بدايات التعليم الحديث وإن كانت ظلت أسيرة العائلات.

يجزم المؤرخ بيضون أن الشيعة ركزوا في علاقاتهم على الانتداب أكثر من الدولة اللبنانية وما أفرزته من كتل سياسية. كان وجودهم ضعيفاً في المدينة، لكن قيام اسرائيل العام ١٩٤٨ والقطيعة الجمركية مع سوريا في العام ١٩٥٠ كانا كحدثين حاسمين في التوجه نحو بيروت. الا ان الكتلتين ظلتا محكومتين بالانقسام، مما كان يحول دون وجود مؤسسات طائفية جامعة. وهو ما استمر حتى أيام الإمام الصدر الذي صارت لديه مرتكزات في العاصمة، منها أطل على البقاع.

المختبر الفكري ـ السياسي

بات الشيعة الآن مع قيام الدولة ومن ثم الاستقلال على حافة الكيان وليسوا في صميمه. يتحدث المؤرخ بيضون عن الادقاع التي كانت تعانيها هذه الطائفة تعليميا بالمقارنة مع مدارس المقاصد او المدارس الكاثوليكية.

الدكتور علي الشامي الأستاذ في علم الاجتماع يعتبر ان الشيعة لم يكن لديهم اجتماع سياسي او طائفي، وهو ما استمر حتى السبعينات. مصدر هذا الهزال متعدد الأسباب، بعضها يتعلق بتشرذم معطاهم الاجتماعي بين كل من الجنوب والبقاع وبلاد جبيل وضعف حضورهم المديني، والبعض الآخر الى غياب الحاضنة الخارجية. مثلا بالمقارنة مع السنة، كانت للأخيرين علاقات مع كل من مصر والسعودية والعراق وقبلها مع الدولة العثمانية. أما الشيعة فكان يكفيهم أن يكونوا لبنانيين تبعا لدرجة تطورهم وتحالفاتهم. كانوا يملكون وضوحا في انتمائهم العروبي منذ نشأة الكيان، تجلى ذلك في موقفهم من الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين وتأييدهم الوحدة العربية والدعوة الناصرية، وكانوا يلحون على مطالب إصلاحية وتغييرية كونهم كانوا يدركون أنهم على هامش النظام السياسي والاقتصادي. كانت حصة الجنوب والبقاع من الموازنة العامة لا تصل الى واحد بالمئة، بل انها بلغت معا حوالى ٠,٤٪، وكانوا في صميم تحولات داخلية وخارجية، هنا يضيف الشامي، لا أتكلم عن الشيعة في اليسار او البعث او من هم في السلطة سواء كانوا زعامات كبرى او أصغر. أتناول الاجتماع السياسي الذي لم يعرف علاقات خارجية، باستثناء ما ربط بعض المراجع مع حوزات العراق، او ما ربط بعض القيادات السياسية مع الشاه. والأخيرة لم يكن لها مردود سياسي على أي حال، فيما الاولى غلب عليها الطابع الفكري ـ الفقهي. إذن لم يكن لهذه الطائفة تحالف لا مع إيران ولا مع أي بلد عربي على غرار الطوائف الأخرى.

يفتح هذا على مرحلة أكثر تطورا. كان لبنان في غضون تلك المرحلة ينفتح على منطقة تشهد تغييرات وصراعات كبرى. كانت عوائد النفط قد أغرقت الخليج، وكانت صراعات المرحلة بين الناصرية والرجعية، وفورة سياسية شعبية في أعقاب نكسة حزيران ٦٧. وشهد لبنان تحولات قطاعية على مستوى الاقتصاد. لم يعد متاحا البقاء على اقتصاد يعتمد الزراعات البعلية سواء كانت القمح او التبغ او الحشيشة، وضاقت منطقتا الجنوب وبعلبك على سكانهما، الذين كان عليهم تدبر أمورهم. إتجهوا في غالبيتهم

الكبرى نحو العاصمة للعمل في قطاع الخدمات او الاعمال الأقل مردودا، وتضخمت الضواحي شيئا فشيئا، وهاجرت أعداد نحو مصادر الرزق في الخليج ودول الاغتراب. كانت هذه الاعداد محدودة بداية. لكن الكتل الكبرى هي التي باتت في العاصمة، أي على التماس مما تتيحه في التعليم والسياسة والاجتماع. ألوف الطلاب دفع بهم ذووهم نحو المدارس الرسمية، ان في الجنوب وبعلبك او في العاصمة. في السياسة ظلت العائلات هي هي إياها. وضمن صراعات على رئاسة المجلس بين جنوب الأسعد وبقاع صبري حمادة. أما في الاجتماع فلم يقتصروا على مناطق الضواحي بل بلغوا الى قلب المدن، حيث إمكانية التفاعل.. كان لبنان إذ ذاك مختبرا سياسيا صاخبا. على كل مفترق ترتفع الشعارات الصاخبة تنادي بالحرية والمساواة وتحسين الخدمات الصحية والاجتماعية والسكنية.. وأضافت معاناة الجنوب بارودا على نار متأججة. ونشأت ليس حركة «أمل» أولا، بل حزب الدعوة في ضاحية برج حمود، فيما كانت الجموع تنضوي في صفوف اليسار الشيوعي والقومي قبل ان تتآكل لصالح حركة الصدر الاصلاحية ومقاومة حزب الله الثورية وسط ظروف اقليمية مؤاتية لهما.

حركة الإمام الصدر

يروى أنه بين الثلاثينات والستينات من القرن الماضي، عندما كان زعماء الطائفة الشيعية يطالبون بتوظيف أبنائها في الإدارات والمرافق العامة كانوا يواجهون بجواب تقليدي من جانب السلطات التنفيذية المشرفة على الوزارات والمؤسسات ان ليس لديكم متعلمون. وكانت هذه الحجة صحيحة وغير صحيحة في الوقت ذاته. لكن منذ الستينات أخذت النخبة الشيعية تتضخم وتتسع في كل المجالات. وهذه النخبة أخذت تعتمد خيارات سياسية بمعزل عن الزعماء.

يقول بيضون: ان أساس الوزن الشيعي كان الوجود الكثيف في بيروت، وبداية نشوء حركة مؤسساتية أطلقها الإمام موسى الصدر، وكانت هناك قاعدة أموال الهجرة التي بدأت مع آل بيضون وهي انصبت على التملك العقاري الشيعي في العاصمة. وانوجدت بعض المؤسسات المصرفية وكان أهمها بنك بيروت ـ الرياض، وكان شراكة بين بيت منصور وبيت إده، ولاحقا تكون بنك الجمال وهو أصغر. وجود الشيعة في الأسواق والساحة التجارية شكل قاعدة. نمو النخب الشيعية تم عن طريق التعليم الرسمي بما في ذلك الجامعة اللبنانية. كل هذا لم يعد يتلاء م مع الهامشية الفاقعة في نظام ما بعد الاستقلال.

اثر وفاة الزعيم الروحي الديني لمدينة صور عبد الحسين شرف الدين في ١٩٥٨ دعي الامام موسى الصدر للحلول مكانه، وكان وصوله أواخر عام ١٩٥٩ او أوائل العام ١٩٦٠ ومنها انطلق نحو بيروت والبقاع ناهيك بالجنوب. بالطبع كانت هناك مراحل في مسيرته. اولى إنجازاته كانت تأسيس المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى عام ١٩٦٧. بعدها أخذت الطائفة موقعها ضمن نظام الطوائف اللبنانية، باعتبارها ليست اقل من سواها، بل موازية وموازنة للطائفتين الرئيسيتين الموارنة والسنة.

يلحظ د. علي الشامي انه بين تأسيس المجلس واعلان قيام حركة امل وصل الحرمان الى ذروته والاهمال الى قمته، خصوصا وان ذلك ترافق مع هزيمة حزيران وتوقيع اتفاق القاهرة مما عناه انفتاح الجنوب على الصراع العربي ـ الاسرائيلي في شكله الاعنف. فقبل منتصف السبعينات صاغ نواب الطائفة الشيعية بيان المطالب الشهير، الذي اعلن بوضوح ان المطالبة بحقوق الطائفة يستهدف مكافحة التمييز، معلنا قبول الغاء الطائفية في الوظائف واعتماد الكفاءة اذا اراد ذلك سائر اللبنانيين. يتضمن البيان الذي تم بإيعاز من الصدر جردة حساب مع الدولة. ثم منه نحو خطوات اكثر ضغطا من خلال المهرجانات التي شهدتها صور وبعلبك وبيروت.. كانت هناك نداءات ووثائق موقعة من فاعليات وشخصيات تجاوزت الطائفة الى سواها.. مما يعني ان حركة المحرومين واقعا، حاذرت الانقسام السياسي الاهلي الذي كان يطفو على السطح لاسباب اخرى. ويتنبه الشامي الى ان تأسيس هذه الحركة كان يختلف عن تأسيس مجلس لطائفة خاصة، ورغم ان اهداف التأسيس سعت الى إدراجه في سياق توحيدي اسلامي ووطني، الا ان مرحلة التأسيس الثاني وظروفه جعلت المشروع مرتبطا بشخص الامام ارتباطه بالمبادئ والاهداف التي لم يكن في مقدور غيره حينذاك ايصالها الى الآخرين وتأسيس السياسة والتنظيم على أساسها.

الالتباس الجنوبي

فتحت بوابة الجنوب على مصراعيها للقتال منذ العام ١٩٦٨. في العام ١٩٤٨ حدث بعض التهجير وكان مؤقتا ومحدودا. لكن الامر اختلف منذ التاريخ الاول. يقول المؤرخ احمد بيضون ان المعطى الفلسطيني لعب دورا ملتبسا في الجنوب، اي ذي حدين. فالشيعة يعرفون فلسطين قبل عام ١٩٤٨ وكانت حركتهم السياسية معادية للصهيونية ووحدوية. الحركة التي نؤشر اليها تتمثل بالنخب الجديدة والمثقفين. لا نتحدث عن الزعامات التي ضلعت ببيع الاراضي ولا ننسب لهم الوطنية. المثقفون والعلماء والشباب كانوا في هذا الجو عندما بدأ العمل الفلسطيني الذي وضعهم بين احتمالين. الاول منهما يفتح على القصف والتهجير والثاني على الرفض وبالتالي التناقض مع ذواتهم وتراثهم. فكان الخيار الاول وازنا. في هذا المناخ برز موسى الصدر وأسس المجلس الشيعي وحركة المحرومين التي صارت لاحقا حركة امل. الصدر كان في قلب هذا الالتباس. هو مع القدس والمواجهة ويدعو الدولة للنزول على احكامها وتحمل تبعاتها. وهو من جهة ثانية يعرف ان جماعته معرضة للتفكك تحت ثقل الفعل الفلسطيني والمخاطر المترتبة عليه. مما يجعل هذا المنحى محرجا جدا. وقد ظل هذا الالتباس موجودا طوال ٧ ـ ٨ سنوات بين ظهور المقاومة واندلاع الحرب الاهلية. الالتباس تمثل بالمواجهة والبلورة الطائفية. والأخير بلغت ذروته في تأسيس التنظيم. كان الصدر يواجه عدة مشكلات في نفس الوقت، وهي مشكلات تشرذم الشباب الشيعي بين التنظيمات اليسارية والفلسطينية. وكان يشتغل ان يكون معهم وفي مواجهتهم اذا لزم الامر.

يختم بيضون قائلا: في جميع الحالات كان المسلك الفلسطيني وجزء منه اختياري والآخر اضطراري قد ادى نهاية الى تغليب وجهة الخصوصية، بحيث انه في اواسط السبعينات كان قد تحول الى مكروه، وان ظل هناك شباب معهم وان كان بإحاطة اهلية اقل مما كانت عليه لدى الانطلاقة في العام ٦٧ ـ ١٩٦٨. العلاقة مع الفلسطيني لعبت دوراً في تسريع بلورة السير في الخط الذي كان قد بدأ قبلا، باعتبار ان الاشتباك الاسرائيلي ـ الفلسطيني كان تحديا ضخما وجديدا وثقيلا على الشيعة.

يعتبر الشامي ان حركة تسييس الاجتماع الشيعي مع الصدر وقبله حتى كان له هدف مزدوج هو رفع الحرمان وقضية الجنوب. هذان الهدفان استوجبا تحالفات سواء مع قوى تطالب بالتغيير في الداخل او مع الدول والقوى ذات الصلة بالجنوب وموضوعة الصراع العربي ـ الصهيوني. التطورات الجنوبية او الداخلية التي تتعلق بالحرب الاهلية عززت قناعة الشيعة بالتحالفات وضرورتها. الصدر حسم في خيار التحالف مع سوريا، منطلقا من ان الاخطار التي تهدد لبنان تتمثل بالتقسيم واحتلال الجنوب والتوطين، دون ان يعني تخليا عن دعم القضية الفلسطينية خارج سياقاتها اللبنانية.

الاحتلال والرد المقاوم

اكبر معارك حركة امل خاضتها مع القوات المشتركة المؤلفة من المقاومة الفلسطينية وأحزاب اليسار اللبناني. ظلت هذه المعارك تقض مضاجع قرى الجنوب واحياء بيروت وضاحيتها حتى صبيحة الغزو الاسرائيلي لبيروت. كان العنصر المقرر في هذا الصراع هو تحالف امل مع سوريا وتحالف الحركة الوطنية مع المقاومة. وعلى قاعدة التباين بين الرؤية السورية ـ الفلسطينية انفجر الموقف تباعا.

حدث الغزو والاحتلال وادى الى ما ادى اليه على الصعيد الفلسطيني من ترحيل للقوى المقاتلة، والى اصابة الحركة الوطنية بالصميم منذ اغتيال كمال جنبلاط وصولا الى وضع بشير الجميل على رأس السلطة في البلاد في انتخابات العام ١٩٨٢. حاولت الحركة الوطنية استعادة زمام المبادرة عبر اطلاق المقاومة من بيروت المحاصرة وشبه المحتلة والمنقسمة على نفسها. لكن عنصر التحرير في ظل القبضة الاسرائيلية كان ينطلق هذه المرة من البقاع، في ضوء حضور العامل الايراني. فضلا عن السوري الذي بات على خط تماس مع القوات الاسرائيلية التي باتت على بعد قليل من بوابة المصنع.

كان من غير المألوف ان تتولى «أمل» عبء التجييش القتالي لمواجهة الحملة الاسرائيلية، خصوصا وان ذيول مرحلة ما قبل الاجتياح امتدت حتى العام ١٩٨٥ عندما احتدمت حرب المخيمات الضارية. لذا فان من سيتولى هذه المهمة سيكون حزب الله دون سواه وعلى نحو متصاعد وصولا الى التحرير.

يقول نائب الامين العام الشيخ نعيم قاسم: لقد باشر حزب الله عملياته بما تيسر له من امكانات وبعناصر بشرية قليلة، وكانت معسكرات التدريب التي يشرف عليها الحرس الثوري الاسلامي الايراني في منطقة البقاع هي الخزان الرئيسي لرفد «المقاومة الاسلامية» بالمجاهدين وللاستفادة من التعبئة الثقافية والاخلاقية والجهادية التي كان يتميز بها شباب الحرس، وقد شارك الجميع في هذه الدورات بصرف النظر عن مستوياتهم التنظيمية او وظيفتهم العملية.

الى أين المصير

ستمر مرحلة على حزب الله حتى «يتلبنن» على نحو ما، اذا جاز التعبير، مرحلة معقدة تتداخل فيها مستويات متعددة من تفاعل الداخل مع الخارج وتأثير الثاني على الاول. لكن المهم الآن في هذا المفصل، حيث تشخصنت حركة امل بزعامة الرئيس نبيه بري، وان كانت تحولت اقرب ما تكون الى تيار منها الى حركة سياسية مؤطرة ومنظمة على نحو هرمي. زعامة كبرى تفيض على الحركة، التي تظل وازنة وذات موقع في معادلات زاحفة ليس على الجنوب مفردا، او على لبنان وطوائفه بل على المنطقة بأسرها، بالطبع الحركة والحزب معا في قلب الاحتمالات ولكل منهما حساباته الداخلية وفي المنطقة.. هذا ناهيك بالوزن الاميركي الضاغط بثقله على القوى التي كانت حتى الأمس القريب تتمتع بما يشبه حرية الحركة في الدعم والاسناد وتوفير الغطاء السياسي والمقومات المادية، فضلا عن تنسيب «المشاريع الصغرى» الى مشروعات اكبر، وان كانت دون مستوى عملية الصراع العربي ـ الاسرائيلي كما تعودتها المنطقة.

يقول المؤرخ بيضون ان مرتكز قوة حركة امل ينبع من النفوذ السوري من جهة ومن الموقع الذي يشغله في الدولة اللبنانية، وبالتالي فان عصب الحركة الامكانات التي تعتبر حصة الشيعة ضمن نظام المحاصصة في الخزينة والوظائف والمشاريع. هذه الحصة ملزمة بشكل شبه حصري لها.

أما تنظيم حزب الله فانه تنظيم يقوم على علماء الدين وان كان لا يستقطب كبارهم. لقد انتج الحزب صفا واسعا من العلماء ووصل الى اوساط لم يكن لها علاقة سابقة بالعمامة، ولديه لغة فقهية ـ دينية متصلة بالخطاب الايراني، ولديه موارد بدأت كما هو معروف بغلبة ايرانية، ولكن يبدو انها تطورت نحو الاعتماد على مرتكزات ما يسمى «الجباية الشرعية» من ذوي الامكانات من الشيعة في لبنان وخارجه الذين يستحسنون تأدية الخمس والزكاة الى علماء ومؤسسات متصلة بهذا التنظيم بسبب تجربتهم السياسية وتقديرا لدوره وتجربته. والواضح ان الجذور الاهلية لمرتكزات الحزب اصبحت اكثر رسوخا وقابليتها للاستمرار على سويتها الراهنة، ربما لا تكون مضمونة في حال حصول تطورات اقليمية كبرى، لكن لها حظوظ لا يستهان بها في الاستمرار. اما حظ الطرف الثاني في البقاء على حجمه الحالي فمرهون باستمرار الضمانة السورية لموقعه في الدولة. ما عدا ذلك هناك شبكات انتفاعية متصلة بهذا الطرف تضمن له حضورا تبعا للتقاليد اللبنانية العريقة سياسيا، وخلط الخاص بالعام والانتفاع.

ما عدا هذين التنظيمين هناك شخصيات وتنظيمات ولكنها في وضع الحاق او مواقع ثانوية بالقياس الى هذين القطبين الكبيرين. يختم المؤرخ بيضون حديثه.

المطلوب والدور

يعتبر د. علي الشامي، في الموضوع السياسي ان المطلوب من الحزب هو غير المطلوب من امل. الحركة ليس لديها تقنيات وقوى عسكرية تضعها على لائحة الاولويات. اسرائيل تطالب بسحب السلاح من الجنوب. بعدها وفي حال الحصول على مطلبها الأول ستدعو الى وقف التحريض في وسائل الاعلام. اذن عندما تقدم تنازلا تطالب بالمزيد. حزب الله لديه مجموعة عوامل تجعله

مستهدفا اكثر من الحركة وهذا طبيعي ومعروف. نحن الآن في مرحلة ترتيب شروط السيطرة الاميركية على المنطقة، ومصالح اسرائيل جزء من هذه السيطرة وهي غير منفصلة عنها بالضرورة كما أكدت كل الوقائع. هناك دور لحزب الله كما استقرت عليه المعادلات معروف يتمثل بتأمين المقدمات للترتيب المطلوب من حلول على المسار السوري واللبناني والاسرائيلي. هناك كلام يتردد حول الانسحاب من مزارع شبعا او الجولان. اي تجريد التحالف اللبناني ـ السوري من اوراق الاعتراض باستثناء التوطين الذين سيكون العقدة الاساسية. الاميركان سيضغطون لتمرير التوطين، وهذا يتطلب ترتيبا داخليا وليس انفجارا. اما فيما بعد، فسيعاد ترتيب الحجم الداخلي لحزب الله في المعادلة الداخلية. وهذا يتطلب ترتيبا شيعيا ـ شيعيا. هل يؤدي ذلك الى اضعاف الطرفين؟ ام الى تحصين الشراكة الشيعية في الدولة؟ هذا متروك للتطورات و.. من الصعب توقع مآل الدور السياسي للشيعة في لبنان. إذ ان ما هو مطروح ليس موضوع سلاح. السلاح ليس مهما. الاساس هو الموقف السياسي لأنه يخلق السلاح، فيما اميركا واسرائيل تعملان على تجريد المجتمع من ارادة المقاومة واخراج لبنان من الصراع.

يضيف الشامي: من قرر اقامة علاقة تحالف استراتيجي مع سوريا وربط مصيره بها، فان ما يصيبها يصيبه بالضرورة. هناك ارتباط مصيري. ومن له ارتباط عقائدي مع ايران يستطيع الاستمرار عليه، حتى وان تطلبت التطورات بعض التفلت السياسي. بكل حال لا يمكن فصل مآل مكانة وموقع كل من حزب الله وحركة امل عن مآل السياسة الاميركية تجاه كل من ايران وسوريا. علما ان سوريا بحكم الجغرافيا الاكثر تأثيرا.. لكن يبقى ان اميركا لا تستطيع ان تمارس السيناريو الافغاني او العراقي ضد سوريا او ايران. كانت هناك ثلاث دول فقط معترفة بافغانستان والعراق كان محاصرا... حسابات الضغوط الدبلوماسية والاعلامية والاقتصادية شيء والحروب شيء آخر. ينهي الشامي حديثه.

رغم ما يقدمه الشامي لا يبدو موضوع الحضور الشيعي حصريا من خلال العلاقة مع الراعيين الاقليميين سوريا وايران، اذ الفعلي انه اشد اتساعا من هذه الشبكة من العلاقات. اذا استطاع الشيعة بين العام ١٩٢٠ والعام ٢٠٠٣ الذي نعيشه تحقيق تراكم في كل المجالات. ما كان يصح في الستينات لم يعد ممكنا الآن.. هذا التراكم الذي شمل كل القطاعات والمواقع دون استثناء كان لا بد وان يفرز حضوره الوازن، معطوفا بالطبع على نتائج الحرب على صعيد الطائفة، وما أدت اليه من تراكم في اموال المرافئ والمرافق بالنسبة لحركة أمل، ومن مواقع نفوذ وتأثير بالنسبة لحزب الله.. وما شهدته الكتل الطائفية الاخرى.. اذن هناك معطى داخلي حقيقي يحصن بعض الشيء الاجتماع الشيعي وان كان لا يحقق له الحماية الكاملة في ظل العلائق والارتباطات في غمرة التحولات العاصفة.

حزب الله: التأسيس والتصورات النظرية

يعتبر وصول واحدة من كتائب الحرس الثوري الايراني الى لبنان صيف العام ١٩٨٢ الحدث المفصلي الأول الذي قاد الى مفاعيل بالغة الاهمية على صعيد العمل الشيعي في لبنان، وبالتالي على تشكيل حزب الله أولا والمقاومة الاسلامية ثانيا.

واكب وصول هذه الكتيبة، التي رابطت بعض الوقت على خط التماس مع قوات الاحتلال لاسرائيلي في غزة ـ البقاع الغربي، قبل ان تعود الى بعلبك، تفكك في حركة أمل عبرت عنه عملية الانشقاق التي قادها مؤسسو «أمل الاسلامية». كانت التظاهرة التي شهدتها بعلبك للحرس الثوري حدثا ذا أهمية، إذ أنها تعتبر بداية الظهور العلني للحزب، الذي ساهم في تأسيسه عدد من كوادر حزب الدعوة.

وخلافا للحركة نأى المؤسسون للحزب، وهم جميعا من ذوي الثقافة الدينية وفي ثلاثينيات أعمارهم، عن أي صراع من هذا النوع مغلبين الصراع مع العدو الاسرائيلي والولايات المتحدة عما سواهما.. وفيما كان التنظيم بداية عبارة عن تجربة أولية، سرعان ما أخذ يعتمد شكلا مؤسسيا من خلال مجلس الشورى أولا، ثم عبر اللجان التي شكلها لإدارة مختلف شؤونه.

وتعتبر «الرسالة المفتوحة التي وجهها حزب الله الى المستضعفين في لبنان والعالم» في السادس عشر من شباط ١٩٨٥ وبيّن فيها تصوراته، الصياغة الاولى لنظريته التي تعرضت لتعديلات متلاحقة لا تمس جوهرها، وإن كانت تخفف من غلواء ما ورد فيها في جوانب تتصل بالنموذج الإيراني والوضع اللبناني وما الى ذلك.

تتألف الرسالة من ٢٩ صفحة من القطع الكبير وهي مهداة الى شيخ الشهداء راغب حرب في ذكراه السنوية. تحدد الرسالة هوية حزب الله على النحو التالي: إننا أبناء أمة حزب الله نعتبر أنفسنا جزءا من أمة الاسلام في العالم التي تواجه أعتى هجمة استكبارية من الغرب والشرق على السواء.. إننا أبناء أمة حزب الله التي نصر الله طليعتها في إيران وأسست من جديد نواة دولة الاسلام المركزية في العالم.. نلتزم بأوامر قيادة واحدة حكيمة عادلة تتمثل بالولي الفقيه الجامع للشرائط، وتتجسد حاضرا بالإمام المسدّد آية الله العظمى روح الله الموسوي الخميني دام ظله.. مفجر ثورة المسلمين وباعث نهضتهم المجيدة.. أما ثقافتنا فمنابعها الأساسية، القرآن الكريم والسنة المعصومة والأحكام والفتاوى الصادرة عن الفقيه مرجع التقليد عندنا...

يحدد الحزب أهدافه بخروج إسرائيل نهائيا كمقدمة لإزالتها من الوجود وكذلك بخروج أميركا وفرنسا من لبنان ورضوخ الكتائبيين للحكم العادل ومحاكمتهم على جرائمهم، وإتاحة المجال لأبناء شعبنا لاختيار شكل نظام الحكم الذي يريدونه، علما أننا لا نخفي التزامنا بحكم الاسلام وندعو الجميع الى إختيار النظام الاسلامي الذي يكفل وحده العدل والكرامة.. لذا فإننا لا نريد أن نفرض الاسلام على أحد، ونكره أن يفرض الآخرون قناعاتهم وأنظمتهم علينا، ولا نريد أن يحكم الاسلام في لبنان بالقوة.. لكننا نؤكد أننا مقتنعون بالاسلام عقيدة ونظاما فكرا وحكما، وندعو الجميع الى التعرف عليه والاحتكام الى شريعته كما ندعوهم الى تبنيه والالتزام بتعاليمه على المستوى الفردي والسياسي والاجتماعي، وإذا ما أتيح لشعبنا أن يختار بحرية شكل نظام الحكم في لبنان فإنه لن يرجح على الاسلام بديلا.

جذور العلاقة العاملية بالنجف وحصاد قوافل العلماء

«من منكم يريد ثياب الرقاق - الحرير - والخيل العتاق - الاصيلة - وكنوز الارزاق والدم المهراق، فليلحق بأرض العراق». هذه الكلمات التي ما تزال حتى اللحظة تتردد في جباع، ويحفظها العلماء في انحاء اخرى من الجنوب، تحمل بعض تعبيرات العلاقة بين شيعة لبنان والنجف وكربلاء او العتبات المقدسة. وهي علاقة كانت وما تزال راسخة مع الجنوبيين، لاسيما كبار رجال الدين منهم، وبدرجة اقل مع البقاعيين.

والعلاقة الشيعية مع النجف قديمة، وهي اقدم بمئات السنين من كيان لبنان والعراق الحديثين. وتضرب جذورها الى ما قبل قيام الامبراطورية العثمانية حتى، وتحديدا الى المرحلة التي تحولت فيها النجف الى مركز علمي على يد الامام ابي جعفر الطوسي، اي قبل حوالى ألف عام من تاريخ اليوم.

بالطبع لم تسر هذه العلاقة على سوية واحدة، كانت تتأثر مدا وجزرا بجملة اوضاع بعضها يتناول جبل عامل وبعضها الآخر العراق عموما والنجف خصوصا. فضلا عن المحيط وما يشهده من احداث كبرى، لكنها استمرت على وتائر مقبولة. بالتأكيد تركت هذه العلاقة بصماتها على جبل عامل، وعلى موقع العلم فيه، والمقصود بالعلم هنا، العلم الديني والأدب والشعر. لكن علماء جبل عامل لم يقتصروا على النجف في بحثهم عن الثقافة الدينية. تقرأ في رحلات القدامى منهم زيارات علمية الى كل من القدس ودمشق والقاهرة ومكة والمدينة. لكن النجف ظلت المقصد الدائم. كان يضاف إليها زيارة سواها، لكنها دوما كانت البداية. برغم الطابع الديني لهذا التوجه، لم يكن هؤلاء الذي تعددت افواجهم وتتابعت زمناً في الأحقاب منغلقين على ذواتهم. كانت نظرتهم قومية وواسعة الى الحد الذي يمكن القول ان كلتا البيئتين العاملية والنجفية توصلت الى هذه الصياغة المعبرة باعتبارها السبيل نحو حل اشكاليات كبرى تتجاوز مواقعهم الموضعية الى المنطقة بأسرها.. خصوصا في العهد العثماني، لاسيما في النزع الأخير منه.

لكن النجف لم تترك بصماتها على الثقافة الدينية والأدبية لجبل عامل فقط، اذ كانت وما زالت حاضرة في ما يتعدى ذلك، في اللكنة التي تسمعها من البعض، في المأكل، في المشرب و.. وفي الكثير من العلاقات التي ظلت قائمة برغم «بعد الشقة» بين الدراسة وهذه الايام. هذه الآثار ما تزال اكثر حضوراً في «بيوتات» العلم الجنوبية، لكنها لا تتحدد بهم اذ تسربت الى سواهم من الاهالي، بمن في ذلك اولئك الذين لم تتح لهم الفرصة لزيارة النجف. اخذوها عمن سبق.. لكن الأهم ان هناك ما يتعدى ذلك كله، الى خصوصية باتت اكثر تعبيرا عن نفسها عندما اتيح لها المجال لتفعل ذلك بعد سنوات القهر والمنع والحظر. قصة العلاقة بين الشيعة والنجف قصة قديمة من الصعب اختزالها، اذ انها في الواقع عميقة في الوجدان العام، وهو أمر ما كان له ان يحدث لولا تلك الجذور الضاربة عميقا في التراب المقدس سواء كان في الجنوب او العتبات المقدسة في ارض العراق.

ولنبدأ حكاية هذه العلاقة مع بعض الذين اختبروها:

يضع المؤرخ د. ابراهيم بيضون هذه العلاقة في اطارين، خاص وعام. على الصعيد الاول يشير الى الجذور المبكرة للنهضة العلمية في جبل عامل، وهي نهضة طُمست على ايدي الحكام المماليك اولاً والعثمانيين ثانياً. ومن المعروف ان الشهيد الاول محمد بن مكي الجزيني لوحق وأعدم في قلعة دمشق على يد المماليك. يربط بيضون هذه النهضة بالشعور الأقلوي كحافز نحو العلم والتطور، وهو ما عبر عنه الشهيد الاول في قصيدة يقول في احد أبياتها: فكان لهم حظ من الجاه والغنى / وكان لنا حظ من العلم والفقر.

أما الجهة العلاقة فهي تعود الى القرن الرابع الهجري اي الألف الميلادي. وقد استمرت هذه مع اعلام عامليين لا يمكن احصاؤهم لكثرتهم. وكان اول عمل يقوم به العائد هو فتح مدرسة. يضرب د. بيضون هنا العديد من الامثلة على البيوتات العلمية وما أرسته من مدارس (الجزيني، الجبعي (الشهيد الثاني)، بهاء الدين العاملي، آل الامين، فضل الله، شرارة، عز الدين، سبيتي، خاتون، شرف الدين، صادق، الحر، مغنية، نور الدين و..).

ويؤكد بيضون ان التفاعل لم يكن مقتنا بالنجف، اذ كان هناك مثله مع كل من فلسطين ودمشق، ولا سيما مع الاولى في مرحلة ضاهر العمر وهو من قبيلة زيدان، وثار طامحاً الى الزعامة. وقد نسق مع علي بك الكبير في مصر... حتى العام ١٩٤٨ كان عدد الذين ترددوا على بيروت من بنت جبيل لا يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة، فيما كان جبل عامل برمته مرتبطا بالمركز الاقتصادي الفلسطيني في حيفا. اضافة الى علاقات التواصل العائلي والاجتماعي والاقتصادي مع القرى الفلسطينية قبل ما يسمى الانتداب على البلدين.

إنعام قدوح التي وضعت دراسة ماجستير حول «الهجرة العاملية الى النجف الاشرف»، تعود بالعلاقة الى مرحلة تشيع جبل عامل، مع ذلك لم تنحصر الهجرة العاملية بالنجف، اذ تجاوزتها الى الحلة. اذان العامليين قصدوا الحوزات العلمية العراقية برمتها. ويكفي ان نشير الى العلامة الحلي وشهرته الذائعة. لكن قدوح لا تحصر الهجرة بالدراسة، اذان اوجه العلاقة اتسعت عن هذا الغرض فشملت مواسم الزيارات خصوصا: عيد الغدير، مولد الرسول، ذكرى كربلاء، اربعون الامام الحسين...

وتشير قدوح الى تفاعل على صعيد العلاقة. اي ان جبل عامل لم يكن فقط بموقع المتلقي والمتأثر بالمدرسة النجفية او الكربلائية او الحلية. اذ انها تقول انه اثر الضغط الذي تعرض له العلماء الجعفريون اثر مصرع الشهيد الثاني، غادر قسم منهم الى العراق. وهكذا رد العامليون بعض ما أخذوه من حوزات العراق. واللافت كما تذكر قدوح ان الرحلات العلمية شملت كل القرى والبلدات الجنوبية دون استثناء تقريبا.

علاقات وروابط

المفتي السيد علي الامين لا يشك بأن العلاقة بين جبل عامل والعراق عموما وجامعة النجف الأشرف خصوصا، علاقة تمتد الى قرون عديدة ومن خلال هذه العلاقة العلمية نشأت روابط بين عائلات في جبل عامل وعائلات عراقية، واستمرت هذه العلاقات واستمر التعلق بالنجف الاشرف حتى في ظل النظام السابق.

د. بيضون يعتبر ان هذه الرحلات المتواصلة لم تؤدّ الا الى زيجات محدودة جدا. اذ ان الاستقرار في العراق كان نادرا. زوجات العلماء كن في الغالب من العامليات لكن - يتابع بيضون - تبرز في هذا السياق العلاقة الاجتماعية بين آل الحكيم مع بنت جبيل. فقد قدم جد باقر الحكيم الى بنت جبيل في الثلاثينيات وتزوج فيها وترك احد ابنائه بها، وهو واحد من اكبر قراء مجالس العزاء، أما ابنه الآخر محسن الامين فقد اصبح مرجعا للطائفة، ويضيف بيضون: هذه الاسرة من اصل عربي لها فرع في إيران يعرف باسم الطباطبائي. وهذا ما يؤكده السيد محمد بحر العلوم ايضا.

يتفق العلامة محمد حسن الأمين مع كل الذين يتحدثون عن علاقة تعود الى قرون. ويرى الامين ان سر هذه العلاقة يعود الى ملابسات ظروف الشيعة اللبنانيين. علما بأن النجف باتت هي المركز العلمي والثقافي العام للشيعة منذ ان أسس الحوزة العلمية فيها الشيخ الطوسي. بالطبع - يتابع الامين - لم تقتصر دراسة العامليين على النجف، اذ ان المدارس العاملية كانت منتشرة في البلدات والقرى. وقبل القرن التاسع عشر كانت جزين مركزا للتعليم الشيعي العالي، ومنها انتشرت في شقرا وميس وحناويه وعيناتا.. الا ان هذه المدارس كانت تخرج رجال دين يقومون بمهمات دينية في قراهم وبلداتهم. وكان قسم من هؤلاء الذين تظهر لديهم القابلية للتخصص والتعمق في العلوم الدينية يرتحلون الى النجف. وكان المحيط الدراسي والعلمي ورغبة الاشخاص والجو الاسروي والعائلي هو من يقرر ذلك. الجو الأسروي كان عاملا أساسيا في توجه الابناء نحو النجف، وهو ما اصبح يعرف بظاهرة الاسر العلمية في جبل عامل التي وجهت عددا من ابنائها لتلقي العلوم، باعتبار ان ما هو متوافر محليا قد انجزوبات قاصرا عن إشباع الحاجات الى الاستزادة.

يتابع الأمين قائلا: لا يخفى انه في العصر العثماني كانت الطائفة الشيعية تواجه حصارا، الى الحد الذي بات النجف الاشرف هو المصدر الوحيد للتخصص في العلوم الدينية. وفي النجف كان هناك كبار المراجع والعلماء والمدارس والحوزات العلمية التي يرتادها الطلاب من كافة مناطق الانتشار الشيعي في العالم: إيران، الهند، باكستان وأفغانستان.. ومن البديهي ان يتوجه ابناء جبل عامل إليها أسوة بسواهم، باعتبارها الحاضرة العلمية والفقهية الكبرى.

قضاء عرفي شيعي

ما أشار إليه العلامة الأمين حول معاناة الطائفة الشيعية في العصر العثماني يتطلب المزيد من الايضاح، وهو ما يتولاه الاستاذ الجامعي د. احمد بيضون الذي يقول: في العهد العثماني لم يكن هناك ما يجسد وجود طائفة اسمها الطائفة الشيعية داخل أراضي الدولة العثمانية. فقانون الاحوال الشخصية العثماني لم يعترف بوجود هذه الطائفة. وعليه فإن السلطة العثمانية ألحقتها قضائيا بالمذهب الحنفي، وكان المواطنون الشيعة عندما يضطرون الى التقاضي مرغمين على التوجه نحو القاضي الحنفي، هذا إذا فاضت المشكلة عن حدود علاجها ضمن مسؤولية علماء الطائفة. اذن كان هناك قضاء عرفي شيعي، خارج عن السلطة ولا صفة رسمية له لممارسة عمل القضاء. المعروف انه في مجتمع ريفي كمجتمع جبل عامل في حينه كان الزعماء والوجهاء ايضا يتدخلون في مسائل الزواج والطلاق ودية القتلى وخلافات حدود الارض وما شابه.

وكان اللجوء الى هؤلاء هو البديل للجوء الى القاضي الحنفي في صيدا او سواها، اذن - يضيف بيضون - لم يكن العلماء الشيعة موجودين كهيئة. بالتأكيد كان هناك نوع من التراتب بينهم يتعلق بالاجتهاد وعدمه، لكن هذا التراتب كان عرفياً، اي انه لم يكن مجسدا بأي مؤسسة ولا يصدر عن سلطة إلزامية لأي عالم دين شيعي على عالم آخر. مثلا عندما نصل الى العام ١٩٢٠ نرى عددا من المجتهدين المعترف بهم. اهمهم كان السيد محسن الأمين المقيم في دمشق، والسيد عبد الحسين شرف الدين الذي اقام في شحور اولا وصور ثانيا، الشيخ حسين مغنية الذي اقام في طيردبا والشيخ عبد الحسين صادق الذي اقام في النبطية. هؤلاء وربما كان هناك غيرهم كانوا يعتبرون من المجتهدين. في وقت من الأوقات اعطي الشيخ مغنية بالنظر الى سنه وضعية تقدم على الآخرين الذين هم من صفه، الا انه لم يكن هناك من مجلس او جمعية. وعندما يموت عالم في قرية وهو اقل من مجتهد، كانت القرية تتفاهم على الإتيان بعالم محله ضمن مقاييسها، وكان يؤمن له بيت ومصدر معيشة يعتمد على تبرع القادرين بصورة دائمة، وأحيانا كانوا يزوجونه اذا كان آتيا من النجف ويتوطن القرية او البلدة. احيانا لم يكن هناك اضطرار لإحضار عالم من الخارج، اذ يكون قد اعد ابنه فتظل المسألة داخل السلالة.

اذن كانت الامور تتم على مستوى غير رسمي او اهلي كما يستخلص بيضون، وكان الاحتياج للعلماء يقتصر على الفتاوى، خصوصا عند وصول الاشكال الى مستوى الوجهاء وأوزانهم، وكان يحدث ذلك لدى الشروع في بناء جامع او حسينية او ادارة وقف، عندها يتم اللجوء الى العالم اذا لم يستطع الشيخ المحلي معالجة الأمر. فيفتي الاول بذلك.

الرحلات العلمية

كان عدد قاصدي النجف من العامليين يتفاوت بين عام وآخر. احيانا كان يصل الى سبعين طالبا. لكنه كان يقل عن ذلك في بعض الاحيان. كان هؤلاء اللبنانيون يعتمدون بشكل رئيسي في معاشهم على سواهم. ولم يحدث ان قدمت الدولة اللبنانية، وقبلها الدولة المنتدبة، ما يعينهم في رحلتهم. تقول قدوح ان الطلاب اللبنانيين في معظمهم من ابناء فئات فقيرة، خلاف الطلاب الايرانيين الذين كانت اصولهم الاجتماعية في طبقة الاغنياء. الى ان حدث تطور رئيسي طرأ على وضع الطلاب ادى الى ارتفاع عددهم الى حوالى ٣٧٠ طالبا. حدث ذلك عندما عمل كل من الشيخ حسن عسيلي ومحمد تقي الفقيه على تأسيس «المدرسة اللبنانية في النجف». فقد قصد العسيلي

والفقيه الكويت ومنها جمعا اموالاوُضعت في بناء المدرسة، ما يعني ان الطالب بات يجد مكانا له في النجف من خلال المدرسة.

هذا المكان الذي يقصده الطالب الحوزوي، هل يفصله عن المجتمع النجفي؟

يرد العلامة محمد حسن الأمين على هذا السؤال قائلا: في النجف الاشرف يكون الطالب ضمن المجتمع الحوزوي العلمي، ويمضي معظم اوقاته وربما كلها في هذه الدائرة، لأن سعة العلوم التي يذهب لتحصيلها لا تسمح بأن تكون للطالب اهتمامات اجتماعية خارج اطار تحصيله، خصوصا انه لا يقتصر في تحصيله على حضور حلقات الدرس المتعددة في اليوم الواحد، بل إن لقاءاته مع زملائه او اساتذته تدور غالبا حول المسائل العلمية نقاشا وتمحيصا ليلا ونهارا، بحيث تغدو الاوقات الاخرى نادرة، بما لا يسمح له بإقامة علاقات اجتماعية.

يتابع العلامة الامين قائلا: والنجف التي تعد مجالا لدراسة العلوم الشرعية، كانت عبر تاريخها منطلقا لحركة ادبية شعرية، جعلت منها اهم المراكز الادبية في العراق وفي العالم الاسلامي. الكثير من الطلاب الذين تجتذبهم المجالس والندوات الادبية كانوا يحضرونها، وهذا ما جعل عددا كبيرا من الفقهاء الذين تخرجوا من النجف شعراء وكتابا والاغلبية الساحقة ذواقة للشعر والأدب بصورة عامة. فمجتمع النجف هو مجتمع علمي وأدبي في آن واحد. والحصول على ثقافة أدبية كان يتوقف على ميول الطالب ورغباته، بحيث إنه يجد المجال واسعا لتنمية ملكاته الأدبية، إضافة الى مهمته الأساسية لتحصيل العلوم الاسلامية.

التأثر العاملي أدبياً

كيف انعكس مثل هذا الوضع على الحركة الأدبية في جبل عامل؟ يرد د. ابراهيم بيضون: كان المنبر قبل القرن العشرين هو الوسيلة الوحيدة تقريبا. والمنبر هنا لا نقصد به المنبر في الجامع او الحسينية، بل كل منبر، ففي المناسبات الاجتماعية والسياسية ينعقد المجلس، وكان يجري ذلك في البيوت ايضا. وكان النقاش يدور حول العلم والشعر والأدب. لذلك راجت مطارحات الشعراء. كل العلماء او غالبيتهم كانوا يتعاطون الشعر. وكان الشعر عنصرا إضافيا في ثقافة العالم او الفقيه. بالطبع هذا ناتج عن التأثر بالمناخ الشعري للنجف. وكانت صورة هذا المناخ تنتقل الى جبل عامل بعد عودة العالم الى دياره. كما أن عددا من العراقيين كانوا يفدون الى جبل عامل. حدث هذا في الثلاثينيات، لاسيما مع بروز طقوس عاشوراء في سوق النبطية.

هناك جانب سياسي لا بد من لحظه في الشعر العاملي، وهو يتعلق بالطابع العروبي له. يعيد د. ابراهيم بيضون ذلك الى الجذور العربية للتشيع. أكثر القبائل العربية التي والت الإمام علي كانت من الأنقى أصولا: همدان، مذحج، نخع، بجيلة... هذه كانت مادة التشيع. لذلك كان جبل عامل في مطلع القرن العشرين الأكثر تفاعلا مع الحركة العربية. على سبيل المثال: عبد الكريم الخليل زار بنت جبيل في مطالع القرن، وكان يلتقي بشخصيات علمية ونهضوية. وكان قبلا في الغبيري والاستانة وأعدم جراء نزعته القومية. موسى الزين شرارة روى ذلك في دفتر ذكرياته العاملية، حتى إن محمد جابر آل صفا عندما يتحدث عن تاريخ جبل عامل، إنما ينطلق من خلفية قومية واضحة.

يتابع قائلا: مجلة العرفان الشهيرة كانت التعبير الأوضح عن الحالة السياسية والثقافية في جبل عامل. وعبّرت عن الخط السياسي العروبي الذي التزمه رجال جبل عامل في تلك المرحلة. صحيح انها كانت مجلة ذات طابع إسلامي، ولكنها تبنت العروبة وحرصت في منهجها على أن تكون مجلة وحدوية على هذا المستوى. هذه المجلة كانت المدرسة الكبرى للشيعة في جبل عامل خلال النصف الأول من القرن العشرين. وهذا كان عصرها الذهبي، وكانت المنبر الأكثر سطوعا لأدباء وشعراء وعلماء لبنان وسوريا ومصر والأردن وفلسطين والعراق.. كل هؤلاء كانوا ينشرون نتاجهم فيها.. لم يكن لدى علماء جبل عامل نبرة أصولية، كل شعرهم ينطق بالروح العربية الاصيلة.. لقد أثر الشعر العراقي عموما والشعر النجفي في الصورة الشعرية لشعراء جبل عامل، كما أثر في الافق السياسي له. ولا ننسى ثورة النجف في العام ١٩٢٠ معطوفة على ثورة الشريف حسين على الدولة العثمانية.. والحصيلة أن جبل عامل كان يعج بالنشاط السياسي والفكري والأدبي وقد استمر ذلك حتى الستينيات مع ما حملته من تطورات.

يلحظ د. أحمد بيضون أن المدارس الدينية في جبل عامل ضعفت خلال مرحلة الانتداب عما كانت عليه في القرن التاسع عشر، برغم استمرار التوجه نحو النجف للحصول على التعليم الديني. إلا أن بيت القصيد هو أبعد من ذلك، إذ يرى أحمد بيضون أنه خلال تلك الفترة كان العلماء يتميزون بتبعية واضحة للإقطاعيين الكبار. والسبب في ذلك اجتماعي. فالاقطاعيون كانوا يسيطرون على وجهاء القرى، وهؤلاء مصدر معيشة المشايخ، كما ان الاقطاعيين كانوا مالكين لعدد من القرى، مثلا بيت الأسعد كان لديهم عدد من القرى قبل بيعها الى الوكلاء والفلاحين لاحقا. لكن في المراحل المذكورة كان هذا الاقطاع ما زال بحوزته ملكيات كبيرة. وبما أن الشيخ هو عالة على أهل القرية لتدبيرهم أموره المعيشية، فقد كان مضطرا لاستجداء الزعيم، الذي تتعلق به معيشة القرية لاعتمادها على الزراعة التي يملك أرضها هذا الاقطاعي. لذلك كله كان العلماء في موقع ضعف بالنسبة للزعامات. يضيف د. أحمد بيضون: المجتهدون الكبار أمثال عبد الحسين شرف الدين، كان لهم ولاء نادرا ما تقطع او اضطرب مع البيت الاسعدي. عبد الحسين صادق والد حبيب مثله أيضا. حبيب هو أول من شق عصا الطاعة.

الامثلة التي ساقها بيضون لا تلغي الصورة الاجمالية للنهضة الثقافية، لكنها تضعها في نصابها، حتى لا يبدو الكلام شاملا دون تدقيق. علما ان ما ينطبق على هذا قد لا يصح على ذاك. إذ كلا الموقفين الثوري والمهادن كانا حاضرين. لكن أحمد بيضون يختم بالاشارة الى الفقر في العلماء في البقاع، بل وهزالة الهرم الديني الشيعي فيه بالمقارنة مع جبل عامل. هذه الخاتمة التي يقدمها تثير سؤالا حقيقيا حول المفارقة بين منطقتين تنتسبان الى ذات الفكر، وتتقاربان في أوضاعهما المعيشية، لكنهما تختلفان على نحو جذري في الثقافة سواء كانت دينية أو دنيوية.

ماذا عن البقاع

يتركز الوجود الشيعي في منطقة بعلبك ـ الهرمل، وتتبع بعض القرى والبلدات الشيعية قضاء زحلة، اضافة الى البقاع الغربي على حدود البقاع مع الجنوب. الحركة الثقافية في جبل عامل امتدت الى قرون متواصلة فلماذا لم يشهد البقاع ما يماثلها؟

ردا على السؤال يمكن القول ان البقاع عرف الكثير من العلماء. اعتبر الكثيرون من المتقدمين منهم في عداد علماء السنة. لكن لدى

الشيعة تذكر المرجع الكركي نسبة الى كرك نوح وهو صاحب تحويل إيران الصفوية الى المذهب الجعفري او الاثني عشري. هناك سواه أيضا. لكن هذه ظلت حالات معدودة، ولم تشكل تيارا ثقافيا له تاريخه التواصلي، سواء عبر أسر او أسماء متلاحقة.

يقول مفتي البقاع الجعفري الشيخ خليل شقير، وهو شاعر أيضا، إن لديه إجابة ظنية على هذا المشكل: إذ يخيل اليّ أن وجود المسلمين الشيعة في البقاع نجم عن انتقال وهجرة الشيعة من كسروان في أيام المماليك وابن تيمية. ويتابع: وذكرت ابن تيمية نظرا لفتاواه. بهذا المعنى كان الشيعة جددا في البقاع بالمقارنة مع رسوخهم في جبل عامل. ومن ثم فعندما أتوا الى البقاع لم يقيموا في السهل. كانوا يطاردون عنه، لذلك تعلقوا بسلسلة الجبال الشرقية والأماكن القاحلة البعيدة عن الحضارة. بينما كان قسم من شيعة جبل عامل يسكنون قرب بحيرة طبريا ونابلس وسواها، ومنها انتشروا الى جبل عامل. وهم يمثلون كتلة بشرية أكبر بكثير من الكتلة البقاعية. من هنا كان يتم الاتصال بالحوزة العلمية في النجف من قبل العامليين بكثافة نظرا لكثافة السكان ولأنهم يتمتعون بشيء من الاستقرار يفوق ما تمتع به البقاعيون الشيعة. يضاف الى ذلك ان إحكام القبضة التركية بقاعا كان أكثر منه عن سواه. ولعل هذا السبب الوجيه وراء قلة العلماء المسلمين الشيعة في البقاع. ولكنهم لم يكونوا معدومين. والمحقق الكركي مثلا ما زالت كتبه تشكل مراجع للاجتهاد الشيعي.

يتابع المفتي شقير: ان جبل عامل كان مفتوحا على البحر، مما يسهل الحركة لمن شاء ها، ان بالنسبة للاتصال بالعلماء عن طريق الحج والسفر الى مكة، او حتى بالنسبة للاتصال مع العراق وقصد النجف. لكن تبقى العلة الاساسية ان الاهالي البقاعيين كانوا شبه مشردين وجل همهم تحصيل عيشهم وحفظ أمنهم. ومع ذلك فقد برز عدد من العلماء على امتداد التاريخ الماضي، ويقال ان الشيخ البهائي من البقاع. وكانت يونين منبع العلماء السنة كالمقريزي وغيره. والشهيد الثاني كان يدرس الفقه الحنفي في حوزة في بعلبك في المسجد الكبير.

أما عن التوجه الحديث نحو النجف فيقول المفتي شقير: التوجه الناشط بدأ عام ٦١ من قبل مشايخ آل زغيب، وكان في عداد تلك الدفعة المشايخ: سليمان اليحفوفي، عبد الله عساف، حسن عثمان وأنا والسيد مرتضى.. وتصاعد العدد حتى وصل الى ما بين ٢٥ ـ ٣٠ طالب علم والعدد الآن يقارب المائة طالب، علما بأن البقاعيين في النجف قد شردوا كافة من جور صدام حسين، وكنت من أول العائدين، وأغلبهم لم يكمل دراساته.

يلاحظ العلامة محمد حسن الأمين أنه في عهد النظام العراقي الأخير واجهت النجف حملة قاسية جدا من قبل النظام استهدفت تفكيك بنيتها، خلاف ما درجت عليه من الحرص على استقلالها، ورفض اي شكل من أشكال الوصاية او التبعية للأنظمة السياسية، فيما أراد النظام السياسي الأخير معاندة هذا المسار التاريخي وعمل على التدخل في شؤونها ومحاولة استتباعها، ما ادى الى قيام علاقة سلبية مع هذا النظام، تطورت وأخذت شكل القمع بكل مستوياته وحتى الجسدية منها، الامر الذي أدى تدريجا وبسرعة الى انحسار الدور العلمي لجامعة النجف وامتناع الطلاب عن ارتيادها، دون ان تنجح الحملة في التصفية الكاملة لها بطبيعة الحال. ولكن في المقابل باتت قم هي المصدر الاساسي لتلقي العلوم الشرعية الدينية الاساسية، بالاضافة الى أن معاناة النجف، أدت الى نشوء حوزات علمية محلية متعددة في جبل عامل بشكل عام وخلت النجف خلواً شبه كامل من وجود طلبة عامليين او لبنانيين.

قبل ان نختم هذا الجانب نشير الى نقطة أوردتها قدوح وهي تقول ان العديدين من الذين راحوا الى النجف للتفقه في الدين عادوا يرتدون «العمامة الحمراء» بدل السوداء وتسمي البعض من هؤلاء. ولكن ماذا يدرس طلاب النجف وماذا يدرس طلاب الحوزات العلمية المحلية؟

عائلات عراقية في لبنان من كل الطوائف

يقول الزميل الباحث صقر ابو فخر في دراسة له تحت عنوان «العراق والشام: بيئة واحدة وجماعات شتى» انه قد انتشرت في ربوع بلاد الشام عائلات شتى من اصول عراقية خالصة. كما عاشت في العراق عائلات سورية ولبنانية وفلسطينية المنبت. يقول ابو فخر: إن بين الشام والعراق تاريخاً من الحراك البشري الذي لم يتوقف ابدا منذ عهد السومريين الاوائل.

ويضيف: ان الجد الاول للأسر التنورية الاولى التي قطنت بلدة تنورين في شمالي لبنان من امثال: عائلات حرب ويونس وطربيه وداغر ويعقوب يدعى خطار، وقد انتقل من العراق الى حلب فدمشق ومنها الى يانوح فتنورين، ويقول ان جبران خليل جبران هو من عائلة كلدانية عراقية تدعى جبرون. وهذه العائلة ارتحلت الى الشام وغيّرت اسمها الى جبران. والمؤرخ الكبير فيليب دي طرازي يتحدر من عائلة موصلية.. ومثاله ميشال شيحا. ومن الامثلة عائلة وحيد ومنها الوزير السابق رضا وحيد وآل العراوي في طرابلس، وآل الهندي في زحلة، وآل بزون في البازورية ـ الجنوب، وآل باخوس ومنهم النائب السابق اوغست باخوس. وآل حطيط وأصلهم من العمارة، وآل الحسنية في الشوف اصلهم من كربلاء، وآل حلاوي في صور والشوف هم اصلاً من الحلة، وآل الحوماني من البصرة، وخزام من ديالي، وخزعل من الديوانية، وخفاجة من المنتفق، ورعيدي من بغداد، الرميتي من السماوة، نعمان من شط العرب، مونس من احدى جهات العراق، مروش من الديوانية، مقلد من الموصل، المنّي من بغداد، طيبا.. وهناك عائلات كثيرة مثل: شهيب، طبر، عبد الملك، عاصي، عضيمي، العقيلي، غريافي، قوصان، قبيسي، فياض، فليفل، فخري، غياض، سابيلا، زوين، روضة، الدويهي ومغامس...

واللافت في دراسة الزميل ابو فخر ان هذه العائلات التي قدمت من العراق، لم تظل على عقائدها الاصلية التي حملتها معها، اذ تدينت تبعا للمنطقة التي اقامت بها. ومع ان الدراسة لا توضح العقائد القديمة لهذه العائلات، وهل اتجهت العائلات بالأصل نحو مناطق تسكنها في الغالب طوائف تنتسب إليها، بحثا عن وحدة عقائدية... الا ان مجرد وجود هذا الحشد من العائلات ذات الاصول العراقية في لبنان له دلالاته القصوى على عمق العلاقات.

العلم الشرعي الجعفري
بين النجف وقم والحوزات المحلية

شابهت العلاقة التي ربطت بين الطائفة الشيعية مع النجف العلاقة التي جمعت الموارنة مع روما. مع فارق اساسي يتمثل بهيكلية الكنيسة الكاثوليكية التي تبدأ بالبابا، يليه البطاركة، المطارنة المحليين و... ليس لدى الشيعة مثل هذه التراتبية المؤسساتية. لكن النجف لعبت دورها العلمي، كما لعبته جامعة اللاتران. السنة الذين ارتبطوا بالأزهر وأوفدوا طلابهم الى جامعته، لم يظللوا عند الشكل التقليدي لعلاقة مع مركز ديني ـ علمي، لا سيما بعد الاصلاح الذي عرفه الأزهر في مناهجه الدراسية، وجعل جامعته واحدة من أهم الجامعات المصرية المفتوحة على هيكلية اكاديمية ودراسات في شتى المجالات. النجف ظلت فريدة في بابها، اي انها لم تتمأسس (لم تتحول الى مؤسسة) بالمعنى الحديث للكلمة مثل الجامعات الاخرى العريقة.

تدفق الافواج من طلاب العلم عليها لم ينقطع على مدى قرون متلاحقة. لكن الطائفة الشيعية في لبنان لم تمتلك المدارس الدينية الوسيطة. خلاف ما هم عليه الموارنة والسنة. والمدارس الوسيطة هي التي ترسل بالطلاب الى دراسات فقهية أعلى، كأنها مرحلة ثانوية تمهد لمرحلة جامعية. هذا جانب من الموضوع، والجانب الآخر يتمثل بالقمع الذي تعرضت له النجف على يد نظام صدام حسين وأدى الى اعادة الطلاب اللبنانيين ولما يكملوا بعد دراساتهم العليا..

في غضون الاعوام السابقة، وتحديدا منذ عقد ونصف العقد اخذت تتأسس «الحوزات العلمية» المحلية. شخصيات دينية وقوى سياسية تولت المبادرة. كانت النجف شبه موصدة الابواب امام اكمال الدراسة. تتيح الدراسة في هذه المعاهد تخريج رجال دين محليين للقرى والاحياء. لكن مستوى المتخرجين لا يصل الى لعب دور قضائي او افتائي او اجتهادي بطبيعة الحال. التحول الذي حدث رافقه التوجه نحو قم في ايران نتيجة وضع النجف.

هذا التطور الذي ادى الى نشر «الحوزات العلمية» في الضاحية والجنوب والبقاع ما هو سببه الاساس هل تحول الجماعة الشيعية الى طائفة سياسية خلاف ما كانت عليه سابقا، كما يقول د. أحمد بيضون. ام لأن الحاجة باتت ضاغطة لتخريج اعداد كثيفة من رجال الدين لتلبية حاجات القرى والبلدات والاحياء، ناهيك بالانتشار الشيعي في المغتربات، خصوصا وان السبل تقطعت للوصول الى النجف كما يذكر العلامة السيد محمد حسن الأمين. هل عوضت هذه الحوزات غياب وتغييب النجف؟. لكن الأهم من ذلك كيف يدرسون في النجف وكيف يدرسون في الحوزات المحلية. ما هو مستوى الخريج وما هو مستقبله بعد هذه الرحلة العلمية التي قد تطول وتقصر في شعاب الفقه الجعفري والعلوم الشرعية والاجتهاد وما اليهما.

هذه الاسئلة تطرح نفسها بالحاح، وتفرض الدخول الى النجف والحوزة مع طلابهما، وقبلا تبيان مرحلة البديل عن النجف التي تولتها قم في ايران.

يجزم المفتي السيد علي الامين ان العلاقة التاريخية بين جبل عامل والعراق من خلال النجف هي اكثر رسوخا وثباتا من العلاقة مع قم. والمرجعية كانت عبر عصور عديدة تتمركز في النجف، التي كانت محط الانظار والطامحين للعلوم والمعارف الدينية حتى من الموجودين في مدينة قم المقدسة خصوصا وفي ايران عموما. لذا يأمل المفتي الامين ان تستعيد النجف دورها العلمي اذا وجدت الظروف الملائمة في ظل المستجدات التي حصلت على الساحة العراقية.

ويشير المفتي الامين الى ان ضعف التواصل مع جامعة النجف الأشرف في ظل العهد السابق، لم يؤد الى انقطاع كامل للعلاقة على المستوى الشعبي حيث كان الكثير من المسلمين الشيعة في جبل عامل يذهبون الى زيارة العتبات المقدسة في العراق. ومن المتوقع ان تستمر هذه العلاقة «وان يبقى التواصل مع العراق لأنه مهوى افئدتنا وبلد العلم والعلماء».

تعيد الباحثة انعام قدوح السبب في الاندفاع الى النجف عن التوجه الى قم، الى اسباب اضافية عن تلك التي ذكرها المفتي الامين. تقول قدوح: خلال عهد الشاه كانت ايران دولة علمانية، ولم تقم علاقات بينها وبين شيعة لبنان. بالطبع كان هناك من يزر قم ومشهد و... لكن التوجه الطبيعي كان نحو النجف، خصوصا للدراسة، اذ ان كل علماء ايران سبق ودرسوا ودرّسوا في النجف وليس في مكان آخر. لكن ضعف التوجه نحو النجف حدث في اعقاب اغتيال الشهيد محمد باقر الصدر في العام ١٩٧٩ مما ادى الى توقف الرحلات العلمية. مما دفع بالطلاب الى قصد الحوزة في قم. في هذه الفترة لم يكن هناك بروز لحزب الله. الامين العام الحالي حسن

نصر الله اقام مرحلة وجيزة في قم. هكذا بتنا نشهد توجها نحو قم، الا ان العدد لم يزد عن ربع عدد الذين كانوا يتوجهون الى النجف. ولعل اول من نظم الهجرات العلمية الى قم كان الشيخ جعفر مرتضى من عيتا.

الخلاصة التي توصلت اليها قدوح يؤكد عليها د. ابراهيم بيضون عندما يقول: العلاقة مع ايران كانت موجودة وان في نطاق ضيق. القليلون كانوا يذهبون الى قم للدراسة. اما العلاقة عبر الزيارة الى مقام الرضا في مشهد والى قم فكانت وما تزال عادية. اذن يفرق بيضون بين التوجه الى العلم والزيارة الى الاماكن المقدسة. ويخص الاولى بالنجف ويوسع نطاق الثانية الى العراق وايران معا. ينفي السيد عبد الحسين صادق ان يكون اي مكان آخر يعوض عن النجف. يصف التوجه نحو قم ومشهد انه كانت نتيجة الضغط والقمع الذي تعرضت له النجف. ويضيف: «باعتباري من المنتمين الى النجف كمركز علمي ولها في وجداني الكثير من الذكريات والحنين الطاغي فكريا وقلبيا. اقول ان نكهتها لا يمكن تعويضها في مكان آخر. وبهذا الرأي ألتقي مع كل من درس او كان على تماس مع النجف ويعرف علماءها وأدباءها.. لا استطيع ان اقول ان قم عوضت عن النجف.. لا يعوض النجف الا النجف.. واعتقد ان هذه الحاضرة الشامخة ستعود الى دورها الريادي بعد عملية الاضعاف والتهميش التي تعرضت لها».

العلامة محمد حسن الأمين يضع مدينة قم في الموقع الثاني بعد النجف بالنسبة لرواد العلوم الشرعية، ولكنه يلحظ فارقا كبيرا في المستوى والاتساع، بحيث ان الطلاب الايرانيين كانوا انفسهم يفضلون طلب العلم في النجف الأشرف عن قم. من الطبيعي انه عندما تتوقف النجف ان يتحول الاتجاه نحو مدينة قم لطلب العالم. ولا شك ان قيام الثورة الاسلامية الايرانية إبان ازمة النجف الاشرف ساهم مساهمة كبيرة في التوجه الى قم.

بدوره ينفي المفتي الامين ضرورة دراسة الفارسية في حال التوجه الى قم. اذ ان اكثر المرجعيات يجيدون العربية. اما في حال كان المرجع لا يجيد العربية، فهناك ضرورة لاجادة الفارسية، علما ان لا فارق جوهريا بين التعليميين لجهة المضمون.

الدراسة: السطوح والخارج

يطلق البعض على النجف والدراسة فيها اسم الجامعة، ويرفض آخرون هذا التحديد او التشبيه مكتفين بالقول «الدراسة في النجف» دون اي ملامح اكاديمية. اذن نحن هنا امام ما يشبه الاختلاف في تنسيب الدراسة الى مستوى شائع اليوم. علما ان لمؤسسة التعليم العالي، خصوصا الجامعة شروطا متعارفا عليه عن المعهد العالي او الكلية. لكن النجف كما هو واضح تفيض عن هذه التسميات، بل ويمكن القول ان نظام الدراسة فيها متداخل بين عدة انظمة بعضها وجد له مكان في المؤسسات الاكاديمية وبعضها الآخر فريد بابه.

لدى الاطلاع على سيرة احد كبار العلماء الشيعة نجد ثبتا بالمواد التي درسها وأسماء العلماء والمرجعيات والمجتهدين الذين درس عليهم والاجازات التي حصل منهم عليها وحدود هذه الاجازات و... الكثير من التفاصيل. سابقا كانت الاجازة تتضمن ليس اسماء الاساتذة الذين درس عليهم، بل اسماء مشايخهم وأساتذتهم، مما يعني ان مانح الاجازة تواصل مع حلقات علماء سابقين عبر اساتذته الذين تتلمذوا على ايديهم. وهكذا تتواصل سلاسل العلماء دونما انقطاع.

يقول العلامة محمد حسن الامين «بالفعل تعتبر جامعة النجف الاشرف صيغة فريدة من نوعها لجهة نظام الدراسة والاقامة بالنسبة لطلابها. فهي مثلا لا تتبع نظاما محددا يشبه أنظمة الجامعات الحديثة والطالب فيها لا يجد مكان منظما ومعدا لتأمين متطلباته وحاجاته، فهو يتولى شؤونه بنفسه بدرجة كبيرة بما فيها موارده المالية الضرورية للعيش. وفي النجف تتوفر مجموعة كبيرة من المدارس التي هي عبارة عن مباني يستفيد منها الطالب في السكن فقط، فيما عملية الدروس تعتمد ايضا على جهد الطالب بالدرجة الاساسية وعلى اختياره لحلقات الدرس والاساتذة الذين يبدأ بالتعرف عليهم عندما يصل الى النجف. يمكن للطالب مثلا ان ينتمي الى حلقة تتألف من بضعة اشخاص يوازونه في المستوى الدراسي، فيختارون لهم استاذا لدراسة مادة محددة، وربما تكون الحلقة مؤلفة من طالبين فقط، واحيانا يكون الطالب وحيدا لدى استاذه. وهذا فيما يسمونه دراسة «السطوح»، اي الدراسات الاولية التي تؤهل للالتحاق بالدراسات العليا، والتي تتم بالانتماء الى حلقة واسعة يقوم على التدريس فيها احد الفقهاء الكبار، وغالبا ما يكون هذا الفقيه مرجعا دينيا كبيرا، وتسمى هذه المرحلة بدروس الخارج، اي التي تؤهل الطالب للاجتهاد».

يتابع العلامة الامين قائلا: «من المعروف انه في النجف ليس هناك مرجعية واحدة، بل عدة مرجعيات يختار الطالب منها مرجع التقليد وفق ملاحظته وتتبعه للمستوى العلمي بين عدد من المراجع، فاذا اقتنع بتميز احد هؤلاء علما ودينا وسلوكا فانه يختاره مرجعا للتقليد من بين سواه».

ما ذكره العلامة الأمين يتطلب الدخول معه في المواد التي يدرسها الطالب سواء في مرحلتي «السطوح» او «الخارج». يقول الأمين: الدراسة في مرحلة السطوح تفترض إنجاز مجموعة من العلوم تبدأ بالنمو والصرف، ثم دراسة المنطق الارسطي والمعاني والبيان (البلاغة). ومع هذه البداية تبدأ الدراسات التي تتعلق بالأصول الفقهية والفقه والحديث والتفسير، وتأخذ هذه الدراسة بالتدرج من مستوى أدنى الى مستوى أعلى وصولا الى أمهات المكتب المؤلفة في هذه العلوم، وخصوصا في علمي الفقه وأصوله. فإذا أكمل الطالب هذه المرحلة وهي مرحلة طويلة وتمتد الى ما بين ٥ ـ ٧ سنوات يلتحق بعدها في ما يسمى بدرس الخارج، أي درس الأبحاث الفقهية والأصولية الحرة، ويمارس خلالها عنصر الاجتهاد من خلال عرض الآراء والاتجاهات في المسائل والتمييز بينها واختيار الرأي الأوجه منها، مما يدفع الطالب للبحث والتنقيب واختيار الرأي، أي يصبح الطالب عندها تبعا للاصطلاح الحوزوي «مراهقا» لمرحلة الاجتهاد، التي عندما ينجزها يصبح مجتهدا له رأيه المستقل، ولا يعود بحاجة الى التقليد، بل عليه حينها أن يمتنع عن التقليد وأن يستنبط هو بنفسه الأحكام الفقهية».

يقدر مفتي البقاع الشيخ خليل شقير مدة الدراسة للوصول الى رتبة الاجتهاد بما لا يقل عن خمسة عشر سنة، وعليه فان الطلاب الذين يتابعون دراساتهم في النجف يحتاجون ما بين ٩ سنوات وخمسة عشر سنة حتى يعودوا الى لبنان.

الحسينية الأولى

قبل أن ندخل في تبيان ما تقدمه الحوزات المحلية، لا بد من الاشارة الى أن وجود الحسينية هي المرحلة التي فتحت على تأسيس الحوزات، بالطبع ظاهرة الحسينية ودورها تحتاج الى دراسة مستقلة، سواء على الصعيد المذهبي بالنسبة للفقه الجعفري او على مستوى المناسبات العامة والخاصة. لكن هنا ما يتوجب قوله. المعروف أنه خلال العهد العثماني وقبله كان بناء الحسينية محظورا. كان يكتفى بالجامع. ومهمة الجامع هي الصلاة اليومية وخطبة الجمعة. اما الحسينية كمكان لممارسة الاجتماع الشيعي فقد كان ممنوعا، خصوصا وان تقاليد عاشوراء لم تكن قد استقرت على ما هي عليه. وقد بدت في ثلاثينات القرن الماضي وعلى أيدي بعض الايرانيين الذين جاءوا الى النبطية. والنبطية كما هي معلوم ما تزال تحافظ على هذا التقليد، مع كل ما يرافقه من تلطيم وضرب بالسيوف، رغم الفتاوى المضادة.

المهم أن لا حي او قرية شيعية إلا وبات لها حسينية تقيم فيها احتفالات دينية ومناسبات اجتماعية. هذا المسار استغرق الوصول إليه قرابة القرن من الزمن، أي منذ أوائل القرن الماضي وحتى نهايته. فالحسينية الأولى التي أقيمت في لبنان هي التي أقامها الشيخ عبد الحسين صادق في النبطية في العام ١٩٠٩ او العام ١٩١٠. يقول حفيده السيد عبد الحسين صادق أمام النبطية الحالي هي أول حسينية ليس في لبنان بل في بلاد الشام أيضا.

يضيف صادق: بعد عودة الجد من النجف، كان مثله مثل سواه متأثرا بأجوائها وبالدور الذي تلعبه الحسينية، لا سيما في مناسبة عاشوراء، وما تشهده من مجالس دينية وأدبية، وكان شاعرا كبيرا له قصائد كثيرة، وقد تعود المجالس ودورها الاجتماعي والأدبي. وعندما رجع كان يدعو رجال الدين والعلم ويلقي قصائده أمامهم. كان له أخوال وضعهم المادي جيد ولديهم أملاك، فجمع منهم بعض الأموال التي كانت بمثابة النواة، ثم وسع الدائرة نحو المحسنين حتى أمكن قيامها.

المؤرخ حسن الأمين والشيخ شمس الدين أشارا في كتبهما الى أهمية هذه النقلة على صعيد الاجتماع الشيعي، إذ بات هناك مكان عام تمارس فيه شعائر عاشوراء، التي كانت قبلا وخلال سنوات القمع تمارس في البيوت وعلى نحو سري. الآن يقول صادق: باتت هناك مؤسسة تفاعلت معها النبطية، ثم لم يلبث أن اتسع نطاقا ليشمل جبل عامل بأسره، ومنه امتد الى بعلبك ـ الهرمل والبقاع الغربي وبعض قرى جبيل.

يؤكد صادق أن دور حسينية النبطية أم حسينيات بلاد الشام تعدى دورها الديني التقليدي اي تنظيم الاحتفالات لمناسبة مولد الرسول، الأئمة المعصومين، كربلاء و.. الى الدور الثقافي ـ الادبي، فمن على منبرها تبارى كبار الشعراء. وهكذا كانت تتجاوز المناسبات الدينية والاجتماعية كالمآتم الى الجانب الأدبي. وفي هذه الحسينية كان يقام مجلس دائم لاستقبال الاسئلة التي كان يتولى الرد عليها باعتباره من المجتهدين وصاحب المخزون العلمي باعتراف أساتذته وطبقة مرموقة من العلماء. يذكر صادق أن الكثير من العلماء كانوا يزورونه منهم الشيخ سليمان وأحمد ضاهر. وكان للأخير الذي كان ضليعا باللغة العربية صالون أدبي وفكري يؤمه طبقة من اللغويين. يضيف صادق الدور الثقافي للحسينية الى الدور الذي لعبته الكتاتيب قبل شيوع المدرسة الحديثة سواء كانت خاصة او حكومية. ويتوقف عند دور المدرسة الحميدية التي انشئت أواخر القرن التاسع عشر وضمت نخبة من الاساتذة العلماء، وكانت توائم بين العلم والفقه وخرجت مجموعة من الأسماء التي لعبت دورا بازرا في النهضة.

«الحوزات المحلية»

انتشرت «الحوزات العلمية» في غضون العقدين الماضيين، ليس فقط بهدف تعويض انقطاع الرحلة الدراسية الى النجف، بل لأسباب تندرج في باب بناء المؤسسات الفكرية ـ الثقافية للطائفة. ومثل هذا ليس غريبا في البنية اللبنانية التي تمتلك كل طائفة فيها عالمها الخاص. لكن الحوزات العلمية تنشأ وتضمحل تباعا، لذلك من الصعب رصد عددها بدقة وإن كان المتفق عليه أنها تتجاوز العشرين حوزة. خصوصا وان ولا وجود لجهة واحدة مسؤولة عن المشروع، بل تعددية على هذا الصعيد.. في المناطق الطرفية تفتح الحوزة لبعض الوقت ثم لا تلبث ان تقفل. مثلا افتتحت حوزة في سحمر لكنها ما لبثت ان أغلقت وكذلك في الهرمل. في الضاحية الجنوبية لبيروت والمدن الأساسية عناصر البقاء أكثر توفرا من سواها، مما يعني الاستمرار. لكن ما يمكن ملاحظته بسهولة هو غياب التنسيق او التخطيط للمشروع مسبقا. مثلا في بعلبك هناك الآن ثلاث حوزات كما يقول مفتي البقاع الشيخ خليل شقير. سابقا لم يكن هناك من شروط للدخول الى الحوزة. أي أن الحوزة كانت بحاجة الى طلاب فاستقبلت الوافدين اليها، أما الآن فهي تشترط أن يكون حائزأ على شهادة البكالوريا. يتحدث هنا المفتي شقير عن «حوزة الإمام الحسين بن علي» بطبيعة الحال. وهذه تؤهل كما يقول لحضور الدراسات العليا لدى المراجع، أي انها تنجز مرحلتي المقدمات والسطوح. والدراسة في الحوزة تحتاج الى ما لا يقل عن تسع سنوات بعد شهادة البكالوريا. أما المواد التي يدرسها الطالب فهي النحو والصرف والمنطق الأرسطي والفقه بمستوياته المختلفة والاصول (الفقه) بمراحله المتعددة حتى العالي منها، وقد يضاف الى هذه المواد دروس في تفسير القرآن والاخلاقيات والاجتماعيات.

لكن هذه الشهادة التي يحصل عليها الطالب غير معترف بها في النجف، أي ان الحائز على شهادة الحوزة يبدأ في النجف من

البداية بصرف النظر عن دراسته في الحوزة. أما اللغة الاجنبية فهي اختيارية.
نظام التدريس في الحوزة يقارب نظام التدريس في النجف، إذ يمكن للطالب أن ينتقل من أستاذ الى آخر، إذا لم يعجبه الأستاذ. لا أحد يستطيع إلزام الطالب، وكل ما يحصل عليه هو بمثابة دروس خاصة. فمثلا إذا أراد الطالب أن يدرس الاسفار للملا صدرا يمكنه أن يفعل، كما يمكن ان يدرس سواه. في الفترة الأخيرة اعتمدت الامتحانات في الحوزات وهو أمر لم يكن سائدا من قبل، لكن في النهايات يحتاج الطالب الى شهادة الاجتهاد من المرجع المعترف به في العالم.

الأستاذ والطالب

ويضيف المفتي شقير: الاستاذ في الحوزة لا يتقاضى أي أجر. هذا ما يحدث في النجف وكذلك في لبنان. تأتي الاخماس والزكاة الى المرجع وهو يتولى توزيعها على الاساتذة والطلاب. خلال وجودي في النجف كنت أحصل على ما يحصل عليه أستاذي تماما. وطبعا المبلغ ضئيل. أما عندما يتخرج الطالب ويصبح شيخا فان أهل البلد يساعدونه عبر الحقوق الشرعية او من خلال أجر مقرر. والشيخ لا يتقاضى أجرا من المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى. مؤخرا انشئت هيئة تحمل إسم هيئة التبليغ الديني كان ذلك خلال حياة الإمام محمد مهدي شمس الدين، وكانت تدفع للشيخ ٢٥٠ ألف ل.

يشرف المفتي شقير على حوزة الحسين بن علي في بعلبك، وهذه الحوزة تضم الآن عشرين طالبا. قبلا كانت تضم ٤٥ طالبا. تخرج قسم منهم، وعملوا دعاة او كتابا. ويعتمد الطلبة على المساعدات التي تردهم من المراجع «بالأساس يؤمنون مصادر عيشهم من الاخماس والزكاة. تأتينا بعض الاموال فنقسمها بينهم، أما تكاليف المدرسة فنحصل عليها من بعض المحسنين». إذن تعتمد الحوزة على ما يرد إليها، بمعنى أن ليس هناك من موازنة ثابتة لا للإنفاق على الطلاب ولا على الأساتذة ولا على الصيانة والتجهيزات.. لذلك يحدث دوما ان تقفل أبوابها. مثلا حوزة الحسين بن علي التي يديرها المفتي شقير انتقلت من مبناها الى منزله بعد أن تعذر عليه تأمين نفقاتها.

أكثر من ذلك، يبدو دور المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى في مجال الحوزات محدود الفاعلية والتأثير. علما ان الشيخ شمس الدين كان قد بادر وانما بصفة شخصية الى إنشاء حوزة تحت إسم الشهيد الأول. المجلس كمجلس لم يتدخل في الموضوع. وإن كان له الحق في الرقابة على مشيخة فلان او علان، لكنه لم يستطع حتى أن يمارس مهمة التنسيق بين الحوزات، بسبب التهميش الذي يعانيه جراء التنازع بين كل من حركة أمل وحزب الله. ربما لهذا السبب توجه شمس الدين نحو بناء الجامعة الاسلامية وخصص واحدة من كلياتها لدراسة الفقه ضمن منهاج أكاديمي. يؤكد ذلك المفتي شقير. والمعروف ان المجلس من دون رئيس منذ تعيين الإمام الصدر، فالإمام شمس الدين ظل حتى وفاته يحمل صفة نائب رئيس المجلس وكذلك المفتي الجعفري الممتاز الشيخ عبد الأمير قبلان اليوم. إذن بين «أمل» و«حزب الله» يعاني المجلس من شلل ينعكس على المؤسسات التعليمية الدينية بطبيعة الحال. يجزم المفتي شقير أن المجلس سيبقى من دون رئيس لأن الظروف الراهنة لا تساعد على تطبيق النظام المعمول به والذي يمكننا من انتخاب رئيس. هناك ما يشبه الحلقة المفرغة إذن جراء الصراع الذي لا يخرج الى العلن إلا فيما ندر، فيما الحوزات تتباين مستوى قدرات وخدمات للطلاب. بعضها يملك أقساما داخلية للطلاب وبعضها لا. ولأن الشهادة التي تمنحها الحوزات غير معترف بها في لبنان، لا يجد الخريجون أمامهم سوى المحاكم الشرعية او دوائر الافتاء ومجالات الدعوة ونشر الاسلام في دول الاغتراب.. إذن القلة القليلة هي التي تؤهلها دراستها للقيام بأدوار قضائية او إفتائية، فيما الأكثرية تتجه نحو القرى والبلدات لتأمين دورها فيها.

تبقى كلمة لا بد من قولها على لسان د. أحمد بيضون. كل ما ذكرناه عن دور النجف والحوزات راهنا، يرتبط بوضع الطائفة الشيعية بطبيعة الحال. قبلا لم يكن هناك اعتراف رسمي، وعندما حدث ذلك خلال الانتداب تم إنشاء هيئات تولى أمرها العلماء، وهذه كانت خطوة أساسية في تحول الطائفة الى طائفة. وتقاسم شيعة بعلبك والجنوب الدرجات، وصارت هناك محاكم محلية وأخرى في العاصمة. للمرة الاولى تقوم مؤسسات مشتركة بين هاتين الجماعتين.. منذ ذلك التاريخ الذي يتحدث عنه بيضون سارت مياه كثيرة في النهر، بعض تجلياتها ما تناولناه على صعيد الحوزات تكريسا لتلك النقلة، معطوفة على تطورات اقتصادية واجتماعية وسياسية محلية واقليمية مؤاتية.

الشهيد الأول: محمد بن مكي الجزيني

يعتبر محمد بن مكي الجزيني ٧٢٠ أو ٧٢٩ ـ ٧٨٤هـ/ ١٣٢٠ أو ١٣٢٨ ـ ١٣٨٢م هو الشهيد الأول. ولد في جزين لوالد عالم، وكان جده ايضا عالما ثقة. توجه وهو في العقد الثالث من عمره الى الحله في العراق، وكانت حينها اهم مركز علمي للشيعة، وبذلك يكون من اوائل الذين ارسوا تقليد الرحلة العلمية في جبل عامل. في الحله حصل على اجازات من اشهر شيوخها. وهناك في بعض المصادر اشارات الى احتمال قيامه بنشاط سياسي من خلال علاقة ربطت بينه وبين كل من: ابن المؤيد الخراساني وعلي بن المؤيد العلوي الذي اصبح ملكا على خراسان، وكان هذا الاخير شيعيا اماميا.

انتقل الشهيد الاول الى بغداد عام ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م وحصل على اجازة من علمائها، ثم توجه الى دمشق، القاهرة، مكة، المدينة وفلسطين وقرأ على اربعين شيخا من شيوخ السنة وعاد منها الى مسقط رأسه بعد ان اصبح «أفقه جميع فقهاء الآفاق». قبل ولادته كان المماليك قد انهوا طرد الصليبيين من البلاد الشامية، وبعدها جردوا الحملات على الشيعة وكان اولاها عام ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م وقد ارتكب الجيش المملوكي من الفظاعات ما ادانه السلطان المملوكي الناصر بن محمد بن قلاوون، فكتب اليه ابن تيميه الذي كان المحرض يبرر ويعتذر.. وكان قسم من شيعة كسروان قد لجأوا الى بعض المناطق الجنوبية ولا سيما جزين، التي باتت مركزا علميا شيعيا. ويقال ان اول من قصد الحله من ابنائها كان ابن جزين اسماعيل العودي.

مع عودة الشهيد الاول الى جزين اصبحت مقصد طلاب العلم، مما ادى الى نهضة فكرية ـ ثقافية. ينسب الى الجزيني بعض الفتاوى التي تصب في ولاية الفقيه، وقد يكون حصل على الخطوط العامة لفتاواه هذه من بعض مشايخه. كان من المآخذ عليه وأدى الى محاكمته في دمشق والتي انتهت بإعدامه حكمه بلزوم دفع الاخماس الى الفقيه الجامع لشرائط الفتوى، ووصفه بأنه نائب الامام. ونشر وكلاءه في المنطقة الشيعية يحصلون على هذه الفرائض. وهكذا أقام نظاما ضرائبيا بموازاة النظام الرسمي، وكانت لديه ادارة محلية مستقلة عن الادارة المركزية.

كانت بداية محاكمته بعد محضر نظمه له القاضي تقي الدين الخيامي ورفعه الى قاضي صيدا. حبس اولا سنة كاملة. وخلال المحاكمة التي تبعت ذلك تهرب قضاة المذاهب من ادانته وهدر دمه مما استدعى استبدالهم.. وبعدها حكم القاضي المالكي بكفره وإراقة دمه، حتى وان تاب. لكنه جعل حكمه مقيدا بشرطين احدهما الا يكون مسبوقا بحكم باسلامه والثاني ان ينفذ بقية القضاة حكمه، مما يعني محاولة لتوزيع المسؤولية على قضاة المذاهب الباقية وهذا ما حدث. فأخرج الى تحت قلعة دمشق وضربت عنقه. وكانت التهم الموجهة له هي: الرفض، سب الصحابة، انحلال العقيدة، اعتقاد مذهب النصيرية واستحلال الخمر الصرف.

الحـــوزات

تنتشر الحوزات في معظم المناطق اللبنانية الشيعية، ويذكر ان عددها يربو عن العشرين بعضها هي:

- حوزة المرجع الشيعي السيد محمد حسين فضل الله ولها ست فروع في مختلف المناطق.
- حوزة الرسول الاكرم ـ الشيخ علي مرزائي.
- حوزة النجف الاشرف ـ الشيخ مفيد الفقيه.
- حوزة السيد جعفر مرتضى
- حوزة الشهيد الاول ـ الشيخ عبد الامير شمس الدين.
- حوزة الامام المنتظر ـ الشيخ محمد يزبك.
- حوزة الامام الحسن المجتبى ـ الشيخ مهدي اليحفوفي.
- حوزة البياض ـ الشيخ ابراهيم آل سليمان.
- حوزة الشهيد الثاني ـ السيد نسيم عطوي.
- حوزة اهل البيت ـ السيد عبد الحسين صادق.
- حوزة الحسين بن علي ـ مفتي البقاع الشيخ خليل شقير.
- .....

ويعتبر الشيخ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي في العام ٤٤٩هـ منشئ الموقع الحوزوي في النجف، ففي اعقاب هدم منزله وإحراق مكتبته في بغداد رحل مع من تبقى من طلاب العلم والعلماء الى النجف وأسس جامعة حول ضريح الامام علي وعلى مقربة من وادي السلام احد اكبر المقابر في العالم الاسلامي ـ وعلى امتداد اكثر من عشرة قرون خرجت هذه الحوزة عشرات ألوف العلماء وتمركزت فيها المرجعية الشيعية الجعفرية.

الجامعة والمدارس «الشيعية» وعقدان من مسيرة التطور التربوي الخاص

أسئلة كثيرة تتدافع لدى محاولة الحديث عن الوضع التعليمي للطائفة الشيعية. الأسئلة المتعددة، مصدرها أن الإحصاءات المتوفرة لا تقدم الكثير من الزاد. إذ لا يوجد ولو إحصاء واحد يتناول طائفة بعينها، لا على صعيد مراحل الروضة، الأساسي، ولا المتوسط والثانوي، ولا الجامعي. يستوي في ذلك التعليم الرسمي والخاص غير المجاني والمجاني. هذا جانب من المأزق. جوانب أخرى تتعلق بالتداخل الطائفي في عموم المحافظات اللبنانية، رغم وجود أكثرية طائفية في محافظة ما. هذه الأرجحية تؤخذ بالجملة ولا تستند إلى إحصائيات دقيقة. لكن لا يمكن الركون إليها كثيرا، كونها لا يمكن أن تعبر لدى الدخول في مجال التعليم، خصوصا ان ما يحدد المدرسة هو رغبة الأهل. صحيح أن هناك تناميا في المدرسة الخاصة التي تتوجه الى الطائفة، ولكن ماذا عن المدارس والجامعات «العلمانية» التي يقصدها من يشاء من الطلاب بناء على القدرة على الإيفاء بالمطلوب بالنسبة للبدل «العادل» والمستوى العلمي، خصوصا بالنسبة للغات الأجنبية. ثم إن هناك كتلة شيعية في بيروت يدرس أبناؤها في مدارس تتعدى الضاحية، وتبلغ الحازمية والحدث والطريق الجديدة ورمل الظريف وكليمنصو، ناهيك بالأشرفية وعين الرمانة.. عدا الجامعات.

إذاً، من الاستحالة ضبط الوضع على الصعيدين المدرسي والجامعي.. من هنا صعوبة الوصول الى تحديدات دقيقة مدعمة إحصائيا، بناء على دراسات موثوقة وموثقة. لكن يمكن قول كلام إجمالي مفاده أنه منذ حوالى الثلاثة عقود شهدت الطائفة الشيعية نموا في كفاءاتها العلمية، مما يستحيل معه المقارنة بين ما كانت عليه وما صارت إليه. الألوف من حملة الشهادات العليا، ليس الألوف بل عشرات الألوف أيضا. أساتذة جامعيون في مختلف الاختصاصات بالألوف أيضا. مهندسون، أطباء، محامون، موظفو فئات أولى وثانية وثالثة و.. الحصيلة أن هناك «جيشا» من المؤهلين في مختلف المجالات.

ومثل هذا الأمر ليس ابن ساعته بل له مقدمات تعود الى مرحلة الستينيات عندما شهد لبنان الطفرة الشهابية في التعليم الرسمي، إذ خلالها تم إيصال المدرسة الحكومية الى أقاصي الهرمل والقرى الحدودية في الجنوب مثلها تماما مثل عكار وراشيا الوادي و... هذا جانب بسيط أولي، لكنه ما كان له أن يتكامل ويبلغ أكله لولا أمران تضافرا معا هما:

معادلة الشهادة الثانوية العامة المصرية والموحدة السورية مع شهادة البكالوريا اللبنانية ـ القسم الثاني. إذ المعروف أن طلاب المدارس الرسمية عموما والأطراف خصوصا يعانون من ضعف في مستوى اللغات الأجنبية، والمقصود هنا الفرنسية والانكليزية، والأولى أكثر كونها اكثر انتشارا في التعليم الحكومي. كانت شهادة البكالوريا ـ القسم الثاني بمثابة «غربال» حقيقي للطلاب، وحاجز أمام دخول الجامعة، سواء كانت رسمية أو خاصة. عندما فتح مجال «المعادلة» قفز الألوف من الطلاب فوق هذا الحاجز وتقدموا الى الامتحانات في سوريا ومصر وحصلوا على شهادتيهما مما فتح أمامهم آفاق الجامعات. هذا كان الأمر الأول.

أما الأمر الثاني والذي لم يقل أهمية عن سابقه فتمثل في المنح التي قدمتها الدول الاشتراكية للتنظيمات السياسية في غضون سنوات الحرب الأهلية. وهكذا تمكن العديد من القوى اليسارية من إيفاد مئات إن لم نقل الألوف من الشبان الأكثر حاجة، ومن ضمنهم أو بمعظمهم من أبناء الطائفة الشيعية، الى جامعات «شرقية» لدراسة الطب والهندسة وطب الأسنان والإنسانيات والاقتصاد و... وهكذا كسر «احتكار» الكثير من التخصصات التي كانت محصورة بأبناء البورجوازية الأكثر تماسا مع الدول الفرنكوفونية والانغلوفونية. لا بد من أن نعطف هذا كله على ما ضخته الجامعة اللبنانية خلال العقود الماضية وكذلك الجامعات المحلية الخاصة قبل «عصور التفريخ» الأخيرة. هنا لا نناقش في المستوى، لأن المستويات متباينة بين خريجي الجامعة الواحدة مهما كان حرصها على المستوى المتقارب لخريجيها. هذا ما يؤكده د. منذر جابر.

كل هذه عوامل تداخلت، وتفاعلت وأدت الى نتائج عميقة في بنية هذه الطائفة التي كانت أكثر تهميشا. أهمية التعليم هنا أنه طريق نحو الارتقاء الاجتماعي، يضاف الى طرق أخرى من أنواع الهجرة، العمل في التجارة، تدفق المال السياسي. ليس المقصود من هذه الإشارة أكثر من التنبيه، بينما المجال مخصص لموضوع التعليم وما أصبح عليه الآن لدى هذه الطائفة التي كانت تصنف في أسفل سلم الهرم على هذا الصعيد.

ازدهار وضمور

منذ العام ١٩٨٦ أخذت وتيرة تأسيس المدارس الخاصة تنتشر في كل من الجنوب والبقاع الشمالي (بعلبك ـ الهرمل) والغربي.

قبلها كانت مؤسسات تربوية قد انطلقت في الضاحية الجنوبية من بيروت والمدن الأساسية جنوبا خصوصا، وبدرجة أقل في البقاع. ثم ما لبثت الفروع أن انتشرت حتى بلغت مناطق كانت مصنفة حتى الأمس القريب خطوط تماس مع العدو الإسرائيلي قبل هزيمته وانسحابه من الجنوب في أيار العام ٢٠٠٠.

هذا المؤشر يترافق مع تراجع في التعليم الرسمي، ليس لجهة عدد المدارس، بل على صعيد نسب الطلاب، علما بأن هناك صعوبة إن لم نقل استحالة في رصد عدد الطلاب وتوزيعهم تبعا للطوائف، إذ ان محافظة مثل الجنوب تضم في ما تضمه صيدا وجزين ومرجعيون وحاصبيا، بينما البقاع يشمل زحلة، ناهيك بالعديد من البلدات الكبرى. حتى في حال اعتماد الأقضية من الصعب الوصول الى نتائج حاسمة ومقنعة، علما بأن نسبة طلاب الجنوب ١٠,٨٧٪ والنبطية ٦,٢٦٪ والبقاع ١٤,٢٧٪ أي ما مجموعه الإجمالي ٣١,٤١٪ من تعداد طلاب لبنان. ومن المعلوم أن مراكز الثقل الفعلية لتعداد الطلاب يتركز في كل من محافظات جبل لبنان بما فيها الضواحي، الشمال وبيروت. لكن رغم ضبابية هذه النسب، يمكن بسهولة اكتشاف ارتفاع وتيرة أعداد طلاب كل من مؤسسات المبرات، أمل، مدارس المهدي والمصطفى و... في مناطق الضاحية والجنوب والبقاع. وهو ارتفاع لا يمكن مقارنته بما كانت عليه نسب طلاب العاملية ومؤسسات الإمام الصدر في كل من بيروت وصور خلال الستينيات. إذاً، هناك تحول نحو المدرسة الخاصة ذات التأسيس السياسي ـ الطائفي، وهو أمر له دلالته على موقع كل من التعليمين الرسمي والخاص في المناطق المقصودة بالدرس.

لكن لا بد من لحظ أن هناك مساراً معقداً للوصول إلى هذا الاستخلاص. إذ المعروف عن الجنوب أنه يمتلك تراثاً ثقافياً منذ القرن الثالث عشر الميلادي، بل قبله. ولعل مدارس جزين وميس الجبل والنبطية وبنت جبيل وشقرا والكوثرية و.. معروفة منذ القرن السابع الهجري وحتى القرن الثالث عشر، هذا إضافة الى التوجه نحو النجف والحلة في العراق لمتابعة الدراسة. أما المدرسة الحديثة فقد نشأت أواخر العهد العثماني، ولعل مدرسة النبطية بإدارة رضا الصلح والد رياض الصلح أشهر من أن يُتنكر لدورها. وهذه المدرسة أدارها لاحقاً المرحوم عبد اللطيف فياض بدءاً من العام ١٩٢٥ وتعرف الآن بأم المدارس. صيدا كانت سابقة، وكذلك صور ومرجعيون.. وفي العهد الاستقلالي تكاثرت المدارس، وحصلت أغلبية القرى على مدارس ابتدائية، بينما انحصرت المدارس المتوسطة في مراكز الأقضية والبلدات. في تلك المرحلة، كما يذكر المفتش التربوي الأول السابق د. محمد كاظم مكي، كانت دُور المعلمين والمعلمات قد بدأت تخريج المعلمين، وتوسيع دورها فتعدت العاصمة إلى طرابلس وصيدا وزحلة والنبطية فاستفاد الجنوب وبعلبك من خريجيها. أما الثانويات الرسمية فلم تفتتح إلا منذ الستينيات، وكانت أولاها ثانوية صيدا الرسمية للبنين التي حملت اسم مديرها مصطفى الزعتري، ثم ما لبثت الثانويات والمتوسطات أن توسعت وبلغت ذروتها في العام ١٩٧٥.

ليس بعد الذروة سوى الانحدار، وهذا ما ترافق مع الحرب الأهلية، إذ إن المدرسة الرسمية فقدت في غضون سنوات الحرب عوامل دورها، سواء على صعيد الإدارة المركزية أو المحلية، ومع غياب الضبط والربط والانتظام أخذت تتحلل تباعا على امتداد عقد ونصف العقد، عندما عادت لتستأنف نشاطها مع مطلع التسعينيات، بعدما استعادت الدولة مركزيتها، إلا أن هذا ترافق مع أمرين كان لا بد من لحظهما. هذان الأمران هما التوسع في التعليم الخاص المؤسساتي الخاص وبعضه يمتلك جذراً سياسياً طائفياً كما أشرنا قبلاً، وثانياً استمرار مفاعيل نتائج العقد ونصف العقد واضحة على بنية التعليم الرسمي، مما أدى إلى ثباته على موقعه الدوني، بالقياس إلى التعليم الخاص الذي يبدأ من صيدا مع مؤسسة الحريري، ولا بد من أن نذكر أنه شمل الجنوب بأسره، إضافة إلى قرى جنوب البقاع الغربي الشيعية وصولاً إلى بعلبك ـ الهرمل.

أعطاب ومراحل

إذاً، انقلبت النادرة التي يذكرها أهل الجنوب عندما قصدوا أحد الزعماء ليطلبوا إليه العمل على تخصيصهم بمدرسة، فرد عليهم بأن لا داعي لذلك، لأن ابنه في المدرسة.. هذه النادرة انقلبت رأساً على عقب، لكن الانتشار الشيعي كما هو معلوم لا يتحدد بالجنوب وإن كان هناك معقله الرئيسي. إذ ان منطقة بعلبك ـ الهرمل شهدت المسار نفسه الذي شهده الجنوب، من دون العمق التاريخي لجهة مدارس العهد العثماني. يمكن استثناء بعلبك، ومنها كمدينة كانت الخطوة الثانية نحو الهرمل فقط، وشيئاً فشيئاً ازداد حضور المدرسة الرسمية إلى الحد الذي ندر فيه وجود قرية من دون مدرسة حتى ولو كانت في أقاصي الجرود. ومثل ذلك عرفه البقاع الغربي بدءاً من مشغرة مروراً بسحمر و.

هذا الانتشار لم يعن أن تكافؤ الفرص أو ديموقراطية التعليم قد تكرست. كانت المدرسة الرسمية تعاني من أعطاب جوهرية، لافتقادها الجهاز البشري «المحلي» المؤهل، لا سيما في المواد الأجنبية والعلمية. لكن هذا العطب كان بالإمكان علاجه في فترة ما قبل الحرب. إذ قامت الدولة بتزويدها بالمعلمين الكفوئين من المدن القريبة والبعيدة على حد سواء، كذلك قدمت لها التجهيزات وأحياناً استأجرت المباني، علماً بأن الكثير من المدارس الريفية كانت عبارة عن غرف متناثرة. يقول د. مكي إن أكثر المعلمين الذين كانوا يعملون في مناطق الجنوب وبعلبك ـ الهرمل هم من خريجي دور المعلمين في زحلة وطرابلس وبيروت وصيدا. وكانوا بالمئات، وقد ساهموا مساهمة جدية في إطلاق هذه المدارس وقيامها بدورها، لكن عندما بدأت الحرب الأهلية اللبنانية عام ٧٥ ـ ٧٦ غادر هؤلاء مدارس القرى وحتى المدن وعادوا إلى مقار نشوئهم. هذا الفرز أدى إلى ضغط على المدرسة الرسمية التي تزايدت الحاجة إليها في ظل فقدان المقومات الاقتصادية ـ الاجتماعية للكثير من الأسر. في مثل هذا المناخ ظلت المدرسة الرسمية قائمة على عدد محدود من أبناء المنطقة. وفي أعقاب تلك المرحلة بدأت عملية التعاقد مع المعلمين، ومعظمهم من غير المؤهلين تربوياً لمهمة التدريس. ومنذ ذلك التاريخ، أي منذ العام ٧٧ ـ ١٩٧٨ جرى تثبيت ثلاثة أفواج يتراوح عدد الفوج الواحد منهم ما بين أربعة وخمسة آلاف معلم، يؤكد

ذلك مكي. أي أن هناك ما يتراوح بين ١٢ ألفاً و١٥ ألفاً تم تثبيتهم. كل هذا ولم نتحدث بعد عن الدفعة الأخيرة المعلقة المصير برغم صدور قانونين بشأنها.

المدرسة الثانوية كانت أشفى حالاً من زميلتها الابتدائية. وهي كانت في المقدمة ومنافسة حقيقية للثانوية الخاصة. ولما كانت الثانويات الخاصة نادرة في عمق هذه المناطق (جنوباً وبقاعاً) وتحت وطأة وضع الحرب، فقد احتلت موقعها الأول من دون منازع، بما في ذلك في مواد اللغات والعلوم. إذ لم تعان هذه من قصور أساتذتها في هذه المواد نظراً للتأهيل الذي حصلوا عليه في كلية التربية. لكن هذه المدرسة التي اعتمدت أجيالاً من الأساتذة الكفوئين، سرعان ما أخذت تفقدهم، إما بداعي التقاعد أو بفعل الهجرة من البلاد أو الانتقال إلى المدرسة الخاصة التي قدمت إغراءات.

الجامعات والأشلاء

صعوداً نحو التعليم الجامعي، تبدو الصورة أكثر اختلاطاً لجهة المؤسسة الجامعية الخاصة بالطائفة. الجامعة الإسلامية (في خلدة) في بيروت التي أنشأها نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الراحل الشيخ محمد مهدي شمس الدين، باعتبارها في صميم قانون إنشاء المجلس الشيعي الأعلى، لم تطرح نفسها على أنها جامعة الطائفة، وإن كانت ذات أرجحية طائفية. وقد عمدت إلى إدخال تخصصات مزدوجة العديد منها جديدة ومنها تقليدية.. لكنها ونظراً لتدفق ألوف الطلاب لم تستطع استيعاب أبناء الطائفة بطبيعة الحال.

كان قد ترافق ذلك مع الهيمنة على الجامعة اللبنانية. وهي هيمنة بدأت في عصر «الانحطاط الميليشياوي» وحصل العشرات إن لم نقل المئات من عناصرها على شهادات شرعية «ولكن مزورة» من بعض الكليات. هنا حدث ما لم يكن في الحسبان على صعيد تأثيرات الهيمنة السياسية ـ الأمنية. إذ خلافاً للمرحلة التي كان يحصل خلالها المتفوقون من طلاب اللبنانية على منح لإنجاز دراساتهم العليا والدكتوراه في الجامعات الفرنسية والبريطانية وغيرها، ممن كانوا يعودون أساتذة الى الكليات التي انطلقوا منها، بلغت الهيمنة السياسية والمحاصصة الطائفية ذروتها بإدخال أساتذة لا تاريخ أكاديميا لهم، مما أدى الى تفاعلات بالغة الخطورة على مستوى طلاب الجامعة، خصوصاً وقد ترافق ذلك مع «صفاء» في أوضاع الفروع بين الأولى والثانية، وتحكم بالقرارات الأكاديمية وتعيين المديرين والعمداء وترشيح الأساتذة وقبولهم بالتفرغ أو حتى في التعاقد. كل هذا قاد الى جعل الكليات عبارة عن «ملحقات» و«غيتوات» مفرزة لهذه الطائفة أو تلك. وبذلك فإن ما أكد عليه اتفاق الطائف لجهة تعزيز التعليم الرسمي والجامعة اللبنانية تحول الى أكبر انتهاك عرفه التاريخ الأكاديمي لأعراف مؤسسات التعليم العالي الرسمي.

ما سرى على الجامعة اللبنانية التي اعتبرت مجرد إدارة رسمية تشابه أي إدارة أخرى لم يسر على سواها من الجامعات الخاصة بطبيعة الحال. وهنا برزت عملية تمايز، كانت قائمة ولكنها باتت أشد وضوحاً في سنوات الحرب. بالطبع خلال المرحلة الأولى دخلت الى الجامعات الخاصة كتل طالبية، حافظت على تماسكها خلال سنوات الدراسة، لكنها لم تستطع يوما التأثير على القرار الأكاديمي، إذ ظلت خاضعة لأحكامه، خلاف ما حدث في الجامعة اللبنانية عندما أمكن السيطرة على القرار الاكاديمي من فوق ومن تحت. الآن عادت الأمور الى معادلاتها الطبيعية، في أن أبناء النخب الشيعية مثلهم مثل سواهم من أبناء النخب من سائر الطوائف يقصدون كلا من الجامعات الأميركية واللبنانية ـ الأميركية واليسوعية والعربية. ومن لا ينتسب الى هذه الشريحة يتجه نحو كليات ومعاهد الجامعة اللبنانية، أما من يمثلون بقايا الشريحة الوسطى فلهم الاختيار بين الجامعة الإسلامية والجامعات الخاصة المنشأة بعد العام ١٩٩٦ والتي تستوعب ما لا يزيد عن عشرة في المئة من طلاب التعليم العالي.

لا يختصر هذا كله التعليم العالي لدى الطائفة الشيعية أو سواها، إذ هناك المئات من الطلاب يتجهون نحو الحصول على دراسات عليا في جامعات ومعاهد أجنبية تبعا لقدرات الأهل، خصوصا أولئك الذين يملكون جذوراً في عالم الاغتراب. إذ بديهي أن يحصل هؤلاء على تعليم عال في دول الإقامة أو الدول الغربية. وبالتالي فإن مقاربة طلاب التعليم العالي، لا بد من أن تأخذ ذلك بنظر الاعتبار.

الحصيلة التي يمكن الخروج بها على صعيد مؤسسات التعليم العالي، أن الطائفة الشيعية لم تستطع أن تنشئ سوى جامعة واحدة تحتاج الى الكثير من العناية لمتابعة مسارها بعد رحيل مؤسسها، خلاف ما كان عليه الوضع في التعليم ما قبل الجامعي. أما ازاء الجامعة اللبنانية فقد مارست القوى السياسية النافذة في هذه الطائفة ما استطاعته، مثلها مثل سواها، بل أكثر من كل الآخرين، دورها السلبي كاملاً مما جعل من هذه المؤسسة الكبرى مجرد اشلاء ممزقة. حدث ذلك من خلال تغليب الولاء السياسي على المقاييس والمعايير الأكاديمية.

تضخم ونزف

لا تقل المباني التي أنجزها مجلس الجنوب عن مثيلاتها لدى الجمعيات الخيرية والاجتماعية، لكن المسألة هنا لا تتحدد بوضعية المباني التي شيدت في محافظة الجنوب أو البقاع الغربي ـ الاجزاء الملحقة بعمل المجلس ـ هنا لا نناقش في الكلفة والجدوى والحاجات. فقط نؤشر الى واقعة معروفة. الهوة التي تفصل التعليم الرسمي عن التعليم الخاص في الجنوب أو سواه واسعة ولا تردم بواسطة توفر البناء اللائق. انطلقت المدرسة الخاصة في المرحلة التي كانت فيها الرسمية عاجزة عن علاج مشكلاتها البنيوية التي افرزتها سنوات الحرب، وعملت على الانطلاق من مرحلة الحضانة، فاستقطبت تلاميذ كثيرين. المسار في المدرسة الرسمية

جنوباً كان معاكسا تماماً. البناء الملائم جاهز، لكن الاقبال ظل محدوداً. هنا لا بد من البحث عن السبب الجوهري. هل هو الاندفاع نحو مدرسة الطائفة بصرف النظر عما تقدمه... ام هو وضع المدرسة الرسمية بما آلت اليه؟

يعتبر المفتش التربوي السابق د. مكي ان المشكلة لا تتحدد بالبناء، ولا بالتجهيزات المدرسية من طاولات وكراسي ومختبرات وكومبيوترات، بل بالجهاز التعليمي الذي بات يعتمد في الجزء الأساسي منه على المتعاقدين. خلاف الوضع الذي كان عليه قبل الحرب والذي كانت تتولاه كلية التربية للمرحلة الثانوية ودور المعلمين للمرحلتين الوسطى والابتدائية. يرى مكي ان مجلس النواب اضطر الى اصدار قانونين لاجراء مباريات لأكثر من سبعة آلاف متعاقد في المرحلة الابتدائية وأكثر من خمسة آلاف متعاقد في المرحلة الثانوية. وحتى الآن لم تجر المباراة الموعودة.

يعتبر مكي «ان مشكلة المدرسة الرسمية ستقود اذا ظلت من دون علاج فعلي، الى زيادة نفوذ المدرسة الخاصة، أياً كانت الجهة التي تنشئها، حتى ولو كانت ملكية لافراد وليس لجمعيات خيرية أو اجتماعية. وتتباين هذه المشكلة بين المدينة والأرياف، ففي المدن الكبرى والداخلية تتوفر عناصر تربوية جيدة في المدرسة الرسمية، الا ان ما يحدث هو ان المناقلات التي تتم من الأرياف والمدن الصغرى نحو المدن الكبرى والتي لا تهدأ طوال العام الدراسي تجعل مدارس الأولى في حال من النزف الشديد. ففيما مدارس العاصمة والمدن الكبرى في حال تضخم، مما يؤدي الى عدد معلمين فائض عن الحاجة، مما يسمح للإدارة باختيار الأفضل، فيما طاقات الباقين تذهب هدراً، نجد مدارس الاطراف تتوسع في اعتماد التعاقد، مما يُبقي المدرسة والادارة التربوية أمام حكاية ابريق الزيت، التي بلغت ذروتها الآن بالحاجة الى ١٣ ألفاً من المتعاقدين في المرحلتين. الحل هو ان تتوقف المناقلات حتى يتحقق التوازن».

لا شك في ان المدرسة الرسمية تمتلك طاقات ثمينة وحقيقية، من دون أن تستطيع الافادة الكاملة منها. الأعطاب الداخلية في هيكلية التعليم هي بعض من ضخ الخارج اليها. السبب السياسي هو الأساس، التدخل في هذا المضمار لا حدود له، يبدأ من المراكز الحساسة ويصل الى أي مدير في مدرسة ما، ناهيك بالمناقلات، مما يؤدي الى مزيد من التعاقد، وذلك لخدمة «الاتباع» واستدرار الولاءات. ما يحكم على المستوى في المدرسة الرسمية ويتيح المجال أمام النمو المتسارع للمدرسة الخاصة هو وجود العدد الكبير من المتعاقدين في مدارس محافظات الجنوب والنبطية والبقاع ولا سيما الشمالي منه. أكثر من ذلك تدل سائر المؤشرات الى ان ارتفاع عدد المدارس الخاصة في هذه المناطق قد ترافق مع التوسع في اعداد المتعاقدين منذ العام ١٩٧٧ وتباعاً، حتى بلغ ذروته في العقدين الأخيرين. أي ان المعادلة الواضحة هو انه كلما تردى وضع التعليم الحكومي، كلما زاد التوجه نحو القطاع الخاص. من تكون الجهة المنشئة للمدرسة. لا يعني ذلك ان هذه الأخيرة قد حلت المعضلة التاريخية للهوة التعليمية بين مدرستي المدينة والريف، بل ان هذه مستمرة وتتطلب توافر جهود تتعدى قدرات المدرسة بطبيعة الحال.

وصايا مكي

لكن يبقى السؤال الفعلي هو كيف يمكن حل مشكلة التعاقد. وهل ما اشار اليه د. مكي لجهة وقف المناقلات لمدة خمس سنوات يكفي علاجاً للوضع؟

يجيب مكي عبر دراسة وضعها في الشهر الرابع من العام ٢٠٠٢ عندما كان يشغل موقعه. تحمل الدراسة عنواناً هو «تثبيت المدرسين والاساتذة المتعاقدين مدخل للاصلاح التربوي المرحلي أم خطوة تقليدية تتكرر؟». تقترح الدراسة وقف التعاقد والمناقلات لسنة دراسية واحدة تمهيداً لاجراء احصاء تربوي في ظروف مدرسية مستقرة. إعادة فتح كلية التربية وتفريعها وقيامها بالاعداد وفق الحاجات السنوية. بت وضع دور المعلمين، اعادة النظر في توزيع الثانويات الرسمية على ضوء الحاجات الفعلية واعتماد معيار واحد لاستحداث الثانويات منعاً للهدر في الطاقات والامكانات. معالجة الفائض من المعلمين والاساتذة ووضع نظام لتوزيعهم. وضع نظام للمناقلات. عدم اجراء أي مناقلات إلا بموجب مرسوم معلل وضمن القضاء أو المحافظة أو منها الى أخرى. عدم جواز النقل لأكثر من ثلاث سنوات. الاقتصار على التعاقد الداخلي عند الضرورة. العودة الى مبدأ التكامل بين حاجات المدارس والثانويات. اجراء الدورات التأهيلية مع الاعداد في كلية التربية ودور المعلمين. وأخيراً اعتماد تقييم الاداء السنوي لأفراد الهيئة التعليمية بوضع نظام وآلية وبطاقة تقييم لكل من المديرين والنظار والمعلمين مع ما يترتب عليه لجهة الوضع الوظيفي لكل واحد من أفراد الهيئة التعليمية...

هذه التوصيات التي يختتم بها مكي دراسة موثقة حول قضية المتعاقدين، لم تجد من يقرأها أو يتولى تطبيقها بطبيعة الحال.

وختاماً لم نناقش في مسألة المدرسة الشيعية «التربية الوطنية»، والمقصود هنا ما يتجاوز الكتاب بطبيعة الحال. إذ وجدنا انه من الظلم والإجحاف محاسبة هذه المدرسة أو سواها، عما هو مفقود على صعيد السلطة السياسية واجهزتها ومؤسساتها ناهيك بالمجتمع المدني من احزاب ونقابات ومؤسسات أهلية. لذلك صرفنا النظر عن هذا الجانب، منطلقين من انه ما دام الجميع يتصرف على أساس «مؤسسته» الخاصة، فضلاً عن «حصته» في المؤسسة الرسمية العامة، فمن البديهي ان يندفع الشيعة كقوة سياسية ـ اجتماعية في هذا المجال.. باعتبار ان الصراع لإصلاح المؤسسة العامة لا يمكن ان تخوضه طائفة بل قوة ضاغطة تمثل المساحة المشتركة بين اللبنانيين. لذلك يستمر تدهور المدرسة الرسمية وصعود المدرسة الخاصة، علما بأن هذا لا يسفر عن تطور نوعي في مضمار التعلم، باعتبار ان المدرسة الرسمية اللبنانية والخاصة المجانية والخاصة غير المجانية ما زالت بحاجة الى الكثير للوصول الى مجاراة التطور في هذا المجال. هنا نتحدث تحديداً عن المدرسة الشيعية التي تأخرت ليس أقل من قرنين عن مثيلاتها.

مدارس جبل عامل خلال الحكم العثماني

منذ عهد أحمد باشا الجزار عام ١٨٠٤م عرف الجنوب المدارس، ومن أهمها مدرسة الكوثرية. ومن طلابها أحمد البك النصار الذي أصبح زعيم جبل عامل في ما بعد، العالم اللغوي علي السبيتي (١٨٨٣)، الشاعر علي بن ناصر وعلي بن ابراهيم الحسيني الذي أصبح مفتي جبل عامل، ومحمد عز الدين مؤسس مدرسة حناويه. وقد زار الأخيرة عميد كلية الطب في ليون عام ١٨٧٥م ووصفها بأنها مدرسة عليا. وقد خرّجت عدداً من العلماء. مدرسة جباع: خرج منها الشهيد الثاني زين الدين بن علي وتعاقب من ذريته ١٢ عالماً، حتى انه يطلق عليهم في بعض المصادر «سلسلة الذهب». ذكر محسن الأمين من اعلامها ما يزيد عن ثلاثين شخصية. وأسس مدرسة بنت جبيل العلامة موسى شرارة وقد تخرج منها العلامة محسن الأمين، الشيخ محمد دبوق، الشيخ عبد الحسين صادق، الشيخ عبد الكريم الزين، الشيخ موسى مغنية والسيد يوسف شرف الدين و... واطلق على المدرسة التي أسسها آل نور الدين في النبطية الفوقا المدرسة النورية، تولى التدريس فيها السيد محمد علي نور الدين وخرجت عدداً من العلماء. بعد وفاته انتقل التدريس الى النبطية التحتا حيث نشأت المدرسة الحميدية. والأخيرة أسسها العلامة حسن يوسف مكي بعد رجوعه من العراق في العام ١٨٩١ وقد اتخذت المدرسة اسمها تيمناً بالسلطان عبد الحميد. وكان مقرها النبطية. وقد تغير اسمها الى المدرسة الدينية العاملية، واعفي طلابها خلال العهد العثماني من التجنيد الاجباري، واشرفت جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية عليها لاحقاً. خرجت هذه المدرسة عشرات العلماء منهم: الشيخ أحمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان، الشاعر محمد علي حوماني و...

كما كانت هناك مدارس في: شقرا، انصار، عيناتا، شحور، عيتا الزط، النميرية، جويا، مجدل سلم و...

وتعتبر مدرسة دير المخلص اولى المدارس الحديثة (١٧٠٩م)، وهناك مدرسة الأرض المقدسة لراهبات الفرانسيسكان (١٨٥٣)، مدرسة صيدا الانجيلية للبنات (١٨٦٢)، مدرسة غوتة رشدي أو الرشيدية (١٨٧٣)، مدارس جمعية المقاصد في صيدا (١٨٧٧)، المدرسة الوطنية (١٨٧٨)، مدرسة الفنون الانجيلية الوطنية للبنين (١٨٨٠)، المدرسة الحديثة في النبطية (أسسها رضا الصلح عام ١٨٨٢)، المدرسة الاسقفية للروم الكاثوليك (١٨٨٥)، مدرسة القديس لوقا في صيدا (١٩٠٤)، مدارس في مرجعيون وجزين وصور. وكانت اولى المدارس الحكومية في عهد الانتداب قد تأسست في قرى: حاروف، عرمتى، العديسة، العباسية، الغازية وكانت كلها ابتدائية أولاً. وأسس العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين المدرسة الجعفرية في صور عام ١٩٣٨ ثم تحولت الى ثانوية تحمل اسم الكلية الجعفرية...

المؤسسات والجمعيات الأهلية: محاولة لردم هوة التخلف والحرمان

تشير احصاءات وزارة الشؤون الاجتماعية للمؤسسات المتعاقدة معها عن العام ٢٠٠٣ الى وجود ١٦٨ مؤسسة تملك عقودا معها تصل موازناتها السنوية الى ما يزيد عن ستين مليار ليرة لبنانية. بالطبع لا يختزل تمويل الوزارة كلفة هذه المؤسسات، اذ يتعداها الى جوانب اضافية تتمثل بالتبرعات التي تردها من مصادر محلية وأجنبية وافراد. بعض هذه المؤسسات يتجه كما هو معلوم الى اعتماد سياسات استثمارية عبر مرافق خدماتية، لتأمين تمويله في حال شح المساعدات. المهم انه من اصل الـ١٦٨ مؤسسة يمكن القول ان ٢٥ منها يمكن اطلاق صفة الشيعية عليها.

لا تقدم معلومات الوزارة معلومات اضافية، مع العلم انه يمكن معرفة قيمة عقد كل واحدة. لكن هذا لا يمنع من القول ان المؤسسة الاجتماعية الشيعية قد تأخرت عن الانطلاق عن مثيلاتها لدى الطوائف الاخرى، خصوصا لدى كل من الموارنة والسنة. احد المشتغلين في العمل الاجتماعي يقدر عمر الأولى منهما بأكثر من مئة وأربعين عاما، فيما الشيعية لا تصل في افضل التقديرات الى اربعين عاما. اذاً هناك هامش من التاريخ يصل عمره الى قرن. قرن من التأخر عن مجاراة مثيلاتها لدى الطوائف الاخرى.

بالانتقال الى لوائح الجمعيات والهيئات الاهلية المتعاقدة مع وزارة الشؤون الاجتماعية يصل تعداد هذه الى ٢٠٩ جمعيات. من بين هذا العدد هناك ٤٣ جمعية شيعية صريحة من حيث المكان والاسم. اي ان النسبة المئوية هنا تصل الى حوالى ٢٦ بالمئة من المجموع العام. من خلال اسماء هذه المؤسسات يتبين ان القسم الاعظم منها نشأ لدى الطائفة الشيعية منذ اوائل الستينات واستمر متصاعدا حتى السنوات الثلاث الأخيرة. اذاً تعدل هذه الجمعيات النقص في المؤسسات، علما ان هناك فارقا كبيرا بينهما، ليس لأن موازنة الجمعيات مع الوزارة لا تربو على سدس ما هي عليه لدى المؤسسات، لكن لجهة الدور الاجتماعي الذي تلعبه كل منهما.

تعود بداية العمل المؤسساتي الى رشيد بيضون عندما أسس الجمعية العاملية لهدف تعليمي ـ تربوي سرعان ما تطور الى المجال التقني. لكنه ظل وحيدا طوال عقود، حتى أتى الامام موسى الصدر فأنشأ المدرسة الجعفرية في صور لكن الحرب الاهلية دقت ابواب البلاد، بعد ان كان قد حصل على تشريع بتأسيس المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى عبر قانون من مجلس النواب. خلال سنوات الحرب كان العمق الشيعي مرتبطا بالحركة الوطنية وتعاطى مع مؤسساتها، لا سيما الصحية والاجتماعية. برزت في هذا المجال اولا النجدة الشعبية اللبنانية وتلتها مؤسسة «عامل». وتمركزت كلتاهما في القرى والمناطق الأكثر حاجة الى الخدمات. لكن التغير السياسي الذي أطلقه الاجتياح الصهيوني في العام ١٩٨٢ ادى الى تحول عميق في بنية المؤسسة الاهلية في المناطق الشيعية. في غضون تلك المرحلة انشأت «أمل» ثم حزب الله مؤسساتهما، وأطلق قبلهما السيد محمد حسين فضل الله المبرّات. كانت البداية الحقيقية قبل الاجتياح، لكن التوسع الفعلي والحاسم حدث بعده.

تأخر الطائفة الشيعية عن انشاء مؤسساتها له علاقة مكينة بافتقاد المرجعية «الدولية» للطائفة، اسوة بالطوائف الاخرى، التي وجدت أشكالا من الاحتضان والتمويل، اذ ان ما لا يجود به اثرياء الطائفة تقدمه تلك المرجعية، التي تستطيع استثمار تقديماتها سياسيا واقتصاديا. وبالتالي فقد حدث تأثير فكري، فالمؤسسة منتج عقلي ـ اوروبي. ولم يكن لدى الشيعة من يستندون اليه. فإيران الشاه تتباين المعلومات حول دعمها لهم. هناك من يقول انها لم تقدم شيئا. وهناك من يذكر انها اقتصرت على تقديم ثلاثمئة منحة لطلاب جنوبيين بواسطة احد سفراء لبنان. لم يكن لدى القيادات الشيعية الاولى (كامل الأسعد، صبري حمادة وغيرهما) علاقات من هذا القبيل مع ايران، ولدى العراق كانت الامور مقفلة تقريبا... في غضون تلك الفترة اكتملت صورة المؤسسة الاجتماعية المارونية، السنية، الكاثوليكية.. وكان الشيعة هم والدروز الأقل اندماجا في تيار بناء المؤسسات الرعائية. مع انتصار الثورة الايرانية ودخول الشيعة كطرف رئيسي في معادلة السلطة بعد اتفاق الطائف حدث الفوران الكبير. لكن الاموال التي بنت مؤسسات بالعشرات، لم تكن ذات مصدر ايراني او من خلال وزارات الدولة ودوائرها فقط. كان هناك عامل هام لا بد من اخذه بعين الاعتبار في تكريس هذه النقلة ويتمثل بالتبرعات وأموال الخمس والزكاة. والكثير من هذه المصادر هنا هي لبنانية او عربية او اسلامية بالمعنى الأوسع.

بالطبع هناك فوارق بين المؤسسة التي تديرها أمل، وزميلتها التي يديرها «حزب الله» وغيرهما.. ليس من وظيفتنا تقويم هذه وتلك وتبيان الفوارق بين كل منها، ما لا بد من ذكره هو ان الدولة كما هو عهدها باتت احد مصادر التمويل. ما أشرنا اليه حول العقود مع الوزارة هو قليل من كثير على اي حال. لكن الأبرز يظل دوما في العمل الأهلي هو التمويل الخارجي الانشائي. ايران دخلت اخيرا على الخط. اما الطليعة فمعقودة لـ«الفَرَس» الفرنسية ومنذ منتصف القرن التاسع عشر تقريبا. الارساليات الاخرى التي تقاطرت على البلاد، دفعت سنة بيروت لانشاء المقاصد بهدف مواجهة هذا النشاط اليسوعي ـ الانجيلي الذي يستهدف لبنان.. تأخر الشيعة كثيرا

وطويلا. وكان المخاض صعبا وقاسيا.

يروى ان محاولة رشيد بيضون كانت مختلفة عما صارت عليه. بداية لم يكن الهدف تأسيس ثانوية هي الكلية العاملية، بل شبكة مدارس في القرى الجنوبية تحديدا. لكن المشروع تعثر بسبب تعذر التمويل، رغم الجولات على المغتربين. وعندما اطلقت الشهابية شبكات المدارس الحكومية في القرى، ومنها الجنوب وبعلبك ـ الهرمل، تحول المشروع الى كلية هي القائمة اليوم، اضافة الى المهنية المعروفة. مقابل ذلك يقول احد الفاعلين في العمل الأهلي ان فرنسا وحدها كانت وراء اكثر من ٤٥٠ مؤسسة لدى الطوائف المسيحية الغربية. كل المؤسسات الاستشفائية الكبرى في لبنان وراءها جمعيات «اهلية». الآن صار للشيعة مؤسساتهم الصحية ايضا، كما المؤسسات الخدماتية والرعائية. وبذلك اكتمل المشهد اللبناني.

لا يمكن لحلقة واحدة القيام بمهمة رصد ومتابعة كل المؤسسات الشيعية، نكتفي هنا بواحدة هي مؤسسات الامام الصدر باعتبارها الأعرق ـ باستثناء العاملية ـ والأقدم والتي كانت بداية الموجة. علما انه بين التأسيس واللحظة الراهنة هناك اختلاف لا بد من أخذه بعين الاعتبار. أنشأها الإمام الصدر ضمن توجهه المؤسساتي الاجتماعي. وكانت حركة افواج المقاومة اللبنانية ـ أمل هي الواجهة السياسية كما هو معروف، لكن حدث انفصال بعد تغييب الصدر بين الحركة والمؤسسات هذه. بات لحركة امل شبكة مدارس تمتد من الجنوب حتى أقاصي البقاع، مثلها في ذلك مثل حزب الله وجمعية المبرات، اما مؤسسات الصدر فقد باتت امرا آخر، لا ترتبط بأي رباط بجهة سياسية، اذ تتولى مسؤوليتها السيدة رباب الصدر، وتملك شبكة من المدارس المهنية والمستوصفات والمدارس الاكاديمية في كل من بيروت وصور.

التدمير والبناء

تعيد السيدة الصدر نواة مؤسسات الصدر الى مرحلة الإمام الصدر وما انشأه من مراكز ومعاهد بين عامي ٦٢ و١٩٧٨. والتاريخان اللذان تقدمهما الصدر هامان جدا. إذ أن الاول جاء بعد سنوات قليلة من مجيء الصدر الأخ الى لبنان وإلى صور تحديدا. وهي مرحلة سبقت دوره السياسي الكبير في استخلاص دور الطائفة وموقعها في معادلة الكيان اللبناني. لكن لحظة التأسيس الاولى هذه كانت تتواكب مع تحول دراماتيكي طال الموقع اللبناني عموما والجنوبي منه خصوصا. فقد انفتحت جبهة الجنوب على الصراع العربي ـ الاسرائيلي، وبدءا مما بعد نكسة الخامس من حزيران ١٩٦٧ التهبت هذه المنطقة وتضاعف الأمر بعد وفود قوافل المقاومة الفلسطينية من عمان إثر مجازرها العام ١٩٧٠. في التأريخ الأخير الذي قدمته الصدر حدث الاجتياح الأول او ما عرف بعملية الليطاني والتي وصلت الى تطويق صور واحتلال عشرات القرى والبلدات. لكن ما كاد الجنوب أن يبرأ حتى حدث الاجتياح الأبرز الذي وصل عمق لبنان وشمل العاصمة.

تؤكد الصدر أن مؤسسات الإمام الصدر أصيبت حينها بضرر فادح. فقد تعطلت أنشطة مدينة الزهراء في بيروت بفعل النهب والقصف وتشردت طالباتها، فألحقت بمنشآت قرب مهنية جبل عامل في منطقة البرج الشمالي قرب صور، الى أن تم وضع الحجر الأساس للمجمع الثقافي على الشاطئ، تأطرت العديد من الانشطة تحت اسم جمعية «مؤسسات الإمام الصدر» بموجب العلم والخبر رقم ١٩/أ.د. في العام ١٩٨٤.

أهمية التواريخ التي تقدمها الصدر حاسمة، فهي أولا تعيد التذكير بسياسة الأرض المحروقة التي تابعها العدوان بدءا من مداخل الجنوب وحتى العاصمة. والمهم أن هذه العملية التدميرية تعطف على ما سبق، أي على ما أطلقه العدو الصهيوني من مضاعفات.. والتاريخ الأخير الذي تذكره الصدر يأتي بعد عامين من الاجتياح، وهو موعد الشروع في نفض الدمار وإعادة إطلاق وشرعنة هذه المؤسسات.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: في مثل هذا المناخ الأمني عبر العواصف الكبرى والصغرى كيف لمؤسسة أهلية أن تحدد سياساتها؟

تجيب الصدر قائلة: كانت المؤسسات قد توصلت الى تحديد المسائل الرئيسية التي يتوجب عليها علاجها او التعامل معها على الأقل، وهذه اعتبرتها ضرورة، وهي مزيج من نتائج الحرب العبثية في الداخل وذيول المواجهة المصيرية مع الاحتلال. أما هذه المسائل فهي بالترتيب على النحو التالي: الفقر، الاعاقة، التهجير، البطالة، الاستشفاء، الخلل في الهرم السكاني، وأخيرا عمالة الأطفال. وعليه فإنها قد اعتمدت برامج وخدمات للتعاطي مع هذه التحديات تتمثل تربويا بالتعليم الاكاديمي والمهني من خلال دور الحضانة، مرحلة التعليم الأساسي، التربية المختصة، معهد التمريض وبرنامج التدريب المعجل. أما في المجال الصحي، فعبر خدمات وقائية وتشخيصية وعلاجية تتولاها شبكة مراكز صحية تنتشر في قرى وبلدات: صديقين، دردغيا، الشهابية، عنقون، كفرحتى، جل البحر، دير سريان، الطيبة وعيتا الشعب والقوزح قريبا. بالطبع يضاف الى هذه المراكز الصحية الثابتة العيادات النقالة ووحدة طب العيون. أما البرامج الاجتماعية والاقتصادية فتتمثل ببرنامج رعاية اليتيمات ومعمل جمع الحليب وتصنيعه والمطعم المدرسي.. يبقى المجال الثقافي ـ الفكري، وهذا يتولاه مركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات.

الداعمون والمستفيدون

يطرح هذا البرنامج وتلك الخدمات مسألة التمويل مباشرة. وهي مسألة مطروحة دوما لدى أي جمعية أهلية مهما كانت هويتها ولونها، طالما ان إعداد البنية اللازمة للخدمات تتطلب انفاقا، وكذلك التجهيزات وكلفة التشغيل وأجور العاملين والصيانة و... كلها تتطلب عملية موارد مستمرة بالتدفق.

ترى الصدر أن المؤسسات تعتمد سياسة تنويع مصادر التمويل حرصا على إشراك معظم المهتمين وضمان ديمومة الخدمات وتطويرها. المستفيدون يساهمون أنفسهم بجزء من تكاليف التشغيل عبر أقساط تحدد إمكانياتهم، ثم هناك معاينات رمزية في المستوصفات. إذاً ذوو الطلاب في المدارس الاكاديمية والمهنية يتولون جزءا من المسؤولية. جزءا محسوبا بالعلاقة مع القدرات، قدراتهم

كأهل، او بوصفهم مرضى في المستوصفات. أما الاجزاء الباقية فتساهم بها الوزارات الحكومية بموجب عقود مع وزارات الشؤون الاجتماعية والتربية والصحة. وهذه الوزارات هي التي تتولى إبرام العقود مع المؤسسات الاهلية لتقديم خدمات لمواطنين تحول أوضاعهم الاجتماعية دون تلبيتها. إذاً المصدر الأول هو أهلي، والمصدر الثاني هو رسمي باعتباره مقتطعا من موازنات الوزارات المذكورة في الموازنة العامة. أما القسم الثالث كما تشير الصدر فيتمثل ببعض فرائض المسلمين. والمقصود هنا هو الخمس والزكاة المفروضان شرعا على الأموال المنقولة وغير المنقولة كما هو معلوم. وتثني الصدر على دور المغتربين وغيرهم من المواطنين القادرين وهؤلاء يشكلون رافدا مهما عبر تبرعاتهم ومشاركاتهم في مآدب الافطار التي تقيمها المؤسسات لمناسبة شهر رمضان.

سوى هذه المصادر الثلاثة هناك مصدر رابع يتأتى مما تتلقاه الجمعية من مساهمات تقدمها برامج التنمية وصناديق الدعم الخليجية والدولية والمنظمات المانحة. هذه النقطة الختامية التي تشير اليها السيدة الصدر بالغة الأهمية، لأن عبئها الاساسي يقع على عاتقها من خلال مشاركتها في المؤتمرات والندوات الدولية والعربية لهذه الهيئات. وهي كما هو معلوم رافد أساسي في تمويل المؤسسات، والكثير من المؤسسات المشابهة.

هذه النقطة التي تشير اليها الصدر تفتح على قضية المستهدفين من العمل الاهلي او الاجتماعي. إذ لا يكفي تأسيس مؤسسة للحصول على الدعم والاسناد سواء من مصادر داخلية او خارجية. إذ أمام هؤلاء لا بد ان تقدم المؤسسة ما يقنع الجهات المانحة بعدالة وحاجات من تتوجه اليهم.

تعتبر الصدر ان المؤسسات ترى في العمل الاهلي والاجتماعي سعيا نحو المجتمع العادل المتعافي من الجهل والمرض، حيث تكافؤ الفرص بغض النظر عن المعتقد او الجنس او غيرهما، وحيث الحوار المتنامي بين إسهامات المقتدرين وحاجات المحرومين وتوقعاتهم. حوار قائم على المشاركة وعلى بناء الثقة بالنفس وبالآخرين.

تضيف: حسب ثقافة المؤسسات تحتل دائرة المستهدفين موقع المركز او القلب في منظومة العمل الأهلي، وحاجاتهم هي البوصلة التي ترشد تصميم البرامج وتؤشر الى ضرورة إطلاقها وتطويرها. ينطلق اختيار عناصر المركز (المستهدفين) من مؤشر الحاجة والحرمان ويستمر بمعيار المشاركة. لهذا كان ترتيب جدول الأولويات حسب الآتي: الأيتام، الحالات الاجتماعية الصعبة، ضحايا الحرمان على اختلاف أشكاله وبغض النظر عن المعتقد او الجنس او غيرهما.

العلاقات المحلية والخارجية

دوماً تتحصن الهيئة او المؤسسة الاهلية بالعديد من العلاقات مع شرائح اجتماعية متعددة، كما انها تمتلك شبكة من الاصدقاء تتولى تنظيم عملهم التطوعي وجعله رافداً في مجرى عملها. لكن المئات من هؤلاء يفضلون الانضواء تحت ما يسمى هيئات وسيطة تتولى هي دون سواها تكليفهم بالمهام التي تتطلب الكثير من الجهود والعلاقات.

اين مؤسسات الإمام الصدر من هذه العلاقات، سواء كانت في اوساط نشاطها ام بالتواصل مع المنظمات الاهلية المحلية والدولية ناهيك بالاقليمية.

ترد الصدر مؤكدة على هذا الرباط الذي يضم المؤسسة الى اصدقائها والمنظمات الاهلية ومن الهيئات الوسيطة هناك الرابطة النسائية اللبنانية بفرعيها في صور وبيروت، وهي جمعية ذات شخصية قانونية تأسست عام ١٩٧٨ وهدفها دعم مؤسسات الإمام الصدر. هناك جمعية خريجات مدرسة التمريض وتضم هذه معظم الخريجات. وهدفها صيانة مصالحهن وتنمية قدراتهن عبر تبادل المعلومات واستمرارية التدريب ويتم ذلك بالتنسيق والتعاون مع المؤسسات. كما اننا نتصل بالاوساط المحلية عبر شبكات الاصدقاء واللجان وهم يجتمعون بشكل دوري لتنظيم الانشطة المناطة بهم. ثم ان التواصل قائم مع المنظمات الاهلية المهتمة بشؤون التطوع، ونستقبل اعداداً من المتطوعين المحليين او القادمين من دول اخرى ومن طلاب الاجازات والدراسات العليا لتدريبهم او لتزويدهم بالمعلومات التي يحتاجونها لابحاثهم. اما التعاون مع القطاع الاهلي فيتجسد بالانشطة المشتركة مثل برامج تلقيح الاطفال وتوزيع ادوية الامراض المزمنة وحملات التوعية من مخاطر الالغام وتبادل البرامج والخبرات التربوية والرعائية والقيام بنشاطات ترفيهية ورياضية واجتماعية مشتركة.

يبقى الحديث عن العلاقة مع الشبكات والمجالس الاهلية العالمية والاقليمية والمحلية، فالمؤسسة هي عضو نشيط في العديد من الهيئات وهي حريصة على تفعيل التعاون والتنسيق مع شقيقاتها وعلى المشاركة في المؤتمرات والندوات ذات العلاقة. كما انها عضو مؤسس في الشبكة العربية للمنظمات الاهلية، المجلس العربي للطفولة والتنمية، ملتقى الهيئات الاهلية، تجمع الهيئات الاهلية التطوعية في لبنان، المجلس النسائي اللبناني، المجلس الوطني للخدمة الاجتماعية وغيرها من المظلات غير الحكومية المحلية والدولية، وآخرها نيل الصفة الاستشارية الخاصة في المجلس الاقتصادي ـ الاجتماعي التابع للامم المتحدة.

من الإغاثة إلى التنمية

منذ ان توقفت الحرب الاهلية تقلصت المساعدات التي كانت تقدمها الهيئات الدولية لمثيلاتها اللبنانية. اذاً انتهى عصر العمل الاجتماعي الإغاثي، الذي يتمثل بتقديم المواد الغذائية للاسر المنكوبة، وكذلك الحاجيات الاساسية ممثلة بالخيم والبطانيات وما شابه ذلك. كانت المقولة الاساسية التي انطلقت منها الهيئات الدولية الداعمة، انه لا بد من خوض تجربة بناء القدرات الذاتية اعتماداً على المصادر الداخلية، وبالتالي لا بد من الانتقال بالمستفيدين من المرحلة التي تفترض المساعدة المباشرة الى العمل التنموي المستدام، الذي يفتح على معالجة فعلية للحاجات عبر المشاريع التي تقود الى تحسين الاوضاع الاجتماعية على نحو شامل وفعلي.

هذا التحدي تواجهه كل المؤسسات والجمعيات الاهلية، وهو لا يعني اقفالا كاملا لمصادر الدعم. تقول السيدة الصدر: «لا بد للجمعيات ان تواظب على بناء قدراتها الذاتية ومنها رفع كفاءة العاملين بالتدريب والتأهيل المستمرين، وإجراء تقييم شامل لجدوى

المشاريع الجارية وآثارها على المعنيين واعداد تقارير بالنتائج معززة بالمقترحات المستقبلية. ويتم ذلك من خلال تفاعل الجمعيات والمنظمات على مستوى الجنوب وعلى صعيد الوطن ككل، مما يؤدي الى توافر الفرص لتحديد مجالات التدخل حسب اولوية الحاجات وتلاؤمها مع توقعات كل منطقة وامكاناتها».

وتختم الصدر قائلة: ان مثل هذا التوجه يتطلب الاستمرار في تقديم الخدمات التقليدية في مجالات التربية والتدريب ورعاية المحتاجين والصحة وغيرها. اذ المعلوم ان لبنان في طور السلام ما زال يحصد نتائج سنوات المحنة، لا سيما تلك التي شهدت اقسى حال من الانهيار الاقتصادي والاجتماعي والمعيشي. اي ان توقف القتال هنا لم يترافق مع نهوض اجتماعي ـ معيشي، اذا لم نقل العكس.

يبقى القول ان تأخر المؤسسة او الجمعية الشيعية حوالى قرن عن مثيلاتها لدى بقية الطوائف الاخرى، دفعها وفي ظل ظروف سياسية ضاغطة ومتاحة على صعيد تأمين الموارد الى تسريع خطواتها محاولة اللحاق بمثيلاتها لدى الطوائف. لا يعني ذلك ان هناك سوية واحدة قد حدثت، لكنه يعبر في جوانب اساسية عن تقلص الفجوة التي ما زالت قائمة... لكن لا بد من القول ان النشاط على المستوى الاهلي، ليس بديلا لدور الدولة التنموي الذي يظل هو الاقدر على قراءة خارطة الوضع بتفصيلاتها المناطقية والمحلية والطوائفية... وهو دور مفقود على اي حال من الاحوال. مما يدفع الى محاولة ملء الفراغ عبر اشكال من العمل التي وإن كانت تتماثل في بعض الجوانب، الا انها تتكامل من جوانب أخرى. ويظل المؤكد ان ردم الهوة يتطلب اولا الاعتراف بواقع التخلف والحرمان ووضع الاطر اللازمة لمواجهته عبر شراكة القطاعين العام والخاص ومراقبة المجتمع، بدلا من تحول المؤسسات والمرافق الى «اقطاعات» حيث لا رقيب ولا حسيب.

وصايا الشيخ شمس الدين

يقول رئيس المجلس الاسلامي الراحل الشيخ محمد مهدي شمس الدين في كتاب الوصايا، الصادر عن دار النهار، ط ٢، تشرين الثاني ٢٠٠٢ ما يلي:

● أوصي ابنائي وأخواني الشيعة الامامية في كل وطن من اوطانهم، وفي كل مجتمع من مجتمعاتهم ان يدمجوا انفسهم في اقوامهم ومجتمعاتهم وأوطانهم، وألا يميزوا انفسهم بأي تمييز خاص، وان لا يخترعوا لأنفسهم مشروعا خاصا يميزهم عن غيرهم (ص ٢٣).

● ونتيجة لجميع التطورات حصلت هجرة شيعية من الارياف الى المدن وخاصة في بيروت وبدأت تتكون نواة صغيرة لما يمكن تسميته بورجوازية شيعية، الى جانب الفئة المتعلمة التي تخرجت من الكليات وبعض الجامعات.. لم تكن بدايات التحسس بالحرمان الشيعي شيعية وإنما كانت علمانية ومتأثرة باليسار.. اذن خروج الشيعة لم يكن على قاعدة التشيع وإنما كان على قاعدة الحداثة (ص ٣٤ ـ ٣٥).

● ارى ان مسؤولية العرب والمسلمين ان يشجعوا كل الوسائل التي تجعل المسيحية في الشرق تستعيد حضورها وفاعليتها في صنع القرارات وفي تسيير حركة التاريخ وان تكون هناك شراكة كاملة في هذا الشأن بين المسلمين والمسيحيين في كل اوطانهم ومجتمعاتهم (ص ٥٠).

● ان المطلوب من الانظمة التي تضم مجموعات متنوعة ان تعترف بالهوية الدينية والمذهبية لكل مجموعة من المجموعات.. وأكرر وصيتي الملحة ان يتجنب الشيعة في كل وطن من اوطانهم شعار حقوق الطائفة والمطالبة بحصص في النظام، وأوصيهم وصية مؤكدة الا يسعى اي منهم الى ان ينشئ مشروعا خاصا للشيعة في وطنه، لا في المجال السياسي. او الاقتصادي او التنموي.. اوصيهم بأن يندمجوا في نظام المصالح العام وفي النظام الوطني العام وان يكونوا متساوين في ولائهم للنظام وللقانون وللاستقرار وللسلطات العامة المحترمة. (ص ٥٥ ـ ٥٧).

● ان الشيعة ليسوا اقلية في العالم الاسلامي، وليسوا اقلية في العالم العربي، وكذلك هو شأن المسيحيين ايضا في العالم العربي. لذلك فإن اي دعوة لحماية الاقليات وإنصافها هي مخاطرة كبرى لا يجوز السير فيها.. ان التغلب على الاضطهاد والحرمان الذي تعرض له الشيعة لا يكون بالاستجابة لدعوات حقوق الاقليات وإنما يكون بالعمل السياسي الانساني الدائم لتوثيق عرى الاندماج.. في أوطانهم وفي توثيق نظام المصالح العام وفي زيجات مختلطة وفي كل شيء يمكن ان ينشئ شبكة مصالح عامة للمجتمع يكون الشيعة جزءا من نسيجها لا ينفصم (ص ٨٤ ـ ٨٥).

المؤسسات الأهلية

يتبين من بيانات وزارة الشؤون الاجتماعية ان المؤسسات الشيعية المتعاقدة معها هي: المؤسسة المهنية العاملية (عماد بيضون)، الجمعية الخيرية الثقافية ـ المعهد الفني الاسلامي (ابراهيم شمس الدين)، جمعية الاصلاح والرعاية الاجتماعية ـ المعهد العربي للعلوم المهنية ـ ومهنية الحسين بن علي (د. حسين يتيم)، الجمعية الخيرية الاجتماعية (علي سبيتي)، جمعية المبرات الخيرية، مبرة الامام الخوئي ومبرة السيدة خديجة ومعهد علي الاكبر المهني والتقني (عبد الله الزين)، معهد الزهراء للعلوم الصحية ـ المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى (محمد اسماعيل شعيتو)، جمعية التوجيه الاسلامي ـ مبرة الامام المهدي (محمد محمد عواضه)، جمعية المبرات الخيرية ـ مبرة الامام زين العابدين (عبد الله الزين) جمعية المرتضى الخيرية (حسين محمد يزبك)، جمعية البر والاحسان (حسين بيطار) مؤسسات الامام الصدر ـ مدرسة رحاب الزهراء، (السيدة رباب الصدر) جمعية المبرات الخيرية ـ مبرة الامام علي بن ابي طالب (عبد الله الزين)، جمعية المبرات الخيرية، مبرة السيدة مريم (عبد الله الزين) جمعية حركة امل المحرومين ـ البيسارية وبرج رحال (خليل حمدان) الجمعية الخيرية الجعفرية (يسرى سويد) الجمعية اللبنانية لرعاية المعوقين (السيدة رنده بري)، الجمعية الخيرية الثقافية ـ مبرة السيدة زينب (ابراهيم شمس الدين) جمعية حركة امل المحرومين السلطانية وتول ـ (خليل حمدان)، الجمعية العاملية لرعاية اليتيم (د. حسن زين الدين). وهناك جمعيات اخرى عاملة في مناطق جنوبية، يغلب عليها الطابع العلماني والمدني.